186

جمال الغيطانى

دفاتر التدوين: الدفتر الخامس

نثار المحو

http://www.maktbtna2211.com/

Ahmed Mady

دار الشروق

WWW.MAKTBTNA2211.COM

Tuseday
14 Feb. 2012

WWW.MAKTBTNA2211.COM

جَمَال الغِيْطانى

دفاتر التدوين: الدفتر الخامس

نِثَارُ المَحْوْ

دار الشروق

كأن الحياة ذكرى

فؤاد حداد

بدءخروجى

يرن جرس الهاتف الداخلى، هذا صوتها المتفائل، الموحى دائماً بلحظة الشروق، بدء نهار جديد، على امتداد ستة وثلاثين عاماً منذ بدء التحاقى نتحدث مرة أو مرتين فى العام، نتبادل التساؤلات عن أحوال الأبناء والصحة، وقد نتطرق تلميحاً إلى بعض أمور العمل، فى العام الأخير تبادر هى دائماً، تبدى وداً دافقاً، ربما لطول المدة، وهذا التفاهم على البعد، وذلك التوازى فى أحوالنا، انتقال الأولاد من مرحلة إلى أخرى، تساؤلات عن المستقبل، الخطوبة، الزواج، هى لم تصبح جدة بعد، كذلك أنا. بمجرد إصغائى إلى صوتها يغمرنى بشر ما، قالت متفائلة: هل لاحظت الزيادة فى مرتبك هذا الشهر؟، قلت إن من لفت نظرى أمين الخزينة، منذ سنوات فقدت الإحساس بالراتب الشهرى، لم أعد أنتظر يوم تسلمه بعد أن قلّت القدرة الشرائية للجنيه، وأصبح لا يكفى إلا الضئيل من الاحتياجات. قالت مؤمنة: إن القليل والكثير لم يعد ينفع، لكن هذه الزيادة ذات معنى. قلت: إننى توقعت علاوة الامتياز. قالت: إن علاوات الامتياز سوف تصرف الشهر القادم، لكن تلك الزيادة علاوة تكريمية لمن بلغوا بداية السنة الأخيرة للخدمة، قلت مبتسماً: إذن هذا من الخمسين جنيها؟، قالت إنها أرادت أن تنبهنى حتى لا أحار كثيرا، ثم قالت إنها عشْرة عمر، وأن الفرق بيننا عام واحد، بعد خروجى إلى المعاش. فَى الشهر المماثل فى العام التالى ستخرج هى أيضا، أبديت لها وداً جميلاً، تمنيت لها الصحة وهدوء البال. بعد

انتهاء المكالمة تطلعت إلى جدران المكتب، الصور فى إطاراتها، اللوحات والمستنسخات التى أديم النظر إليها، إلى الكتب فى الصوان الذى يواجهنى.

علىّ أن أبدأ نقل هذا كله حتى لا أباغت بضرورة إخلاء الموقع فى أيام معدودات. ليس مفاجئاً وصولى العام الأخير، بلوغى لحظة التقاعد السنة القادمة، تماما فى مثل هذه الأيام، منذ فترة أفكر فى ذلك، لكنها المرة الأولى التى أواجه فيها بإجراء عملى ينبهنى إلى وصولى الحد. كل شيء يمضى وفقاً لنظام دقيق، معمول به منذ زمن، غير أننى فوجئت بتلك العلاوة، لم يحدثنى أحد عنها، فكرت فى الإجراءات المصاحبة لانتهاء الخدمة، تسوية الراتب التقاعدى، التأكد من تمام سنوات خدمتى، تحرير أوراق لازمة، حصر مستحقات أحصل عليها من التأمينات، من صندوق الزمالة، من النقابة. منذ أسبوع زارنى زميل قديم أحيل إلى التقاعد منذ عامين، رحت أستفسر منه عن الخطوات التى مر بها، الإجراءات الإدارية التى أعول همّها، الأوراق التى يجب تحريرها، إجمالى مكافآت التقاعد بالتقريب والتى سأودعها البنك لأنفق من عائدها على ما سينقص من الراتب الشهرى بعد الخروج من الخدمة.

الخروج من الخدمة؟

التقاعد؟

لماذا أبدو دهشاً، مباغَتاً، حائرا كمن فقد علامات الإرشاد والتحديد مع أننى منذ حقبة أتطلع إلى ما كان، أكثر مما أرنو إلى ما سيكون؟

لماذا يتصاعد إحساسى بالزمن فجأة، كأننى دوهمت بغتة مع أن الأمر جلى منذ فترة ليست بالقصيرة.

هكذا أعيش حالة فاصلة مقداراً من الوقت، مرحلة بين طورين مختلفين، لا أنتبه تماما إلا مع علامة، ربما تكون حادة، أو لمسة هينة، معقول أن ينبهنى صوتها عبر الهاتف إلى تلك اللحيظات الفاصلة؟

أطيل التحديق إلى لا نقطة محددة، لا يمكن إدراكها بالحواس، كأنى أطفو فوق الأويقات المنقضية، لا أعرف إن كانت تعبرنى أم أعبرها؟ ، تلك الأيام، الشهور، السنوات، تلك الثوانى، الدقائق؟ لماذا أترقرق حتى لأدنو من ذرف الدمع بغير دمع ، مع أنى أتوقع ذلك؟

أهو صوتها المنبئ ببدء الإجراءات، إعداد الأوراق، صك الأختام، طى الملفات، تلك العلاوة التى أنبأتنى بها تذكير هادئ بالاستعداد، إشارة لحزم حقائب الرحيل، شعاع خافت ينبه المسافر إلى بلوغ المحطة الأخيرة، حقاً ما أسرع مرور الأوقات!

أرانى بعينى طائر محلق على ارتفاع شاهق، أعبر ذلك الطريق إلى مبنى الإدارة القديم، لا يمثل عندى اسم اليوم، الشهر، غير أنى أرى اللحظة عند اجتيازى المدخل أول مرة، توقيعى إقرار استلام العمل، وقتئذ كنت فى الرابعة والعشرين، ست وثلاثون سنة، مدة المسار، تتحول الآن إلى وريقات فى ملف، ينقل إلى المحفوظات، يتراكم الغبار فوق السطور المكتوبة عبر أويقات شتّى، كذا التوقيعات، والتقارير التى لم أطّلع عليها، وقرارات كانت تعنى شيئا يوما ما.

يبلغنى التمام بغتة ، ظننت شسوع المسافة الفاصلة، عندما جئت كـان التطلع إلى الأمـام يغلب النظر إلى الوراء، مع بلوغ الثـلاثين جـرت وقـفـة، دوّنت مـا عـبـر عن دهشتى لتـمـام عـقـود ثلاثة، مع الوصول إلى لحيظة فارقة، يبدو الأمر وكأن بابا أغلق تماما، يستحيل العودة خلاله، بعد الثلاثين تضيق المسافات، إلى الأربعين أسرع، مـروق إلى الخـمسين وها أنا قاب قـوسين أو أدنى . بلوغ الخدمـة، تقاعد، خروج إلى المعاش، المعاش؟ كيف لم أتمعن هذا اللفظ من قبل، وكيف تسمى النهاية خروجاً، والتقاعد عن العمل معاشاً ، هل فى التعبير أصداء لشفرة خفية قادمة من زمن الأجداد البعيدين، سمّوا الموت خروجًا إلى النهار، رفضوا النهاية المطلقة، اعتبروا الصمت الأبدى عن النطق مجرد طور، انتقال من حال إلى حال .

الخـروج إلى النهـار . الإحـالة إلى المعـاش . . ربما . أيا كـانت التعابير، ليس ذلك إلا تعبير عن انقضاء حيـاة، بدء وقت مغـاير، تكون فيه الاستعادة أكثر من التوقع، أحفظ العبارة الدالة كما وردت فى الكتاب القديم المقدس :

«بالأمس أنجزت حياتى

واليوم أخرج إلى النهار . . »

أرددها عندما أتوحد بذاتى، أخلو إلىّ، حال ليس جديداً عندى، حدة وعيى بانقضاء الأوقات منطلقى لتدوين تلك الدفاتر، لكن بدء الخطوات العمليـة لما كـان، مجـرد توقع، يدفع بالأمـور إلى مـجـال مغاير، صوت زميلتى الباسم، الزهو بالمودة يثير انتباهى إلى ما أدركه فى مجمله منذ فترة .

تلك الشذيرات المتبقية من اندثار اللحظات، مجرد نثار تبقى من محو أتم لأويقات مررت بها، أو عبرتني، بعضها أنهكني، أمضني، منها المبهج لي، مرفرفي إلى الرقائق العُلا.

مع دُنو التمام يختزل كل شيء، تتكثف الأزمنة في نثيرات تشهب بي، تفوتني ولا تمكث، لو قصصت أمرها على من تبقوا وصبروا على قُرباي لتعجبوا وأخذتهم دهشة، ذاك نثاري، ما تبقى مني عندي. لا يعني إلاي، كافة ما أتممته ليس إلا ظلاً لظلال ممحوة، ندف غمامات تلاشت، حضورا غير مشهود لأشخاص عبروا، عرفت بعضهم. سمعت عن الآخرين، قدموا من بوابات خفية عني، عبروا مبتعدين من أخرى يستحيل رصدها. مواقيت منقضية، مجرد إشارات لوجود ما كان، توحي أو تدل على دورات الكون الخفية، الطاوية لي طياً.

نثاري أصداء رغبة. خوف، توق، حزن، اشتياق، ظلال غير مدركة لندى تكوّن على خبايا الروح، أفقي العميق مزدحم بأنّات لم تسمع وآهات لم تصدر وهسيس كواكب ولمعة نجوم قصدتها بالبصر الحسير يوماً ما. لحيظة ما، ساءلتها عن مواضعها، عن توابعها، عما تبقى من أعمارها، بعضها سيمثل بعدى ملايين السنين، وبعضها اندثر منذ ملايين السنين رغم رؤيتي لأضوائه المنبعثة من الماضي، لا أنتبه إلى رحيلي المستمر، أتطلع إلى ما كان مني الآن كما أرقب تلك النجوم الذاوية، كلانا ماض. أنا لست الكائن الذى طالعها. أنا غيري. أنا آخر كان يوازيني ثم راح يغرب عني، أحاول لملمة ما تبقى من نثاره، نثاري بعد اقتراب حصادي ودنو قطفي،

أتعلق بفُتيفات، لعلّ وعسى، هكذا . . شرعت فى تدوين ما تبقى، ما أقدر على التقاطه، ما يرد علىّ بغتة متحرراً من الزمان والمكان، أسئلة سأغيب ولن أقف على أجوبتها، يكفينى النُطق بها، لم أقصد الترتيب، لم أهذب التسطير. لعل ما يفد إلىّ يدل علىّ. لعل ما ألتقطه يشير إلى بعض مما كان منى، ما صدر عنى من حنين وأنّات أثناء شروعى وتأهبى فى الخروج إلى هناك، ذاك حسبى . .

تساؤل

امبارح راح فين؟

تساؤل

هل نولد لنموت؟

أم . . نموت لنولد؟

تساؤل

بعد عشر سنوات من الآن، من تلك اللحظة، بعد عشرة شهور، بعد عشرة أيام، بعد عشر ساعات، بعد عشر دقائق، بعد عشر ثوان، أين سأكون وأين سيكون أحبائي؟ من يمتون إليّ بصميم؟

تساؤل

أبيض، أسود،
أسود، أبيض
أيهما الأسبق؟

تساؤل

عندما ننظر إلى جهة ما، هل تنبع الرؤية من داخلنا إلى خارجنا، أم تفد الأشياء من خارجنا إلى داخلنا؟

تساؤل

لماذا يولد الطفل مقلوباً؟

يخرج من رحم الأم إلى رحم الحياة برأسه المتجه إلى الأرض، لماذا يكون الوضع طبيعياً إذا كان مقلوباً، ولو خرج بقدميه معتدلاً لكان فى ذلك هلاكه؟

تساؤل

تلك النسيمة

مطلع الربيع تداعب حوافى عند مرورها. ترى.. أهى حفيدة لتلك النسيمات العتيقة التى مرت بالأقدمين فحركت عندهم الشجو والنجوى والأمل المرتقب؟ أم أنها وُلِدت فى زمنى؟ للتو؟ عند موضع أجهله؟ فى لحظة لن أعرفها؟

أهى قديمة أم محدثة؟

أهى أزلية، سارية عبر الكون؟ خلال الوقت؟

أم أنها تبدأ أو تنتهى كأنها لم تكن؟

تخلق قانونها معها؟ أم يسرى عليها ما يطوينى ويدفعنى إلى اقتفاء ما تبقى من رماد النجوم الذاوية؟

خـوف

يدفـعنى من داخلى فـأوشك على التـداعى، لتكراره ظننت أنه يناغـتنى عند النظر إلى الأفق الفـسـيح الذى أطل عليـه من نافـذة مكتبى، أثناء جلوسى بمفردى، لكنه فاجـأنى بين جـمع، فى ذروة صـحبـة، وغـمرة أنس، خـمنت تسلله إلىّ عبـر نفارى مع الواقع، رؤيتى الضد أينما وليت وجهى، لكن متى توافقت؟ متى تواءمت؟ ألم أكن دائما فى نفار مع ما يؤطرنى، ما يحدنى، كل ما فى الأمر أن الطموحات صارت من المستحيل إلى الأقل استحالة.

كل مـا أطرحـه لا يفـسر تلك اللحـيظة العـابرة، المبـاغـتـة، التى تدهسنى حيث لا أدرى، ولا يمكننى التوقع . .

مطـر

مطر . . مطر . . مطر

أستـيـقظ على تساقط القطرات، اصطدامـهـا بما يشبـه سـقـفًا معدنيًا، أرهف السـمع، المطر فى الخارج، الأغطية تدثرنى، فراش غـمـيق، أسـتوعب نعـمة الدفء والرقاد، مـا أجـمل الإصـغـاء إلى العـاصفة من مكمن آمن، إيقاع متغير، سرعة فتمهل فكثافة هطول يعقبها تمهل متباعد إلى أن يحين توقف، يشبه المطر توالى نبضات القلب، دال على استمرارية الحياة، على تجددها.

مطر . . مطر . . مطر

ليلة يشتد فيها نزوله، انقضى عليه زمن بعيد، أكاد أميز صوت المطر من زخات أخرى استمعت إليها أو مشيت تحتها أو راقبتها من خلف زجاج، لكننى لا أقدر على تحديد المكان الذى نعمت فيه بهذا الرقاد الوثير، ولا تحديد الليلة التى تردد عندى نزول القطر . .

مطر . . مطر . . مطر

حمامة

يحدثنى أبى عن لعبة، يعدنى بشرائها لى، حمامة تطير، يشير إلى السقف موضحًا الارتفاع الذى يمكن أن تصل إليه، اعتاد أن يشترى لكل منا فى العيدين لعبة، مرة ترامًا ومرة عربة مطافئ ومرة عربة ملاكى، لكن الحمامة التى لم أرها قط شغلتنى دائمًا، لم أعرف إن كان رآها فعلاً أم أنه تخيلها.

رأيتها فى زمن مغاير، لم تلفت انتباهى إلا بالقدر الذى استعدت به وصف أبى لها، جرى ذلك فى ميدان التروكاديرو فى باريس، بين متحفى البحرية والإنسان، يقف باعة أفارقة، أحدهم يحيط عنقه بخيط تتدلى منه حمامات، ألوانها بيضاء وبنى ورمادى، بيديه واحدة، يدير مفتاحاً صغيراً، وعند لحظة معينة يطلق الحمامة فى الفراغ، ترتفع إلى أعلى، بالضبط مقدار غرفة بمقاييس البناء القديم،

تتجه يمينا، ثم يساراً، تثبت قليلاً عند نقطة ما قبل أن تتجه متمهلة إلى الأرض، تماماً كما وصفها أبى بحركة يديه منذ حوالى خمسين عاماً . .

الذى كنته..

ذلك الذى كنته ولم أعد أكونه، عدة مرات كنته وتباعدنا، انفصلنا عن بعضنا، ماذا يربط كل منهم بذلك الذى أكونه الآن، الآن، ما الذى يربطنى بالذى سأكونه؟ أى وشائج خفية؟

ذلك الذى كنته، يقف فى فناء مدرسة محمد على الإعدادية، يميل إلى العزلة، لا يلعب مع أقرانه، يقرأ، يقرأ، زميله اسمه إسحق، يسكن قايتباى، أى مع الموتى، يبدو كمخلوق مغاير، قادم من واقع بعيد، غريب، مثير للخشية، يقف أمامه مداعباً، ثم معاكساً، يضع يده أمام صفحات الكتاب، «سكاراموش النبيل»، ينتزعه من لحظة نسى فيها ما حوله تماما.

«يا أخى تعال العب معنا . . طول اليوم تقرأ تقرأ . . . »

ينتفض غاضباً، يصيح:

«أيها الوغد، لقد أهنتنى . . إننى ألقى القفاز فى وجهك . . »

تبدو الدهشة على وجه إسحق، غير أن عرق الغضب يطق من جبينه، تتغير ملامح السخرية إلى الجدية عند إسحق، يزعق:

«أتحداك للمبارزة . . اختر شاهديك . . »

بعد لحظة دهشة يحدث إسحق صوتاً أقرب إلى الشخرة، قفاز، أى قفاز وماذا يعنى، وأى شهود؟ هل نحن فى فيلم؟، بينما يمتقع وجه ذلك الذى كنته .

ذلك يخرج من فندق صغير يطل على الرصيف القديم للعاصمة الدانمركية كوبنهاجن، مستودعات البضاعة والأخشاب ومعامل إصلاح السفن تحولت إلى فنادق وقاعات عرض، أغلى مناطق العاصمة شديدة الغلاء أصلاً، يجتاز الباب إلى الخارج، يمضى قاطعاً ما تبقى من الطريق حتى الناصية، عند بلوغها يبدو الميناء الحديث من الجهة الأخرى، سفينة ضخمة، مرتفعة، تدخل على مهل، قادمة من أوسلو، تمضى الليل كله فى بحر الشمال، تحمل مئات العربات، تصل العاصمتين الاسكندنافيتين، إذن . . هذا بحر الشمال، يرتبط عنده بلوحة الصرخة لمونش، وجه فزع يطلق صرخة فزع أو طلباً للنجدة فى خواء بارد وليل مقيم، بمجرد خطوة بعيداً عن الناصية يفاجأ بريح صرصر نافذة، نحيلة، مسنونة تقصد الوجه العارى مباشرة، أين قرأ عما يسمى عضة الصقيع، يبدو أنه لا بد من احتياطات أخرى، أى مشى ذلك الذى قصده فى الصباح الباكر، يرجع بخطى سريعة ليحتمى بدفء الفندق، ساخراً من نفسه، ما يؤلم تلك الريح القطبية .

ذلك الذى كنته، ينزل عند ترعة البئر طفلاً بصحبة والديه وخاله ومن لا يعرفهم، ذلك الذى كنته ينزل عند ترعة البئر مفرداً، أقرب إلى الكهولة، يمضى غربا على مهل، لم يعرفه أحد، لم يستوقفه

أحد من أهالى البلد، لم ير بعد كبار السن، يقصد بيت الخال، تلقاه امرأته مرتدية السواد، الابن الفردانى، يصمم على الذهاب مباشرة إلى الجبانة ليقرأ الفاتحة على روحه، يتوقف أمام الشاهد الذى يعلو اللحد، كأنه تجريد لجمل شارد أو على وشك أن يبرك. يبسط راحتى يديه أثناء قراءة الفاتحة، يفكر: يبدو الشاهد كأنه من الفن الحديث!

ذلك الذى كنته، عصر يوم خريفى، يركب الطائرة العسكرية من بابها الخلفى المؤدى إليه سلم قصير يستند إلى الأرض مباشرة، يتخذ مكانه عند نهاية المقعد المستطيل، فى مواجهة زميله المصور. مع الإقلاع يبدأ جنود المظلات فى إنشاد شعارات حماسية، يتطلع إلى المصباح الأصفر الصغير، عندما يضىء الأحمر يفتح الباب ويبدأ القفز، فوق صحراء دهشور تماماً، يبدو الفراغ بلا قاع، رمادياً، كل ما ينتمى إلى الخريف رمادى مشوب بحمرة الغروب الدانى، يتتابع قفز الرجال، عند اجتيازهم الباب الفاغر فاه يتحولون بسرعة إلى كتل تتلاشى بسرعة فى الفراغ، الفراغ، هو مثبت بحزام الأمان إلى جدار الطائرة، زميله المصور منهمك فى التقاط اللحظة التى ينفصل فيها الجندى عن الطائرة، هناك إلى أسفل يبدأ فتح المظلة، هذا الذى كنته يفكر: فى المرة القادمة سأكون معهم، هذا الذى كنته يركب سيارة فى صحراء، كل الصحارى تتشابه، لكن معرفته المسبقة أنها صحراء جوبى التى عبرها التتار يوماً قاصدين الشرق يضفى عليها معنى ما، ذاك الذى كنته يقف أمام نول تجلس إليه فتيات يرتدين أزياء ملونة، يعملن بسرعة فى رص العقد، فى قصها، يبتسم ابتسامة هادئة لا يدرك مرافقوه كنهها، يقول لنفسه: تلك كرمان إذن، الطراز الذى

أحببته، أتقنت تصميمه وتنفيذه، ها أنذا فى مضاربه الأصلية، حيث الزخارف ذاكرة القبيلة، ذلك الذى كنته يقف متصلبا فى مواجهة الشمس الصريحة، الواضحة، جلية الصعود، شفتاه منفرجتان، فى عينيه تأثر غامض لا يمكن نسبته إلى بهجة أو حزن، هذا الذى كنته، هؤلاء الذين كنتهم، ماذا يصل كلا منهم بالآخر، إذا قصدت أحدهم هل أجده فى مكان وزمان بينهما، وإذا لقيت أيًا منهم، ألقيت عليه السلام، حدثته وحدثنى، هل سيتعرف علىّ، على من يكونه الآن، وهل سأتعرف إليه؟ ربما يكون سعيى الآن. ذلك الذى أكونه مجرد ذكرى لأولئك، لأولئك الذين كنتهم.

تساؤل

من أين تنبع النسمات؟

من أين تبدأ الرياح؟

ما مصدر الموجة الأولى؟

من يحرك من؟ الرياح أم المياه؟

لكم أنا مدين لتلك النسمة التى حنت علىّ عند عبورى ميدان مولانا الحسين، لكم بعثت عندى المودة تجاه الكون، ما أعرفه منه وما أجهله، فمن أين تفد وإلى أين تمضى؟

كأنى أراه أمامى الآن، لا أدرى أى حافز دفع به إلى الظهور بعد غيابه عن وعيى سنوات متعاقبة، كنت متمدداً فوق السرير، أتلمس راحة تفصل بين مرحلتى عمل. تلك التى تنتهى ظهراً، والتى تبدأ بعد الغروب، عادة تعود إلى سنوات دراستى، ثم إلى بدء اشتغالى لكسب ما يعين على المعاش، أيا كانت نوعية العمل الذى قمت به، بدءاً من تصميم السجاد إلى الصحافة، لم يكن بالنسبة لى إلا وسيلة لتوفير أسباب الحياة، لذلك اعتبرت ساعات النهار جهداً مفقوداً، وقتاً ضائعاً، أمارس عملا لا أحبه ولا أكرهه، أؤديه بأمانة لأنه أوكل إلىّ، إتقان مصدره الإخلاص وليس الحب أو الاتّحاد بما أعمل، لم يتحقق هذا إلا للكتابة، لم يكن جهادى كله إلا من أجل تلك السويعات القليلة التى أخلو إلى نفسى فيها ليلاً، أقسمها بين القراءة والكتابة.

خلال السنوات الأخيرة أفتقد النوم نهاراً أو ليلاً، لكن لا بد من الرقاد، أصغى إلى نشرة الأخبار من الإذاعة البريطانية أو أستدعى أموراً ما، بمعنى آخر، ربما أستسلم لأفكار وصور غامضة المصدر.

فجأة رأيت أحمد العضاض.

ظهر أمامى. منبثقاً من المجهول، قادماً من حيث لا أدرى؟

حتى الآن لا أفهم قوانين الذاكرة، لا أعرف ماذا يحرك محتوياتها، لماذا تباغتنى هذه الصورة دون تلك. تطل علىّ

شخصيات غابت تماماً. أرى اللحظة مثبتة، لا أرى الحركة. هكذا بدا لى أحمد العضاض.

هيئته عندما كان يقبل علىّ، كأنه يخطو راقصاً، مباعداً ما بين ذراعيه وجسده. فاغراً فاه إلى أقصى حد، مبرزاً أسنانه، يلف ويدور حولنا مطلقاً بعض الصيحات التى تصيبنى بذعر. تلك صورته التى وفدت علىّ. منذ خمسين سنة تقريباً لم أفكر فيه. لم أتساءل عن مصيره، لم أستفسر من والدى الذى كان يحمينى منه. شخصيات عديدة عبرت، بعضها بقى منه لحظة أو لحظات، والبعض الآخر تلاشى تماماً. والبعض لم يتبق منه إلا حركة، انحناءة، طريقة سير، طريقة نطق.

لماذا ظهر فى وعيى أحمد العضاض؟

لم أغير رقدتى، لم أكن أستدعى سنوات الطفولة والصبا، بل إن الموضوع الذى شُغل به ذهنى أبعد ما يكون عنه، رغم ظهوره الخاطف، إلا أننى أغمضت عينى مستعيداً لحظاتى التى رأيته فيها، وأذهلنى نصوع ما أرى ودقة ما أستعيده عن أحمد العضاض.

يظهر فجأة وسط الطريق.

لا يجىء من منحنى، أو يخرج من باب مبنى، إنما يباغتنا بدون تمهيد. عندئذ يدركنى خوف، أتوارى خلف أبى، متشبثاً بقماش جلبابه، يضطر الوالد إلى التحرك حتى يمنع أحمد العضاض من الإمساك بيدى، يصيح محذراً إياه، وإن كان صوته كما وصلنى وقتئذ لم يحتو الغضب الذى يصاحب التحذير الجاد، يبدو وكأنه

يداعبه أو يرد عليه عابثاً بشكل ما، لا يأخذه مأخذ الجد، كأنه لا يدرك الهلع الذى يصيبنى عندما ألمحه، يتزايد كلما اقترب منى أو أوشك على لمسى، هل كان يهددنى أم يداعبنى؟ لا أدرى.

كان قصير القامة، جلبابه أصفر مخطط بالأسود، حتى لو ارتدى آخر من لون مختلف فى يوم مغاير، لا أراه الآن إلا بهذا الأصفر وطاقية بنية اللون من اللباد و«بلغة» متهرئة، يطل من فتحة الجلباب شعر صدره الكثيف، أظافره طويلة، وجهه مفلطح، يقارب عرضه، طوله، أنفه أفطس، عيناه واسعتان، أما مصدر خوفى الغامض فأسنانه. بالتحديد تلك الفلجة الفسيحة الأمامية فى أسنانه العليا، تضفى على فمه غلظة وضخامة، كأنه مُتهيئ للبلع، أبى نفسه هو الذى أطلق عليه «أحمد العضاض» لأنه يظل ساكتاً فترة طويلة، أو قاعداً بجوار الحسين، لا يتحرك يوماً بأكمله، لكنه فجأة يطيل النظر إلى شخص ما، ثم يجرى خلفه ممسكاً أولا بثيابه، الجلباب أو القميص، فاتحاً فمه على اتساعه، قاصداً موضعاً واحداً بالتحديد لا يتغير، الرسغ، ما يلى اليد مباشرة، إذا نجح وغرس أسنانه فى هذا الموضع يصعب تحريكه أو إقصاؤه مهما انهال عليه من صفع أو ركل، غير أنه مع تكرار ذلك، اكتشف رواد مقهى برهان الواقع إلى الشرق من مسجد الإمام الحسين أنه يفلت، يفك نفسه بمجرد لمس طرف إحدى أذنيه، هذا ما قاله أبى لأمى فى ليلة من الليالى التى يتناجيان فيها، يتبادلان الحديث عن الجيران والبلد وأحوال الوالد فى الشغل، وأخبار الموت والزواج والميلاد والطلاق، أحاديث تبث فى نفسى الرضا، والطمأنينة، تجعلنى أغفو مرتاحاً، راضياً، متطلعا إلى أمل.

اكتملت معرفتى بأحمد العضاض من حكايات أبى عنه، بل يمكن القول أننى عرفته قبل أن أراه، فى ذلك العمر المبكر لم أكن أصل إلى المنطقة التى يجوس فيها بمفردى. أقصى ما أصل إليه مدخل الحارة، إلى مسجد سيدى مرزوق، مسموح باللعب حتى هذا الموضع، يؤدى المدخل مباشرة إلى شارع قصر الشوق، الخروج إليه يعنى الضياع والتهديد بالفقد، إما للتوهان أو للخطف، ثمة من يستهدفون الأطفال، يحملونهم إلى الجبل، يعرضونهم للقسوة، للتعذيب، ثم يعلمونهم السرقة والنشل، سمعت من يقول أنهم يستخدمون الكى بالنار والتغطيس فى المياه، أهون الأمور الضرب بالعصا، لا يسمحون للطفل أن يخرج للنشل إلا بعد تمكنه من قطع ورقة سيجارة طافية إلى نصفين فوق سطح مياه تملأ صينية أو آنية نحاسية.

كنت أحذر تجاوز المدخل الوحيد للحارة، إذ إنها لا تؤدى إلى جهة أخرى، سد، أتطلع إلى العابرين لشارع قصر الشوق المؤدى إلى حبس الرحبة متسائلاً عما يوجد بعد دكان على المبيض، وعم شمس الذى ينام طوال النهار ويخرج ليلاً إلى دكانه الصغير، يبيع السجائر، بالعلبة والفرط، أى بالسيجارة، والبيرة بالكوب.

ربما ألمح شخصاً يثير عندى لسبب ما الخوف، سبب غامض، غير محدد، لذلك أنثنى راجعاً على الفور، وأحيانا أقطع المسافة إلى البيت جرياً، وأصعد السلم قفزاً، لا أهدأ إلا إذا دخلت الحجرة وجلست على مقربة من أمى غير مفصح عن مصدر خوفى خشية منعى من النزول إلى الحارة وحرمانى من اللعب.

لماذا يتحرك هذا الخوف؟ لماذا تثير عندى ملامح شخص معين فزعاً

ورهبة، مازلت أرتجف كلما تذكرت أم نبيل البيضاء واستدارة وجهها، مجرد طلتها من النافذة ترجفني . أما أحمد العضاض فلم يكن يفصلني عنه إلا جسد أبي الذى حال بينه وبيني، أخشى تلك اللحظة التى يطال عندها يدى ويغرس أسنانه فيها، لكن لم يحدث ذلك قط، حال أبى دائماً دون ذلك، ويبدو أن الأمر كان فى حقيقته دعابة، لكن كيف يقبل أبى ذلك وهو يرى خوفى منه؟

لا أدرى . .

لماذا أظن أن الأمر فيه هزل؟، ربما لأننى لمحت ضحكة على وجه أبى، المفروض أن يكون غاضباً والعضاض يحاول أن يطال يدى، بل إننى فى سنوات تالية دهشت عندما علمت أن أبى يقدم إليه شيئاً من زكاة رمضان، وفى العيد يعطيه نصيبه من الكحك والبسكويت الذى تتقن أمى عمله وتُعد له قبل حلول رمضان بمدة كافية . عندما قلت لأبى إنه يؤذى الناس ويعضهم فلماذا يشفق عليه؟، قال إنه مقطوع من شجرة، لا أهل له، لا أب ولا أم ولا أبناء، هذا حال الكثيرين الذين يهيمون على وجوههم ثم يأوون إلى الحسين، يحتمون به، يفترشون الرصيف حوله، يتلقون الصدقات من المريدين، المحبين .

عندما علمت ذلك أدركتنى شفقة على أحمد العضاض، كدت أبكى، لم أكن قادراً على تصور إنسان لا أسرة له، لا باب يغلق عليه فى نهاية سعيه . لكن خوفى منه لم يختف، خاصة إذا غرس أسنانه وانتابته الحالة التى لا تنتهى إلا بفرك حلمة أذنه . سمعت أبى يحكى عن شخص من قريتنا عضه كلب مسعور . لم يلحقوه بالحقن المداوية، عندئذ تغير صوته، وتحول إلى نباح، بدأ يحبو على أربع،

وإذا رأى الماء يهيج ويضرب فى كل اتجاه، اضطر أهله إلى ربطه فى جذع نخلة حتى عض نفسه وقُضى.

سألت عما إذا كان أحمد العضاض مصاباً بداء الكلب. هكذا وصفه أبى. لكنه نفى مؤكداً أنه ملازم جوار مولانا منذ أكثر من عشرين سنة ولم يحدث أن طال أحد المارة إلا مرات معدودات، يبدو أن رائحة معينة لا تتوافر لدى كل إنسان تثيره وتدفعه إلى العض.

عندما تقدمت فى العمر. وصرت أسعى فى الطريق بمفردى. كنت أراه إما نائماً، متمدداً، فوق الرصيف قرب الباب الأخضر، أو ماشياً على مهل، عين الملامح التى أذكرها، لكنه أقصر، أنحل، أما رأسه فأقل حجماً، غير أن فتحة الفم كما هى، تلتقى عيناه بنظراتى فلا أحيد ولا يقبل نحوى، لا يظهر أى علامة تنبئنى بأنه يتذكرنى. ما يحيرنى ذلك التساؤل: هل كان هجومه ناحيتى مداعبة؟، لماذا لم يشرح أبى لى ذلك؟ ألم ير فزعى وخوفى؟ يبدو لى الأمر غامضاً، محيراً.

أعمدة

تلاحقنى أعمدة التلغراف، لا يلحظها أحد فى المدن، لكن عند خروج القطار تظهر بمحاذاته، لا يمكن للبصر أن يدركها إلا بعد فواتها، تظهر للمحة، سرعان ما تختفى، إذا كان القطار منطلقاً بسرعته القصوى، تتمهل إذا تمهل وتسرع إذا انطلق مع أنها ثابتة.

عند سفرى طفلاً بصحبة أهلى كنت أتمنى لو أمكننى إحصاء تلك الأعمدة من نقطة قيامنا حتى وصولنا، أحياناً أحاول تعقب ما يخرج منها عن المألوف، ينتظم فى خط فرعى، ربما تصبح أقل حجماً، لكن هذا يعنى أنها مؤدية إلى مدينة، إلى قرية ما، هناك فى هذا الاتجاه المستدير التابع للأفق.

أتخيل ملامح آدمية لكل منها، فهذا عمود أنثى وآخر ذكورى المظهر، هذا كهل وذاك شاب، هذا فرح وذاك حزين، مبتسم، عابس، راض، ساخط، قانع، متطلع، أحاول التعرف على واحد فقط، تعيينٍ عمود لا غير، أتعرف عليه عند عودتى فى الاتجاه المعاكس، أو عند قيامى بالرحلة فى الاتجاه نفسه، لكن لم أقدر قط، استحال ذلك.

بقدر قربها، بقدر بعدها، بقدر ثباتها، بقدر انطوائها، بقدر صمتها وجمودها بقدر ما تسرى الذبذبات منبئة بالميلاد والموت، بالحزن، والفرح فى تلك الاسلاك الواصلة. فى جهينة كان وصول تلغراف يعنى كارثة. عندما يظهر عبد المقصود عامل البرق فى الرحبة يحبس الجميع أنفاسهم. حتى إذا نطق «تلغراف لبيت باشا» يرتفع الصراخ والعويل قبل تسلمه، حتى أن أحمد إسماعيل العجوز، الذى يغزل الصوف منذ استيقاظه وحتى نومه زعق زاجراً إياهن، فهذا العويل نذير شؤم بدون داع، لكن بعضهن واصلن متوسلات: استر يارب، استر يارب، لا يضطر الأبناء والأزواج فى الغربة إلى تشييع تلغراف إلا لأمر جلل، ويستخدمون اللفظ نفسه المعبر عن الجنازة، «تشييع».

اسمى تحدد عبر تلك الأعمدة، مكثت بدون اسم لمدة أسبوع تقريباً، أخبروا أبى فى مصر. بقدومى. وأجابهم طالباً تسميتى «جمال».

عندما يتوقف القطار، أغادر الرصيف، أتطلع إلى استمرارية الأعمدة فيما يلى المحطة، محاذية للقضبان، تمضى مسافرة إلى أبعد من النقطة التى بلغتها، يتوالى عليها الليل والنهار، الحر والقر، لذلك يقولون إن خشب الأعمدة وخشب الفلنكات يساوى ثقله ذهباً لأنه ضد القرضة، ضد البلى، متحمل لسائر الأنواء والظروف. يجىء من بعيد، من أقصى الشمال، باستمرار أتطلع إلى الأعمدة عند سفرى، أتساءل الآن عند اتجاهى إلى قبلى: أهى الأعمدة نفسها أم تبدّلت، من يمرق من الآخر، أنا أم هى فى وحدتها المكتملة؟!

تساؤلات

تشير إلى الصورة، تسأل أباها..

«دى مين؟»

«دى ستو يا حبيبتى..»

«ودا مين؟

«ده جدو..»

«يعنى أمك وأبوك..»

«نعم . .»

«هما راحوا عند ربنا . .»

«نعم . .»

«طيب انت أبويا وأمى كمان حتروحوا عند ربنا زى أمك وأبوك . .»

«أيوه يا حبيبتى . .»

«يعنى هتشوفهم تانى؟»

بحرى

يتوقف القطار بعد محطة اسمها دراو، يطول الوقت، يؤكد أحد زملائى فى فريق الكشافة أن سائق القطار نزل من الجرار وأنه يمص القصب. من النافذة أرى الركاب تحت، الأهالى بعضهم يبيع القصب ومنتجات الخوص، آخرون يتفرجون على العربات ويتحاورون، بعد أن أدركت طول الوقت الذى سيمر، زاد طمأنينتى وجود السائق تحت، نزلت، أرى الآن ثلاث درجات مرتفعة لسلم نحيل، لون العربة رمادى، مكتوب بخط نسخ جميل.

«سكة حديد مصر . .»

يقترب منى شاب ربما تجاوز الثلاثين، يرتدى عمامة يلفها شال من الصوف بنى اللون.

«انت منين؟»

أنطق مجيباً، متكئاً على مخارج حروفى، مضمراً ومشهراً اعتزازا بأننى أنتمى إلى قبلى.

«من جهينة..»

يتراجع برأسه إلى الخلف

«آه.. من بحرى..»

أتطلع إليه محتداً،

«جهينة، محافظة سوهاج..»

«بحرينا يعنى..»

أتطلع إليه، لأول مرة أكتشف نسبية الأشياء، ما أعتبره قبلى بالنسبة لغيرى. بحرى، جرى ذلك فى بداية ترحالى.

تساؤل

لماذا لا أتذكر اللحيظات الأولى التالية لوفادتى؟

لماذا مع أن الخروج من رحم الأم إلى رحم الحياة يمثل صدمة؟

هل تبقى الصور فى لاوعينا. فى عقلنا الباطن؟ أليس الإنسان أجهل الكائنات بذاته؟ بما يجرى عنده؟، أى نوازع، أى قوى خفية

تحركه؟ لماذا نتذكر ملامح عابرة ونعجز عن استعادة من اتصلوا بنا وعاشوا على مقربة وقاسمناهم الزاد؟، ألا أنظر إلى صورة قديمة، حال لونها تجمعنى مع أشخاص فى رحلة حميمة، أتعرف على بعض، وعبثاً أحاول استعادة بعض، يحيرنى جهل البدايات، كما تحيرنى مضامين النهاية، أى صور ستمثل عندى قبل إسدال بصرى إلى الأبد، أهى صورة من ذاك النثار؟، هل ستكون فكرة لن يتاح لى التعبير عنها أبداً؟، حقاً لكم أنا حسير، أتوق إلى معرفة نهاية لم تحن بعد رغم جهلى ببداية مررت بها فعلا ولا أدرى عنها أدنى شىء، كيف يستقيم الأمر كيف؟

حلم

أستيقظ قاصداً دورة المياه، أعى بيتى لكنه ليس المكان الذى أعرفه. ثمة مكان يتداخل مع المكان المألوف، مكان مجهول، ما بينهما انشطر، لا أعرف فى أيهما أخطو.

قباب الدير

ما يمكننى تحديده المنطقة التى يوجد فيها البناء. بالتأكيد ما بين أسيوط وطهطا. أكاد أوقن أنها مدينة أبى تيج.

ما لا أقدر على تحديده الظرف الذى أمضيت ليلة فيه، هل كنت

بمفردى؟ أم بصحبة أبى؟، هل أقول بصحبة أبى لأنه ذكر أمامى أكثر من مرة صلته بمطران أبى تيج؟

أحيانا تتحول أقوال سمعناها إلى صور ورؤى، فنظن أننا مررنا بها وشاهدناها عن معاينة، مع أننا لم نعرفها عن قرب، إنما من تجارب الآخرين، منطوقة أو مكتوبة، ليتنى أذكر الظرف والسبب كما أعى لون الطلاء واللحظة وتفاصيل البناء.

لون أصفر غامق، مشرب بشعيرة حمراء، ليس برتقالياً، يمكن القول إنه أصفر غامق، إنه طلاء الجدران، خاصة الطابق الثانى، تتجاوز الغرف، أمامها ممر خشبى محمول على أعمدة خضراء اللون، ما يشكل شرفة مربعة، تطل على الفناء، ما يمكننى رؤيته الآن الشرفة الخشبية، أعمدتها الحاملة، أبواب الحجرات فى الطابق الثانى، هذا يعنى أننى أتطلع من تحت، أرى أيضا قباباً طلاؤها أصفر، ثلاثا ويمكن أربعاً، إحداها فوقها صليب، قبة مستطيلة الاستدارة. من الفناء ينبت نخيل لكن سعفه لا يتجاوز المبنى، زرقة السماء بادية، المبنى مفتوح على الداخل، إلى الأعلى، الوقت أصيلى، الضوء واهن. إما لأنه شتوى، وإما لميل الشمس إلى الجانب الغربى، لكن ثمة يقينا يؤكد لى أن المبنى يضفى صفات على الضوء، يتلقاه فيحوله، ينفذ إليه فيبدله.

تبدو اللحظة عبر رؤيتى لها الآن، عند استعادتها ثابتة، تختزل ما قبلها وما بعدها، هذا شأن المعتاد كله، لكن تلك يؤطرها الالتباس، فلست على يقين إذا كنت مررت بها فعلاً أو مرت بى، ما أوقن منه خصوصية المكان، قبطيته، لماذا قبطيته؟، ربما لسموق الصليب فوق

القبة. ربما لطبيعة الألوان، غلبة اللون الأصفر الخاص، رأيته فيما بعد فى الدير المحرق، مضيت إليه منذ سنوات قليلة، نزلت مدينة القوصية، كنت مدعوا لإلقاء محاضرة فى كنيستها، كان الوقت عصيباً، والأقباط فى عسر بسبب جنوح الجماعات الإسلامية المتشددة، طلبت زيارة الدير المحرق، مضيت عبر القرى الصغيرة، والزراعات التى أحفظ ألوانها لانطباعها فى مخيلتى، فى ذاكرتى البصرية منذ نشأتى الجنوبية الأولى، البرسيم، الذرة العويجة، القمح، فى نهاية الحد يقوم الدير. تماما شأن المعابد المصرية القديمة، عند الحد الفاصل بين الزراعة والصحراء، بين الخضرة والصفرة، بين الحياة والموت، السور مرتفع، الباب مفتوح، لم يكن مضى على الهجوم الذى وقع عند المدخل وراح ضحيته عدد من الرهبان إلا شهور قليلة. أذهلتنى صراحة الضوء وانطلاقة الفراغ، كأنه الوضع الذى يمكن منه الإقلاع إلى صميم الكون. بمجرد اجتياز المدخل استحضرنى ذلك الموضع اللا يقينى فى أبوتيج، من خلال الأصفر الماثل فى ذاكرتى استعدت ما يحيطنى، كذلك الأخشاب، وتفاوت أعمار البنايات، فى حجرة الاستقبال أطل علىّ رؤساء الدير، المطارنة السابقون، أحدهم غامق السمرة، يبدو أنه حبشى الأصل، رحب بى المطران الحالى، بدت بعض أسئلته مباشرة، فيها شىء من حدة، منها ما أدهشنى:

«لماذا تهتم بمشاكل الأقباط؟»

عندما دعانى إلى الغداء كنا وصلنا إلى نقطة صرنا فيها متقاربين بدرجة أكثر «لأنها مشاكلى أيضا.. تخصنى كمسلم كما تخصك كقبطى..»

جلسنا متواجهين، كان الطعام مختلفا، جاءوا أمامه بطبق فيه بصارة، وباذنجان مقلى، وطماطم وخس، وضعوا أمامى أطباقاً تحوى أنواعاً مختلفة من لحوم البط والضأن والدجاج، وخضار مطهو بدهن دسم. اعتذرت عنه مبتسماً:

«ليس مجاملة لك، لكن لضرورة. . »

«لكن أكلى صيامى. . »

«هذا ما يناسبنى صحياً. . »

طوال الحديث حاولت تذكر أى حوار جرى فى ذلك المبنى المطل علىّ من زمن ولّى، لا تحضرنى ملامح، لا أستدعى أى جملة أو كلمة، كأننى اطلعت على صورة صامتة أو مثلت فى مكان يخلو تماما من البشر.

مضيت الى أقدم أجزاء الدير، الكنيسة، إلى أقدم ما تحويه، المذبح، لكل موضع ما يميزه، ما يؤطر بعض أجزائه، تماما كما تتحدد بعض الأزمنة، مثل الأعياد ومواعيد الذكرى، القداسة تسهم فى التعيين، فى التحديد. لذلك يسعى الإنسان إلى مكان معين مهما تكبد من مشاق، وينتظر لحظة محددة ليقوم بطقس متوارث أو ليحقق أمراً.

قال الأب المرافق: إن العائلة المقدسة انتهت فى رحلتها إلى مصر هنا. هذه آخر نقطة بلغتها السيدة مريم العذراء بصحبة ابنها عيسى عليه السلام الذى كان طفلاً صغيراً ومعهما يوسف النجار. انتهيا إلى هنا. ومن تلك النقطة بدأ بناء الدير.

استدعيت ما قرأته عن تلك الرحلة، عن تحفظ رجال الدين المصرى القديم فى مواجهة العائلة المقدسة، كأن حدسهم ينبئهم بما سيكون، بزوالهم المتوقع مع بدء ظهور الدين الجديد، القادم من الخارج، مع أن التمعن فى أصوله يمكنهم من التوصل إلى منابعه الحقيقية، من هنا، ربما لإدراكهم هذا قابلوا القادمين إلى مصر بحذر وأظهروا لهم الجفوة. خلال التجوال كنت آمل أن تتحفز ذاكرتى باستثارة تبعثها رؤية شيء ما يجلو ولو مساحة ضئيلة من المبنى الذى مثلت فيه يوما فى أبى تيج، أن أرى منه جزءاً إضافياً، مساحة لا تزال خفية، أتأكد من خلالها أننى ولجته، أننى أقمت به مقدارا من الوقت ما زلت أشك فيه. أكاد أوقن أننى أمضيت فيه ليلة، لكن ربما داخلنى اليقين من رواية الوالد وذكره التفاصيل مرات على مسمعى حتى تداخل ما يخصه بما يتصل بى.

عبرت الممرات، الأشجار العتيقة متأملا حركة الرهبان، ملابسهم السوداء، أغطية الرؤوس، الصلبان البارزة، المعلقة، المثبتة، يبدو أنه وقت المشى، المشى فى الأماكن المغلقة متشابه، رواح، مجىء، رواح، فى المعتقل كنت أحلم بالسير عبر خط مستقيم لا يحده جدار أو باب موصد من حديد يضطرنى إلى الارتداد، يتداخل الرهبان بملابسهم السوداء المتشابهة بالمعتقلين فى مزرعة طرة، الكل عندى يروح ويجىء، لا مضى فى خط مستقيم، لا ألوان مغايرة، ما نراه هو المألوف لنا لا غير.

فى مكتبة المخطوطات، أصغيت إلى الراهب الشاب عن محتوياتها، أقدم ما تضمه ينتمى إلى القرن السادس عشر، توقعت

مخطوطات أقدم لكننى لم أجد، سألته عن الرائحة الخاصة للمكان، قال إنه نوع من المطهرات يمنع الدويبات القارضة للورق، عندما تطلعت إليه مصغياً، فوجئت بحزن عينيه الشفيف، الرهيف، يتطلع صوبى مباشرة عبر اللحظة الآنية، لكنّ حضوره، انحناءه إلى الأمام قليلا، تحديقه المتصل، استدعى نظرة أخرى، تمت إلى وقت بعيد، منقض، لا يمكننى تحديد من تطلع إلىّ، لكنه ينظر من خلال نظرته. هل يمتّ إلى هذا المبنى الذى لا أرى منه إلا مساحة محدودة، كأنه قائم فى الفراغ، لا أعرف إلا أنه متصل بمطران أبى تيج، دار إقامة أو كنيسة؟ أم جزء من دير؟

يتداخل الغائب بالحاضر، يقوى المكان النائى، غير المحدد على الماثل، الملموس، المدرك بالحواس الفاعلة، يصير التنقل بينهما بالمخيلة، مجرد محاولة لإيجاد صلة، أو للتأكد من يقين مشكوك فيه، تتداخل النظرة بالأماكن القصية، القريبة، هل تنبعث من الشخص الماثل أمامى، من يمكننى تحديد وجوده بملابسه الكهنوتية السوداء، وأسينة عينيه، أم تفد علىّ من غائب ربما لم يعد له سعى فى هذا البراح الذى يحتوى الضوء والأصوات الصادرة والظلال المتوارية والأوضاع المفضوضة والأماكن التى بلغت حيز الوهم؟

ليلة حمراء

نافذة فوزى الكهربائى ليلة الجمعة، وبدءا من التاسعة ليلاً، غيرها فى أى ليلة أخرى، من خلال فرجات الشيش الخشبى تبدو أطراف

اللون الأحمر ، يأتى بورق ملون شفاف ، يغطى به المصباح الكهربائى الذى قام بتركيبه أبو غزالة المتخصص فى سرقة كهرباء الحكومة .

سراسيب الضوء تنبعث أعلى البناية . الغرفة فى الطابق الأخير ، من بابها إلى السطح ، أى داخل إلى الدرب لو رفع بصره لرأى ، لا يوجد مصباح إنارة ، الفراغ مضاء بما يتسرب عبر النوافذ والشرفات ، بيت الحاج حامد قبل المنحنى علقوا مصباحاً صغيراً تصل أصداء ضوئه لكنها غير كافية ، مع شحوب الضوء يبدو الأحمر جلياً ، واضحاً ، كما أنه هدف لعدد من الجيران أدركوا مغزاه ، يخرج بعضهم إلى شرفة شقته مثل سعيد الشيوعى أو الشيخ فارس موزع العطر على المصلين بمسجد الإمام الحسين ، أحياناً عندما ينضبط الحال ، ويواتى المزاج ويستمر الضوء حتى الفجر ، يلمحه ، عندئذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويقول بصوت يمكن سماعه :

«قلة أدب ، ألم يسمع بقوله : واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان . . »

أوسمة

ميدان الحسين . نهار مكتمل الضوء . سماء مؤكد خلوها حتى من ندف الغمام ، إذن . . هو الصيف ، ما يحيرنى رؤيتى الشاملة للميدان كأن المنظور بعينى طائر محلق ، مع أننى أثق من سعيى فوق الأرض ، قادماً من الأزهر ، متجها إلى الشارع المحاذى للمشهد ، أسلكه عادة عند عودتى إلى الدرب .

إذن . . هذا زمن ما قبل سنة واحد وسبعين .

عربة يد، أى يدفعها صاحبها أو يجرها خلفه إذا كانت فارغة، توضع فوقها البضائع الخفيفة من أمشاط وفلايات إلى علب كبريت وأحياناً بخور ولبان، مستكة، وربما مقويات جنسية مثل جوزة الطيب وأقماع ورقية تحوى دهانات، يمضى الرجل صامتاً، مطرقاً، حزيناً جداً، يائساً جداً، لا ينادى ولا يعلن عن بضاعته، لكن نظرة سريعة إلى المرصوص فوق السطح جعلتنى أنثنى. أمشى إلى جواره متمعناً.

«استنى يا عم . . »

اعتدت مخاطبة أى بائع بـ «يا عم»، حتى لو كان يماثلنى سناً، ربما تأثراً بسنوات طويلة فى الدرب يُنادى فيه على الباعة من الرجال والنساء، «عم يا بتاع الذرة . . »، «عم يا بتاع الدقيق . . » لو أننى ناديت على هذا النحيل، معروق الرقبة، هل كنت سأصيح «يا عم يا بتاع الأوسمة».

أوسمة من أنواع مختلفة، ميداليات، علامات مستديرة، منجمة، مستطيلات صغيرة، قلادة من قماش سميك ملون بالأخضر والأحمر والأبيض، تنتهى بوسام دائرى، داخله صليب عريض الأطراف محفور، غائر، ليس معقوفاً لكن ثمة شيئا فيه يجعله قريباً منه، آخر القماش المتصل به أقل حجماً، نجمة مثمنة، كل أربعة أضلاع تشكل صليبًا متقناً حوافه فضية. اللون الداخلى الغالب أخضر قاتم، تتعانق الحواف عند نقاط الاتصال فتشكل ما يشبه العقدة الصغيرة. صليب بالمواجهة، آخر مائل، دائرة يبرز منها ما يشبه هلب المركب، لكن مزيدا من التدقيق يجعلنى أتمكن من قراءة حرفين

متداخلين بإتقان. حرف L وآخر لم أدققه كما لم أستطع التحقق من اسم البلدة الذى بدا ممحواً غير أننى قرأت كلمة جمهورية باللاتينية. وسام أنيق، يُعلّق إلى الصدر بدبوس. مازال سليما، بدون صدأ، المعدن واثق، ثقيل، هل ثمة أثر للون أحمر؟ ربما..

أمسك بوسام آخر، أكبر حجما، نجمة خماسية مطلية بالمينا البيضاء، فوقها دائرة مذهبة، لم أدر.. أهو ذهب حقيقى أم قشرة أم طلاء؟، تحيط بدائرة زرقاء، زرقة غميقة، عليها كتابة بحروف عربية، لكن الكلمتين قريبتان، منطوقهما أعجمى، ربما تركى، فارسى، ربما أوردى، ربما لغة لم أسمع بها، النجمة ترقد فوق دائرة يحيط بها إطار محفور، مزخرف، كأنه تجريد لنوع غامض من الزهور، أقرب إلى اللوتس، الدائرة فوق أخرى أكبر، مقببة، حوافها مسننة، كأنها العرائس التى بالمساجد، لكنها منمنمة، حلقة صغيرة بارزة، تتصل بحلية بيضاوية داخلها طائر صغير أقرب إلى النسر، لكنه ليس نسراً وليس صقراً، يعلو الحلية حلقة دائرية يبرز منها شريط، حوافه زرقاء بلون الفيروز، يليها شريط أحمر فاقع الحمرة، أما القلب المستطيل فياقوتى عميق، وقور..

«خلصنى يا أستاذ..»

انتبهت إلى تعطيلى له، ربما يخشى عساكر البلدية، كان متجهماً، متطلعا إلى نقطة غير محددة، لم يتخل عن يدى العربة، طوال وقوفها يمسك بهما، أسئلة عديدة، هل يعرف اسم كل وسام؟ هل سيخبرنى كيف حصل على هذا كله؟ بكم الأسعار؟ ألقيت نظرة أخرى سريعة. بعضها عسكرى. ناشف المظهر، آخر أرق أكثر فنية

ونمنمة، بعضها له لمسة أنثوية، حرت، أين أرسو، يلتفت إلىّ متوقعاً، ينظر ولا يتطلع، كأنه ضرير، أشرت إلى شارة حمراء فى حجم الدبوس، توضع على ياقة البدلة :

«بكم . . »

قال باختصار :

«خذها . . »

كررت :

«بكم يا عم . . »

نطق أثناء دفعه العربة إلى الأمام :

«قلت لك خذها . . »

عمارة الصمت

يمكن رؤية مدرسة عبد الرحمن كتخدا من سطح بيتنا، تقع تقريباً بمحاذاته إلى الجنوب، حيث شارع قصر الشوق الذى يفتح على دربنا ثم يمضى ليلتف عليه من أعلى ناحية الشرق، لكنه لا يؤدى إليه. مبنى يدير ظهره لنا يتبعه حوش فسيح يظهر فيه عم رضوان السباك بين الحين والآخر ليمارس قدرته فى تحنين الحصان الذكر إلى الحمارة الأنثى. كانت له مهارة خاصة فى الجمع بينهما لإنجاب البغال، كان أصلع تماما. يمشى صامتاً بين الناس. لكنه يصبح مغايراً تماما عند أداء وظيفته تلك.

مبنى المدرسة من طابقين فقط لكنه يوازى ارتفاع البيت الذى نقيم فى آخر طابق منه، الرابع، لابد أنه أقدم، ربما يرجع إلى القرن التاسع عشر، إلى أواخره، أو إلى بدايات القرن العشرين، نوافذه مستطيلة، المصاريع الخارجية من الخشب، والداخلية زجاجية، ثمة فناء مسقوف، تطل عليه الممرات المكشوفة المؤدية إلى الحجرات، يبدو مثقلا بالظلال، لذلك يصعب علىّ عبر ذاكرتى أن أرى تفاصيله الآن، حتى وجوه الزملاء، أدقق عبر المدة فلا أرى إلا ملامح وجه أبيض مشرب بحمرة، ممتلئ، لا أعرف اسمه، لكنه يقترن بانطباع تردد عندى مراراً، أنه «طيب». يرتبط الفناء بالطعام. بدءاً من الثانية عشرة نشم رائحة التقلية، طبيخ، مرق أحمر غزير، سمن بلدى نرى علبه الفارغة، خبز ساخن أفضل قضم لقمة منه بدون غموس، بلدى، لدن، رحب المذاق، مازال بعد الخبز الشمسى يعد الأفضل، ننتظم صفاً، نقف فى انتظار الدور، عند أول المنضدة الأطباق، من الصاج المقاوم للكسر، منقوش بالزهور الزرقاء، المتداخلة بالأبيض، ملعقة ثقيلة الوزن، من النحاس، لم يكن الألمونيوم انتشر بعد، كانت الأوانى النحاسية جزءاً من أثاث أى بيت، ركناً فى شوار أى عروس، وعلى قدر النحاس وعدد الأوانى المصنوعة منه تكون القيمة، أمد الطبق، أحتفظ بتوازنه أثناء قيام الطباخ بنقل المرق من الوعاء إلى الطبق بالمغرفة، أتناول الرغيف ثم أمضى، إلى أين؟

ربما إلى منضدة نجلس إليها، ربما نعود إلى الفصل، ربما نلتهم الطعام وقوفاً، رضوان أفندى يشرف على الغداء، أذكر صوته الآمر، أن نأكل على مهل، أن نمضغ متمهلين فهذا أفضل للصحة، ألا يعلو

صوت التقطيع والطحن، إذا أكل أكثر من واحد من ماعون فليلزم كل ناحيته، ألا يحف من أمام الآخر، أن نبدأ بذكر اسم الله، وأن نختتمه بحمده.

لم يستمر تقديم الغداء إلا السنة الأولى من دخولى المدرسة، فى الثانية تبدل الطبيخ بوجبة جافة، جبن رومى معتق، وبيض مسلوق، حتى الآن. أفضل هذا التجاور. بين المذاقين. خاصة عند اضطرارى إلى تناول شطائر إذ يمتد يوم عملى طوال النهار، فى السنة الثالثة بطلت الوجبة الجافة. قدموا إلينا مرة أو اثنتين علبة من السمن الأصفر، وقالب جبن، ودقيقا. كانت علبة السمن مستديرة عليها كتابة بالإنجليزية، يدان تتصافحان، عرفت فيما بعد أنها كانتا ملونتين بألوان العلم الأمريكى، الأزرق والأحمر، لم أر تلك العلب إلا مرة واحدة، هل ارتبطت بمشروع أطلق عليه وقتئذ الصداقة؟ ربما، لست واثقاً. وما لا تمدنى ذاكرتى به لا أسعى إلى التيقن من حقيقته عبر أى مصدر آخر، إنما أستهدف التحقق مما بقى، من نثار ذلك المولىّ، المتبقى. أقصد الوقت المقدر، المتاح لى. بطل ذلك من المدارس الابتدائية. وبقى فى المدارس الفنية التى قدّر لى أن ألتحق بها بعد حصولى على الاعدادية ولهذا حديث آخر.

ظلال المبنى تدثرنى، لم يتبق عندى تفاصيل أى درس. أما ملامح المدرسين فاختلطت، تداخلت، عدا اثنين. الشيخ مصطفى أستاذ اللغة العربية لمهابته، ضخامة جسده، وزيه الأزهرى، عمامته الأنيقة، وخطوه البطىء، كنت إذ أراه فى الطريق أحيد، أختفى حتى يمر، لا أجرؤ على مواجهته، حتى وإن تقدمت إليه صاغراً، ساعياً

إلى تقبيل يده كما نصحنى أبى مراراً، أما الأستاذ رضوان فلم يتبق منه إلا غناؤه لأم كلثوم وصلعته اللامعة .

كان يسكن ناحية ميدان بيت القاضى ، يجىء دائما من ناحيته ، الميدان الآن قريب جداً بالنسبة لدرب الطبلاوى الذى أقمنا به ، أو مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، أول معاهد العلم التى مررت بها ، لم أره ولا أستعيده إلا مرتدياً حلة من الصوف ، سواء كان الوقت صيفاً أو شتاءً ، يبدو وجهه متسقاً مع صلعته التامة ، يميل تكوينه إلى الأمام كأنه على وشك البكاء فجأة ، حضوره حالة من الحنين الدائم إلى مجهول ، لم أره ضاحكاً قط ، يقفل الباب فجأة ، يأمر بإغلاق النوافذ ، خاصة الزجاج ، على مهل يبدأ فى الغناء

مصر التى فى خاطرى وفى فمى

أحبها من كل روحى ودمى

صوته صنو لأم كلثوم . أستعيده فكأنه ظل لغنائها . كان يقول إن هذه الأغنية تعلمنا من التاريخ أكثر من كتب التاريخ التى قررتها الوزارة ، لم يكن يغنى بصوته فقط ، إنما بجسده كله ، يتمايل يميناً ويساراً ، تعبر أصابع يديه عما يريد إيصاله إلينا . أشخص إليه صامتاً ، تتغلغل الأنغام عندى ، يترسب صوته الشجى داخلى . الغريب أن الجميع يستمعون رغم صغر أعمارهم وغرابة التصرف ، أن يقدم مدرس التاريخ على الغناء ، فى هذا الزمن كان للمدرس هيبته واحترامه .

الأستاذ رضوان إذ أراه فى الطريق العام أحاول الاختفاء حتى لا

يلمحنى رهبة وخوفاً، لكن منذ لحظة إغلاقه الباب والنوافذ إشارة منه إلى التواطؤ المضمر ينتابنا ذلك التضامن الحميم مع من نخشاه ونحذر غضبه، أيضا الاستمتاع بالخروج عن المألوف، عن المتبع، عن الجلوس ساعات والتطلع إلى اللوح الأسود «التختة، السبورة» إلى الطباشير الأبيض أو الملون.

فى يونيو سبعة وستين استعدت الأستاذ رضوان كثيراً، تساءلت عن مصيره ومرساه، لم أعد ألتقى به صدفة قادماً من بيت القاضى أو ماضياً إليه، عندما لاحت أنباء الهزيمة، وبدا الانكسار تغيرت الأغانى المبثوثة، بدأنا نصغى إلى ما يثير الشجن وليس إلى ما يؤجج الحماس، تراءى لى الأستاذ رضوان، كلما أصغيت إلى أغنية أم كلثوم أثقل كاهلى وظهر هو، مرة واقفاً فى الفراغ، أو متخذاً الوضع الذى يسبق الغناء، أو تبدو لى يداه تفيضان حيوية، يداه بمفردهما كأنهما غير متصلتين بشىء يمت إليهما بصلة، أحياناً أحاول تقمص ما يمر به عند الإصغاء للغناء فى تلك الظروف المؤلمة.

الأستاذ رضوان جزء من مكونات المبنى كما يبدو لى، وليس كما يقوم فى الواقع، المدرسة مغلقة منذ حوالى أربعين عاماً، نوافذها لم تتبدل، الباب بنى اللون، ضخم تشده سلسلة ذات قفل مغبر، تُرى.. مفتاحه أين. مع من؟ من أى يد إلى أخرى انتقل؟ أين مقرُّه؟. يوماً وقف أبى وراء هذا المصراع القائم إلى يمين المولى وجهه تجاه المبنى. حرص على أن يوقفنى على مسافة. كان يتحدث إلى إبراهيم أفندى، رجل يرتدى جاكتة وجلباباً. وطربوشا غامق الحمرة، فهمت أن أبى يريد تقديم شهادة أو طلب لإعفائه من

مصاريف الدخول. لا تتجاوز جنيهاً، لكن الجنيه له قيمته فى ذلك الوقت. حوار ليلى متصل بينه وبين أمى، ترفض تقديمه شهادة فقر، تقول إن اسمها شؤم، وأنه ليس فقيرا إلى درجة الإملاق. صحيح أن الظروف صعبة. لكن ليس إلى الحد الذى يبدأ فيه الولد دراسته بشهادة اسمها شهادة فقر. قالت إنها سترسل إلى شقيقها ليدبر لها المبلغ مقدماً من إيجار الأرض السنوى. بدا صوتها حازماً قاطعاً ولم أصخ إلى رد أبى، رغم أن المحاورة جرت فى غرفتنا ليلاً بدرب الطبلاوى، لكن استعادتها تتم عبر باب المدرسة. بعد تلك الوقفة مع إبراهيم أفندى، ملامحه واضحة، جلية عندى، ربما لاقترانها بوشم دائرى أخضر يتوسط جبهته، كان ريفى الهيئة والنطق. ربما كان سكرتيراً أو مسئولاً عن الشئون الإدارية.

داخل المبنى أدقق ملامح زملاء الفصل. لا أذكر إلا واحداً فقط. ربما لأننى أحوم حول اسمه. إدريس. باسم. اسم فيه حرف السين لاشك. بقدر حيرتى فى تدقيق اسمه. بقدر تداخل ملامحه. لكن الشابت وضعه. كان يجلس عاقداً يديه أمام صدره. متطلعاً إلى أعلى، ممتلئا قليلاً، غزير الشعر، بشرته أقرب إلى البياض، فى الفصل الذى لا أدرى موقعه الآن، وقف الأستاذ سعد الله، لكن له حديث يطول، المبنى رغم قيامه حتى الآن، لكنه يبدو منسيا، لم يهدم ليبنى آخر مكانه، تركوه مغلقاً. عمارات عديدة مثله فى القاهرة القديمة. أسميها عمارة الصمت، أو مبانى النسيان، يمر القوم بها كل لحظة فلا تلفت نظرهم رغم وجودها، ولا يتأملون ما طرأ عليها من تحولات، لا أمضى إلى المكان إلا وأتوقف، محاولا تنسم رائحة

طعام سرت يوماً، أو نغمة غناء، أو نظرة مادحة أو أخرى مؤنبة، أو دخلة مهيبة لمعلم نخشاه . .

حارة الوطاويط

جد قصيرة، على هيئة زاوية قائمة، تصل ما بين شارع حبس الرحبة والمشهد الحسينى، حارة واصلة بين طريقين، عبورها يعنى فى طفولتى وصباى الانتقال من عالم آمن، محدود، أوله معروف ونهايته، وآخر مفتوح على كافة الاحتمالات، يحدّها منزلان عتيقان ومدرسة محمد على التى تغير اسمها إلى مدرسة الحسين الاعدادية ومكثت بها ثلاث سنوات. حارة قصيرة، لكن حكاياتها عديدة. يقول المعمرون إنها كانت مغطاة بحصير كثيف لذلك سكنتها الوطاويط وبها عُرفت، تتعلق نهاراً بالبوص القديم الممتد وتحوم ليلاً قاصدة أشجار النبق التى زال معظمها مع اختفاء البيوت القديمة الفسيحة. لم يتبق منها إلا بيت السحيمى بالدرب الأصفر. هكذا اصبح اسمها منسوبا إلى تلك الحيوانات الطائرة التى يبعث مرآها رعدة، لكنها عندى مرتبطة برائحة السمك والورق القديم، قبل الدخول إليها بناء قديم من ثلاثة طوابق، تحتها دكانان، الأول واجهته زرقاء اللون، يبيع السمك المقلى، يتصدر المكان رجل ذو لحية كثة، بيضاء، مهيبة، إنه عم على السماك. إلى الخلف منه المقلاة الكبيرة، أمامه الأسماك الجاهزة، بلطى ومكرونة وجمبرى، يطلب الوالد منى الذهاب إليه لأشترى بخمسة قروش سمكاً مخصوصاً، ومخصوص

يعنى أن يتم قليه أمام الزبون، أقف مغمورا برائحة الزيت والثوم والسمك صيد اليوم. قال عم على السماك لأحد زبائنه مرة أثناء انتظارى:

«ليس مهماً نوع السمك، المهم أن يكون طازجاً. . صيد اليوم. . »

لكم لفظت هذه العبارة بالضبط، ربما بالإيقاع نفسه فيما بعد، أمام أصدقاء، على مسمع من متخصصين فى السمك، رائحة القلى تميز تلك المسافة من الطريق، أتنسمها أثناء انتظارى، بعد التمام يفرد الورق الأبيض، يرص السمك فوق البقدونس الأخضر الوثير، يصفه بعناية، يضع قمعاً صغيراً به ملح أصفر مختلط بكمون وفلفل مطحون، يمد يده إلى الجمبرى. يملأ كفه، يضعه فوق الأسماك الممددة ـ فوق البيعة ـ أحمل الورق الساخن مدراً لعابى، عائداً بخطى سريعة إلى البيت، لعله المذاق الأشهى للسمك، رغم أننى أكلته فى مطاعم وموانئ وعلى جزر نائية، أكلته بالصلصات المختلفة، بالفواكه، بأعشاب عبرت طريق الحرير، لكننى لم أفارق قط مذاق هذا السمك المقلى فى دكان «عم على» على مدخل حارة الوطاويط.

الحاج دياب، صعيدى من جرجا، من ناحيتنا، بدين، قصير، تخصص فى الورق، بقايا مطابع الصحف، الكراسات القديمة، المجلدات، الكتب، يشتريها بالكيلو ويبيعها بالكيلو، الورق لازم للف الطعام، والحلويات، والأشياء الصغيرة، والقماش، وكل ما تعرضه المحلات، أمكث أوقاتاً به بعد أن عرفت طريقى إلى الكتب، أتردد عليه بحثاً عن قديمها، عن الدوريات،

اقتنيت منها نفائس شتى وطُرفاً، لو أفضت الحديث عنها لما فرغت، لكننى أذكر منها قوائم العشاء الخاصة بالملك فاروق.

أوراق زرقاء سميكة، آزوريه ـ هكذا عرفت اسم ذلك الورق فيما بعد عندما عملت فى المؤسسة ـ كيف وصلت تلك القوائم إلى متجر الحاج دياب الجرجاوى. ليتنى أعرف تفاصيل تلك الرحلة، أرى لحظات عثورى عليها، الشعار الملكى، حروف بارزة زرقاء، غامقة، يعود تاريخ بعضها إلى عام أربعة وأربعين، وخمسة وأربعين، عام مجيئى إلى الحياة الدنيا، قوائم تطبع يومياً. توضع أمام المدعوين ليعلم جلالته ترتيب الأطباق، ما تتضمنه، ما يصاحبها من مقطوعات موسيقية، كل طبق توازيه قطعة موسيقية خاصة، يعزفها فريق الموسيقى الملكية برئاسة الملازم أول مصطفى عوف. مصطفى عوف. من أنت يا مصطفى عوف الذى نطقت اسمك ذات عصر فى حارة الوطاويط بصوت مرتفع، من أنت؟

خروب

يقف الرجل نحيل الجسد خلف منضدة مرتفعة داخل الدكان صغير الحيز، يرتدى الطاقية البيضاء، نظارة طبية سميكة الزجاج، رغم طوله إلا أنه يبدو دائما كأنه يتطلع من تحت، مطبق الشفتين، لا ينطق إلا نادراً، لا تتردد على مسمعه إلا ثلاث جمل.

«واحد خروب..»

«واحد تمر هندى . . »

«واحد خشاف . . »

الأوانى من معدن، نحاس مطلى، أو أتقن تبييضه. «أسطال» مفردها «سطل» مغطاة. يضيق كل منها عند الخصر. ينحسر الغطاء عند الفوهة. كل سطل على مسافة من الآخر، هذا للخروب. وذاك للتمر هندى، أما الخشاف فيقدم فى أطباق صغيرة من معدن. كل يحتوى على تين وزبيب وبلح مبلول وثمرة مشمش وأحياناً قراصيا، الشراب له رائحة ماء الورد ومذاق العسل المصفى. ما يعنينى الخروب، ليتنى أفهم سره. عبقه وملمسه ورائحته التى تتقدمنى إلى روح وريحان وجنة نعيم. عند اقترابى من الدكان فى سائر أطوارى أصير قابلاً لكل وفادة تمس حواسى وتؤطر روحى، أتطلع إلى السائل الكهرمانى عند صبه، ولحظة تناولى السطل الصغير لا أتعجل الحسو بل أتمهل لتأجيل المتعة. وهذا حالى مع الإناث فيما تلى ذلك، مع بدء التذوق أرحل بدون سفر، وأطير بدون إقلاع، تتفتح لى سبل شتى عبر مذاق الخروب، أود ألا ينفد محتوى الكوب. وإذ يفرغ أتطلع إليه متحسرا، بوسعى شرب آخر، جربت ذلك ولم أرض، أدركت أن التطلع من شروط المتعة، وعدم الارتواء متمم للرضى. منحنى مذاق الخروب ما لم أدركه عبر قطع المسافات وتقليب الصفحات وإمعان الفكر. هذا الشراب بالتحديد من ذلك الموضع، جربت الخروب فى أماكن أخرى، فى مقاه ارتدتها، فى الإسكندرية عند بائع نصحونى به، فى الشام، لكننى لم أتعرف على ما عرفته من يدى ذلك الرجل الصامت دائماً، المبدى كل همة تجاه ما يعده، ما يقدمه،

حتى بعد أن فتح الدكان عقب سنوات طال إغلاقه خلالها، ظهر من عرفت أنه الابن، أقبلت مدفوعاً بالحنين المؤصل. لكنني لم أتم الكوب حتى لا أفقد مذاق الزمن القديم.

شهية

أجلس إلى السفرة ما بين أبى وأمى. صالة فسيحة. بيت قريب من القلعة، لعله للشيخ محمد حسنين العالم بالأزهر، صلاح ابنه فى مواجهتى، تعبر أمه الصالة، ترفع صينية الفتة ترصعها هبر اللحم، تضعها أمامنا، جوع يحفزنى، أمد يدى، غير أن لكزة قوية تحت المنضدة، تتطلع أمى أمامها كأنها لم تفعل شيئاً، أدرك أننى أتيت أمراً جللاً، أحزن ولا أخاف، لا أحب إغضابها، عندما بدأوا يمدون الأيدى لم أقدم، ظللت مطرقاً وعكارة تُمرر ريقى فتحوشنى عن الطعام وتسد نفسى، ينتبه صلاح:

«انت ما بتاكلش ليه..؟»

أطرق بنظرى إلى الأرض، وعندما مدت أمى الملعقة تمهلت فى الاستجابة..

تساؤل

أي قانون خفى يحكم الذاكرة؟، يرتبها، ينظم مضمونها، يخفى ما يخفى، ويُظهر ما يظهر، يدفع بهذه الملامح إلى بؤرة الوعى ويخفى اسم صاحبها، أو يسمح للاسم بالظهور ويطمس الملامح؟ الإفصاح عما احتوته اللحظة الشاردة وإفناء حقب حميمة ظننت أنها لن تبيد أبداً، أى ترتيب؟ أين؟ ومن يرتب؟

لحظات

أخشى استعادتها. عندما يقع التداعى وتواتينى إحداها أجزع، أدفع إلى صدارة وعيي صوراً أخرى ومواقف مغايرة أستدعيها قسراً حتى أزيل ما يوازيها. كثيرة تلك اللحظات التى لا أرغب فى تذكرها. لكن يتركز أمرى الآن فى ثلاث. لا يتصل كل منها بما تعرضت له من إيذاء بدنى أو نفسى أو مواجهة الهلاك أو سماع الأخبار المؤلمة إنما بوقت صعب مررت به. لحظة تتعلق بى، وأخريان تتصلان بابنى زمن طفولته.

شارع الأزهر، بدايته من ناحية العتبة، الخمسينيات، ربما منتصفها، أو أواخرها، ترام رقم ١٩، يبدأ من أمام الأزهر وينتهى عند ميدان العتبة، بالتحديد بين سوق الخضار وسوق الكانتو، الأول جهة شارع محمد على جنوباً، والثانى ناحية شارع الموسكى، كلاهما موازٍ، الترام من مركبتين، مع بلوغهما نقطة النهاية، ينزل السائق

ممسكا المقبض النحاسى لينتقل إلى الجهة الأخرى، بينما ينزل الكمسارى ليبدل وضع السنجة المتصلة بالسلك الحامل للطاقة الكهربائية والمعلق فى فراغ الطريق. الخط يعتبر وصلة ما بين الأزهر والخطوط الرئيسية، هذا يعنى إمكانية استخدام التذكرة نفسها فى الترامويات الذاهبة إلى الجيزة، أو شبرا أو العباسية والعكس بالنسبة للقادمين من تلك الخطوط، عند عودة الترام من العتبة ينتقل عبر قضيبين يميلان بزاوية إلى الخط المؤدى إلى الأزهر. عادة أمشى عند نزولى إلى العتبة بمفردى. فى الأغلب الأعم للمرور على المكتبات التى تبيع الكتب القديمة والمتراصة على سور الأزبكية. لا أدرى ماذا دفعنى للعودة بالترام هذا العصر. أن أتعلق بالناحية اليسرى غير المسموح بالركوب منها، عكس الناحية المفتوحة على المحطات التى يتم منها الصعود والنزول، فلان يركب ناحية الشمال أو يتشعبط على الشمال معناه التهرب من دفع ثمن التذكرة، وقتئذ تسعة مليمات. أحيانا لا يوجد مليم فكة، يقدم الكمسارى بدلا منه مشط كبريت، التعلق بالشمال يقتضى مهارة فى القفز أثناء سير الترام عند ظهور المحصل. أو عند بلوغ نقطة ما، لا بد أننى سعيت إلى تقليد بعض من رأيتهم، خاصة زملائى. غير أننى لم أتقن الصعود أو النزول أثناء تحرك الترام. أو خلال تحرك أى مركبة. مهارات عديدة لم أتقنها أثناء صباى. مثل لعب الكرة وقيادة الدراجة والسباحة، الغريب أن الرياضة الوحيدة التى أحببتها لم أخضها قط، الملاكمة، ظلت فى مجال التمنى، وحتى الآن لا ينتزعنى من استغراقى للفرجة على التلفزيون إلا أمران، مباراة ملاكمة أو فيلم لليلى مراد. ذلك العصر، أرى مركبتى الترام، إحداهما تبدأ الحركة، تنتقل عبر

القضيبين القصيرين الواصلين، لا أرى ما قبل وما بعد، لكننى أبدو جلياً لى، أمسك مقبض الباب بيد واحدة، أحاول الانفصال عنه، جسدى مائل، لو تأخرت ستدركنى العربة الخلفية، تمر فوقى، إما فوق جسدى، أو ركبتى، فى لحظة تتناقض خطواتى العكسية مع تزايد سرعة الترام، هل ضربنى أحدهم؟ هل تمكنت من المناورة؟ هل اتخذت وضعاً مكننى من الإفلات، لا أدرى حتى الآن ماذا جرى، لكننى أغمض عينى كلما واتتنى تلك اللحظة.

فى عام ثمانية وسبعين، بلغت مع زوجتى وابنى مدينة استانبول، جئناها من فارنا البلغارية، ليلة أمضيناها فى البحر ومضيق الدردنيل، خضنا فى المدينة التى كان مقرراً أن نقضى فيها نهاراً كاملاً، فى التاسعة مساء نبحر عائدين، ساحة السلطان أحمد، أتأمل المسجد، أحاول استيعاب اللون الرمادى الغالب على المدينة، أنوى سؤال المرافق عن معرض يمكننى منه شراء الموسيقى التركية، تتطلع امرأتى إلى مدخل المسجد، فجأة، فجأة، يهوى قلبى، أنتبه إلى غياب ابننا، ليس بيننا، لحيظة ثاقبة أخشاها حتى الآن، فقدته خلالها، غاب عن بصرى، لم تدم إلا مقدار نصف دقيقة، ربما أقل، لكنها كافية لخلخلتى، كان يقف بين أقدام سائحين أوروبيين، يحملق إلى شىء ما يمسكه بيده، هنا تبدأ متواليات، ماذا لو؟ ، ماذا لو أنه سرح بعيدا عنا وخرج من المسجد؟ . ماذا لو أمسك أحد الغجر الرحل بيده؟ ماذا لو مضى من هنا ونحن من هناك، كيف سيهتدى وكيف سنهتدى إليه، هو ابن العامين؟ ، وقتنا محدود بسويعات فى مدينة ضخمة لا نعرف فيها أى إنسان، نجهل لغة أهلها، ماذا لو؟

مال محدود لدينا لا يساعدنا على البقاء إلا مدة ليلة ونهار، كيف نعود إلى فارنا بدونه، إلى مصر؟ وهل سنعود أصلاً، نعبر الجسر الخشبى الواصل بين رصيف الميناء والسفينة وهو بعيد فى مكان ما، ماذا لو؟ عندئذ أغمض عقلى حتى لا أمعن فى تخيل الما بعد.

فى الإسكندرية نمشى على الرصيف المحاذى للبحر، جئنا بصحبة صديقى المصور، لدينا عمل سننجزه، ابنى فى السابعة، مرحلة متقدمة من عمره، سعيد برحلتنا، رافقنا من قبل إلى سيناء، عندما يبدأ صديقى تغيير الفيلم أو ضبط آلة التصوير مستعينا بيده الوحيدة السليمة وبقدر الإمكان يده الصناعية، يحيد بنظره، قال لى همساً إنه لا يطيل النظر إليه ولا يسأل حتى لا يحرجه، قلت إنه اعتاد وضعه، لكن ما يقوله جيد ويعبر عن حساسية، فوق الرصيف نمشى ثلاثة، أمسك بيده، يعترضنا عامود إنارة، أخلى أصابعى من أصابعه لكن بعد فوات الأوان، كان يتطلع إلى شىء ما خلفه.

خبطة قوية، ملت عليه، عاد صاحبى محملقا إليه، قال مبتسماً.

«تعيش وتاخد غيرها..»

أتبع ذلك بنظرة إلىّ بما يعنى أنها كانت أقوى، أجز أسنانى، يقول الصغير: «مافيش حاجة يا بابا» يؤكد: «أنا كويس»، كان يضغط النطق بألمه حتى لا يزعجنى، غير أنه بعد خطوتين توقف منحنياً مطلقاً آهة، لا أستعيدها إلا ويفرينى الجزع، أبذل الجهد لإقصائها عنّى، كأن ما جرى يومئذ وقع للتو..

لطم

سيارة بيضاء صغيرة تمضى أمامنا . ترتج فجأة ، تتجه يمينا ثم شمالاً . رأس رجل . امرأة تقود . يتواجهان بالنظر . يحتدان ، تتجه العربة إلى جانب الرصيف ، يفتح الباب ، يخرج الرجل ، يرتدى قميصا أصفر وحول معصمه سوار ذهبى ، ينحنى قليلاً ، يبدأ لطم وجهه كالنساء لطماً شديداً متوالياً . تتطلع الشابة الحسناء إليه بهدوء . يد على المقود ، ويد على المقعد . .

تساؤل

كم عدد الأبواب التى اجتزتها دخولاً وخروجا منذ مولدى وحتى الآن ، لو قُدر لى أن أتذكرها وما يرتبط بكل منها فسأذكر أدق ما عرفته . .

حلم

مسافر ، تقلع بى الطائرة ولا أعرف وجهتها ، ثمة إدراك خفى أننى متجه إلى الشرق ، إلى أين بالضبط ؟ لا أدرى ، لا أعرف وجوه الركاب ، يعلن قائد الطائرة اننا سنهبط فى طرابلس الغرب ثم نتابع رحلتنا ، لم يقل إلى أين ؟ ، لا بد من مغادرة الطائرة خلال فترة

التوقف، المطار لم أعرف مثله من قبل، بناية مرتفعة، سميكة الجدران، الألوان كلها غامقة، متفرعة من بنى قديم مشوب بحمرة وصفرة، أطل من فتحة فى جدار، أكتشف أننا فوق سطح، جدران مصمتة، تؤدى إلى ما يشبه الوادى غير المستوى، بناية تشبه ما يرسمه بيتر بروجل الابن فى لوحاته، مبان لا شبيه لها فى الواقع، غير واضح الغرض منها، لا ينبئ خارجها عن أقسامها. غرفة الانتظار خالية تماما من الفتحات، مسدودة، صالات متداخلة، مزدحمة، أمسك بكتب ملفوفة فى ورق، أسندها إلى جوار الباب الذى لا بد أن أنحنى كى أعبره، بشكل ما أدرك من حركة الناس أن الخروج إلى الطائرة عبر تلك الوجهة، تتزايد حركة الركاب، لا أدرى مصدر التعليمات التى أتلقاها لكننى أعى أن الأوان قد حل.

أين الكتب؟

أخرج إلى المكان الذى وضعت فيه اللفافة. جنود جيش ما، أمتعتهم متناثرة، بعضهم يتمدد نائماً، يبدو عليهم التعب، النداء الأخير يتردد. أدرك أننى فقدت الممر المؤدى إلى الطائرة، أسرع من حركتى حتى تصبح هرولة، أهرول لكننى لا أتقدم. لا أتحرك، أتقبل فقدان الكتب، هلعى مصدره فوات الطائرة. أحاول الخطو لكننى أجرى مكانى بينما تقترب أنحاء المبنى منى..

هذا التسجيل بالتحديد يعنى بالنسبة إلىّ ما هو أكثر من إعجابى باللحن والمعانى وبديع الصوت، ليلة ما من عام خمسة وأربعين وقفت أم كلثوم فوق مسرح حديقة الأزبكية لتناجى ليالى القمر.

لحن رقراق، سلسال، لا صعود حادا منه أو نزول، المؤكد أن اليوم خميس، فهذا موعدها الشهرى مع جمهورها عبر الأثير منذ أن بدأت ذلك فى الثلاثينيات. أمران لا أكف عن التحديق فيهما. أولا موقع ذلك الخميس بالنسبة إلىّ. قبل وفادتى إلى الدنيا أم بعد؟، ذلك أننى بدأت تنسم ذاك الأثير فجر الأربعاء الموافق للتاسع من مايو.

شدوها سابق على مجيئى. أم لاحق له؟ هل اعتلت المسرح ممسكة بمنديلها الشهير قبل التاسع من مايو أم بعده؟ عندما سألت صاحبا لى أدرك المرحلة شاباً، بالطبع لم أطرح عليه استفسارى هكذا، إنما طلبت منه التذكر، هل أقامت أم كلثوم حفلاتها زمن الحرب الثانية أم توقفت عنها. لو أجابنى قائلاً بتوقفها لتحدد الأمر وانجلى، يكون ذلك الصوت منبعثاً من المرحلة اللاحقة، ذلك أننى وُلدت بعد انتهاء الحرب بسويعات، لكنه لم يقطب جبهته ولم يحدقَ إلى المجهول مستمعناً النظر، قال على الفور إن حفلاتها لم تنقطع زمن الحرب، لم أطلعه على دافعى للسؤال، أما حيرتى فبقيت كما هى. بالطبع لم أصرح بما أرغب تدقيقه ومحاولة الوقوف عليه، إنه ذلك الصوت، ليس أم كلثوم، لكنه لأحد المستمعين، يمكننى تحديد مكانه فى الصفوف الأولى، إن لم يكن الصف الأول والذى كان معظمه عجوزاً لأشخاص محددين ذاع عنهم عشقهم للست وهيامهم

بصوتها وجميل غنائها. إنه صاحب تلك الصيحة، تلك العبارة، لا.. ليس مُصْدِرها، إنما الجملة ذاتها.

«كده برضه كده...»

تنبعث فجأة عندى، أستعيد الإيقاع، الحالة المعبرة عنها، اللحظة المنطلقة فيها، الليلة، الشهر، السنة، تصبح دالة على وقت ذوى، وأمور أخرى لا أقدر على تحديدها، بعضها غزير، غامض المحتوى، مبهم علىّ لكنه يفسح الطرق لأمور أقدر على استيعابها والإبحار منها وإليها.

ما بين فترتين، مرحلتين من الغناء المؤطر بموسيقى رقراقة. لحيظة كفت خلالها الآلات عدا الهمهمة الصادرة عن جمع تجاور يوماً ما، فجأة«كده برضه كده..»

منها عتاب لوفرة المتعة، شكوى لغزارة الجمال، وداد سعياً إلى القربى أيضاً، إشهار لإعجاب زاد عن الحد، تعبير عن مضامين خفية، وأشواق لا تخص إلا صاحبها، لا يمكن إدراك تفاصيلها، لكن استيعابها فى شمولها.

«كده برضه كده..»

مُنغمة، مؤطرة، مسددة وسارحة، ربما لم يتبق من الناطق بها عداها، لا أعرف عنه أى شىء، ومن خلالها أعرف عنه كل شىء، صيحة لم أسمع مثلها، فيها ما فيها..

دوسة

صباح باكر

المحلات المواجهة للمشهد الحسينى لم تفتح بعد، محل السبح، عصير الخروب، الحاج زكريا السمسار، دكان العصى، دكان أدوات الحلاقة وسن الأمواس، مسمط لحمة الرأس والفشة والطحال، معرض الموبيليا، كافة المحلات مغلقة عدا محمود اللبان، لا يغلق ليلاً أو نهاراً.

أجىء من حارة الوطاويط، مجتازاً مدرسة محمد على الإعدادية، تغيّر اسمها فى الستينيات إلى الحسين بعد انتباههم المتأخر إلى اسم مؤسس الأسرة العلوية، عمارة الخوانكى الحديثة التى جرؤ صاحبها وارتفع متجاوزا المسجد والضريح الشريف مما جعل تأجير الشقق العلوية يتم بصعوبة وبدون خلو، تغير الوضع فيما بعد وصار البعض يضربون المثل على الاستحالة بالسكنى فى الخوانكى.

من تلك النقطة التى يتفرع عندها شارع مؤد إلى فندق الكلوب المصرى، وآخر غرباً يطل على القسم الأول منه مقهى المجاذيب، يمكننى رؤية ميدان الحسين، وجزء من قباب مسجد محمد بك أبى الذهب. . اعتدت الطريق خالياً فى تلك الساعة من الصبح، عدا اللبان ومارة قلائل وبعض الراقدين فوق الرصيف المحاذى لضريح مولانا يستجيرون به لغربة طالت أو لانعدام مأوى.

فى هذا الصباح فوجئت بما لم أره من قبل ولا من بعد.

رجال يتمددون فوق الأرض، رأس الثانى محاذ لقدمى الأول، رأس الثالث مجاور لقدمى الرابع، يرتدون ملابس بيضاء شاهقة، قصيرة تبدو سيقانهم تحت الركبة. يمسك كل منهم سيفاً حاد النصل مجرداً، حافته ملاصقة للصدر، يدا كل منهم تمسكان بالطرفين لتثبيته، يحملقون إلى أعلى، لا ينظر أحدهم إلى من يجاوره، تتمنطق خصورهم بحزام عريض.

من الميدان يظهر شيخ يمتطى جواداً أسود اللون، رشيق الخطو، يتقدم وكأنه لا يتحرك من مكانه، يتيه يميناً ويساراً، يمسك بمقوده، يرتدى البياض، عمامته أكبر تتدلى منها عذبة، كأنه يؤدى رقصة بالجواد، لا ينتقل من رجل إلى آخر إلا إذا لامست الحوافر الحد المصقول، ينغرس فى صدر حامله المتمدد.

أتوقف تماماً. أحاول معرفة ما يجرى، لم أدر كم مرّ من الوقت حتى وصل الشيخ إلى الأخير، عندئذ استدار برشاقة ليبدأ مرة أخرى، هو والجواد كُلٌّ واحد. أعضاؤهما متصلة، فى رجعته ينهض كل من حظى بالدوسة واثباً فى الهواء، بعضهم يدور حول نفسه كأنه يؤدى رقصة ما شاهراً سيفه وسرعان ما يختفى، اقتفيت أثر الشيخ ببصرى، حتى وصوله إلى الميدان فكأنه أقلع وراء حُجب، عندما أفضيت بما رأيت لأبى بعد يومين، قال دهشاً:

«إنها الدوسة. نسمع عنها ولم نرها، بطلت من قديم..»

غجر

على باب المطعم المتصل بمسرح صغير، عتيق، مشهور بتقديم الفلامنكو يقف اثنان، كنت فى صميم حالة المشاهدة، الرقصات الصادرة عن صميم الوجود الصادر من نقطة لا يمكن تحديدها إلى أخرى يستحيل تعيينها، تتردد داخلى دقات الراقصين فوق خشبة المسرح الصغير.

أحدهما ممتلئ، طويل، ضخم الرأس، أكرت الشعر، على وجنته اليمنى آثار جراح قديمة، يرتدى معطفاً بنى اللون، تبرز منه كنزة صوفية مرتفعة الياقة، يحيط معصمه بسوار فضى غليظ، حلقاته متصلة.

الآخر نحيل، أقصر، غزير الشعر، دائم التطلع إلى صاحبه.

لأسباب يصعب تحديدها أخشى الغجر، أحذرهم، مع أننى متعاطف إنسانياً معهم بعد أن قرأت عن ترحالهم وتغربهم واضطهادهم، ربما يرجع ذلك إلى طفولتى فى الصعيد، عندما كان الغجر يصلون إلى الجسر خارج البلدة، تبدأ إقامتهم بالخلاء شرق الجسر، يعرفون عندنا بالحلب، ولأن إقامتهم عابرة، لا تعرف لهم وجهة أو محل إقامة، وجودهم مؤقت، فهم مثيرون للقلق والحذر، خاصة مع ما عُرِف عنهم.

مع ظهورهم يشتد الحرص على الأطفال الصغار، وعلى الرجال أيضاً، أما الأطفال فخوفاً من الخطف، خاصة إذا كانوا رُضعاً أو أبناء سنة أو سنتين، تحتاج الغجرية إلى طفل تستدر به الشفقة عندما تتسول

فى الأسواق، أو طرقها الأبواب عارضة خدماتها. مثيرة الطمأنينة بمظهرها الأمومى.

خطف الرجال يتم لأويقات قصيرة، محدودة، تخشى الزوجات على أزواجهن، رغم مايُقال عن عدم سماحهن بالتمكين، يكتفين بالمداعبات فقط، إلا فيما ندر، لكن خطورتهن أنهن يتقن فنوناً من المداعبات والملاطفات تذهل الرجال وتُحدث الفجوة بينهم وبين زوجاتهم بعد إطلاعهم على قبس من أمور وفنون تثير المكنون.

رغم الحذر والخوف من هؤلاء العابرين، غير المقيمين، فلم توصد الأبواب دونهم، تفتح لنسائهن اللواتى يُتقن ضرب الرمل، قراءة الطالع، يفهمن ما يوشوش به الودع، لديهن الوصفات الدقيقة لتقريب الشارد، وإقصاء ما يثير النكد..

تطلعت إليهما عندما توقف صاحبى الذى دعانى. المقيم فى مدريد منذ حوالى عشرين عاماً، لم أدر من أوقف من؟ من بادر إلى الحديث؟، أشار الضخم. مرتدى المعطف إلى آلة التصوير التى أمسك بها، قال صاحبى إنه يريد التقاط صورة معنا، أزحت الغطاء، التقطت له صورة مع صاحبه، انضمَّ صاحبى إليهما، برق الضوء مرة أخرى، طلب النحيل انضمامى إليهما، تناول صاحبى الآلة. اتخذ البدين وضعه إلى يسارى والنحيل إلى يمينى، تراجع إلى الخلف قليلا، بدا حريصاً على الظهور فى وضع متميز، لافت، استأنف الحديث مع صاحبى. لا أعرف اللغة الإسبانية، أخبرنى صاحبى أنه يتحدث عن مهارة الراقصات، وأنهن جبسى - غجر - مثله من الريف، صافحنى متأهباً للانصراف مع صاحبه، عندما أدركت أنه لم

يهتم بذكر عنوانه لأرسل إليه الصور، سألت:

«لماذا الحرص على صورة لن تصل إليه؟»

تطلع البدين إلى صاحبه بعد إصغائه إلى ترجمة استفسارى، قال النحيل، المتطلع صوب ما يصعب تحديده:

«نحن فى اللامكان، ونريد أن نوجد فى صورة، لقطة للحظة ماضية، ليس مهما أن تصلنا، ليس مهما أن ترسلها إلينا، المهم أن نوجد فى صورة، فى مكان ما..»

أحمر وأسود

مخطوط فى بيت جدى لأمى، تخرجه امرأة خالى من الصندوق الخشبى الكبير الذى توضع فوقه حشية ويستخدم كمقعد أحيانا، ملىء بالكتب، بعضها بحروف المطبعة والآخر بخط اليد. هذا بخط اليد.

صفوف متساوية تماماً، بداياتها ونهاياتها لا تحيد، العناوين تتوسط الصفحات، مكتوبة بالأحمر القانى، السطور بالأسود الفاحم عدا بدايات الفقرات، تلك هيئاتها العامة، لكن يغيب عنى تماماً مضمونها، اسم واحد أذكره لعله المؤلف، مخطوط برسم مختلف:

«القاضى عياض..»

أتطلع منبهراً بحذق الترنيم، الحروف، النقط، صفرة الورق السميك بالنسبة إلى أوراق الصحف والمجلات والروايات التى بدأت أطالعها، تقترب امرأة خالى باسمة، فى ذروة فتوتها وقتئذ، تقول لى إننى سأضعف بصرى بطول النظر، يكفى هذا، تنتزع المخطوط، تتجه إلى الفرن، أقراص العجين انتفخت بعد امتصاصها لأشعة الشمس. تلقى بالأوراق اثنين، اثنين، أتطلع إلى النار التى تتأجج، هناك فى العمق تفنى الحروف، سوداء وحمراء، كذلك الفراغات الصفراء.

قتيل

«ياخرابى!»

مكثفة، مركزة، مبتوتة، لا قبلها ولا بعدها، شطرت الصمت الصباحى فى ناحيتنا، صار لها ما قبل وما بعد، يخيم نذير، رغم الصرخة المدغمة إلا أن مضمونها سرى إلى سائر من تسلمها بالسماع. تتقدم أمى وامرأة خالى صوب البوابة، خرج خالى مبكراً، قبل طلوع الشمس قاصداً سوق نزة الحاجر، تتطلعان من الباب الموارب، يمكنهما الرؤية بدون أن يلمحهما غريب مار، أو قريب مقيم. أتسلل مجتازاً ما بينهما، أطل محدقاً بفضول، ضيف الله مدلى فوق الحمار، بدون عمامة، حاسر الرأس، يداه باتجاه الأرض،

قدماه الناحية الأخرى، عيناه مغمضتان، ملامحه متداخلة، بقعة دم حمراء عند الظهر، الحمار ساكن تماماً، مطأطأ الرأس والأذنين، جاء بمفرده من الملقا، الخلاء المزروع خارج البلدة حيث أمضى ضيف الله ليلته الأخيرة، هناك طخّوه، تمكنوا منه.

لأول مرة أواجه الموت القسرى، المباغت، المفاجئ، القتل. على امتداد سنوات وعقود تروح اللحظة وتجيء، لم تدعنى أمى أحدق طويلاً، أمسكت يدى لتدخلنى إلى البيت، لكننى استعدت ما جرى معها مراراً فيما بعد.

لم تصرخا، هى وامرأة خالى، انسحبتا إلى فناء البيت بعد أن ظهر شقيقه ليحمل الجثمان إلى داخل الدار بينما أمه ترقب صامتة، قامعة حزنها الثاقب، ذرف الدمع ولطم الوجنتين مؤجل إلى حين مقدر. عندما يلغى الدم الدم. ممكن بعد أسبوع، بعد شهور، بعد سنين، أيا كانت المدة، لا بد أن تحين اللحظة، عندئذ تهدأ روحه فى مثواها، ويمكن للأم والأقارب إبداء الجزع المؤجل، وتقبل العزاء فى الغالى، المقتول غدراً.

تلك اللحظة من صباح صيف جنوبى حار، شمسها حامية والضوء نافذ، ذلك الصمت الذى أعقب صرخة الأم الثكلى والخرس المفاجئ، فى المواجهة مصير تحدد وعمر أقفل، آخر يسعى فى موضع ما، قريب أو بعيد، ربما لم يولد بعد، مازال غيباً لم يتجسد، لكن التصويب نحوه بدأ منذ تلك اللحظة، مجهول ما وضع الجثة فوق الحمار، حمار فضل الله فى وقفته بدا حزيناً، عيناه عكرتان، فى الطرف ما يقارب الدمع. بمجرد تحميل الجثة فوقه بدأ خطوه المتمهل

مجتازاً الملقا والجسر والطريق الترابى الصاعد إلى البيوت التى تتجاور طبقا لسكنى الأقارب، تتخللها رحبات فسيحة، لا يحتاج إلى دليل أو وكزة لحثه. يعرف طريقه كما يدرك مغزى الثقل الذى يحمله، بعد أن شالوه برك على أربع، مد رقبته إلى الأمام ولم يقترب منه أحد.

عربة

احتكاك العجلات الخشبية المكسوة برقائق ألمونيوم يحدث ضجة، كركبة، الدرب مرصوف بحجارة مصقولة، ما بينها فواصل، الصوت يعنى أنها السادسة، عودته تعنى الثانية عشرة، ربما تزداد دقيقة أو تنقص أخرى، لكنه الحد، خروج مختار النوبى وعودته أضبط من الساعات المعلقة إلى الجدران أو تلك المحيطة بالمعاصم.

عجلات كبيرة، لذلك العربة مرتفعة، يشدها بغل قوى يلقى عناية فائقة من مختار، يدعك جلده بالصابون ويمسده بالماء مرتين أو ثلاثا أسبوعياً، يشيل ما يتخلف عنه من فضلات فى كيس مخصوص حتى لا يشكو أحد من رائحته، أما صوته فلا يسمع قط.

العربة مرتفعة، لا يشبهها إلا عربات نقل الرمل. غير أن عربة مختار مغلقة تماما، مبطنة بالزنك لحفظ الحرارة وحتى لا يذوب الثلج صيفاً. الألواح التى توضع لتبريد الذبائح، فى الصباح الباكر يتسلم اللحوم من المذبح الرسمى، بعد توزيعها يعود منتصف النهار، لا يخرج إلا صباح اليوم التالى.

أسمر، غامق، جلبابه أبيض، عمامته شاهى، ممتلئ، يصعد بخفة إلى المقعد المستطيل. يبدو متربعاً، راسخاً، متيناً مع أن ساقيه مدلاتان، لم أره يتحدث إلى أحد قط، لم أسمع صوته، لم يطل من نافذة غرفته بالطابق الثالث من بيت الفص، عائلة الفص عريقة متخصصة فى لحوم الضأن، يحاول كثيرون نسبة أنفسهم إليها، مثل عائلة الدهان، الكبابجية المشهورين، أكثر من كبابجى يتحايل ليضيف اسم الدهان، كذلك الفص، لكن مختار النوبى لا صلة له بهم، إنه يعمل لحساب جزارين فى سوق الليمون والحسينية، يقومون بتوريد اللحوم إلى عدة مستشفيات.

عيناه فسيحتان، باردتان، تبرقان من حيث اللاجهة فتعبرنى رعدة غامضة ما تزال، رغم مضى أكثر من خمسين سنة على آخر مرة أصغيت أو رأيت فيها العربة!

رقص

تلك الأيدى المرتفعة فى الفراغ، متجاوزة الرؤوس، متوالية، متدفقة، نازحة إلى حيث لا يمكن الذهاب بالبصر إلا لمدى. أكاد أصغى إلى النائحات، ما جعل اللوعة تتمكن من ملامحهن، حركة الأيدى نافضة للحزن إلى الفراغ اللامدرك، فيها أيضا إشارات الوداع لراموزا الذى تمضى مومياؤه إلى الأبدية، كفانى مرة واحدة رؤيتها

حتى أستعيدها باستمرار، كأنها ماثلة أمامى، فى مجال بصرى، أينما وليت أراها، كلما داهمنى حزن غتيت، جثوم، مجهول الأسباب، خاصة فى أويقات الانتقال، من النهار إلى الليل، من حر إلى صيف، عند مفارقة مكان إلى آخر، أرغب فى البوح الدمعى، عندئذ يمثلن أمامى فأود لو رفعتُ يديّ مثلهن ملوحاً، نائحاً على أيامى، طويلة الأوقات التى أمضيتها أمام ذلك الجدار الجنوبى من مثوى راموزا، وزير اخناتون، فى مراقد النبلاء، طيبة، البر الغربى، القرنة، لكننى أقول دائماً إننى لو لم أر تلك الجدارية إلا مرة لأتقنت ألوانها وتفاصيلها، ومع الزمن صارت ملامحهن المرسومة متداخلة مع أولئك الذين عرفتهم فى أيامى التى أمر بها، إلى أن طالعتهن ذات صباح.

أجلس فى العربة المتجهة إلى حيث أعمل، عند شارع ستة وعشرين يوليو - فؤاد سابقاً - تبدو مخارج أو مداخل بعض حارات بولاق، من إحداها خرجن، فى البداية رأيت حركتهن الموحدة، المتناغمة، المتموجة، متصلة بينهن رغم انفصالهن، تصدر عنهن فى توقيت واحد، لا تتوحد الحركة فقط، إنما تتلاشى الفروق بين أجسادهن، لون الملابس حدادى، أسود، جلابيب. ولأن لكل حركة منبعثاً ومركزاً فقد اتّجه بصرى مباشرة إلى الفارهة التى تتوسطهن، أطولهن قامة، ترتدى جلباباً قاتماً، طرحة، وجهها ملطخ بالنيلة الزرقاء، أعرف النيلة كمادة صباغة، زرقتها تميل إلى السواد، أعرفها عند غضب النساء يصحن «نيلة فى وشك..». النيلة تغطى الوجنتين والجبهة، أما حركات الجسد فراقصة، تموجات البدن

تستدعى الرقص، لكنه مغاير لما رأيته، رقص يحاول الإفلات، إخراج شىء ما، غير مرئى، تبذل الجهد لنفضه باتجاه الفراغ، تميل أحيانا إلى اليمين أو اليسار فيبادرن إلى مساندتها، عندئذ تنطلق إلى أعلى باذلة الجهد لتجاوز حضورها المادى، تجسد الحركة لوعة الفقد، حيث تتداخل حركات الجسد، لا القيام ينفع، ولا الجلوس يريح، ولا التمدد يهدئ، لا الانحناء ولا التطلع، أما الأيدى فتتجه صوب الفراغ مستغيثة، مستجيرة، فى محاولة يائسة للواذ بحد ما.

استعدت ما قاله صاحب لى عن فقد عائل، وما يعنيه من ضياع أو انهيار. ما يستثيره الرحيل المؤكد. وفى مواجهتى تتداخل أيدى النساء فى مقبرة راموزا، بهؤلاء اللوائى رأيتهن يسعين فى مقتبل نهار قادم، ميل المكلومة يميناً ويساراً، كثيراً ما تبدو فى مواجهتى، حيث لا أتوقع.

خطوط

نقط كثيرة، متصلة، متجاورة، تصل ما بين نقطتين، إنه أبسط تعريف للخط. الخطوط التى أعنيها تصل بين مكانين، أستعيدها فتقترن بمعانٍ أخرى لم تخطر لى قط زمن اتصالى بها.

أقدمها عندى خط لا رقم، لا اسم له، عربة خضراء يجرها بغلان، سائقها يرتدى حلة صفراء وغطاء رأس ينحدر إلى جانبى

الوجه، لا اسم للخط ولكن ثمة اسما للشركة سوارس. فيما بعد عرفت أنه يونانى، هكذا، سوارس أصله يونانى، أنشأ شبكة من المواصلات تصل بين القاهرة القديمة، عربات تجرها البغال. ركبت بصحبة أبى وأمى من ميدان الحسين إلى السيدة فاطمة النبوية بالدرب الأحمر، سوارس اسم دال على هذا النوع من المواصلات، إنه اسم اليونانى صاحب الشركة، لكنه يميل إلى العربات خضراء اللون، إلى البغال، إلى وقفة السائق، إلى جلوس الركاب متواجهين، متجاورين من خلال مقعدين مستطيلين، تماما مثل «ثورن كروفت» صاحب شركة حافلات، إنجليزى، المنطلق الرئيسى ميدان العتبة، أمام متجر أحمد حلاوة للمنسوجات والملابس، لونان أخضر وأبيض، أركب من الميدان إلى الدقى حيث مقر عمل الوالد وزارة الزراعة، يدخلنا المتحف الزراعى، يتركنا نتجوّل فى سراياه وحدائقه، يعود إلينا بعد توقيعه الانصراف الذى يعنى نهاية يوم عمل، ثورن كروفت يبدو أنه أول من أسس شبكة مواصلات، لأن الاسم يسرى إلى كافة الشركات التى تلت مثل الطرابلسى ودرويش وأبو رجيلة ومؤسسة النقل العام. كل منها صار ثورن كروفت. الأول يمنح اسمه لما يشبه نشاطه. هذا ما ألحظه.

من بيت القاضى يبدأ الخط رقم عشرين. شركة الطرابلسى. نهايته كوبرى القبة. لكنه يمر بميدان باب الحديد. لذلك يعنى عندى المرحلة الأولى للسفر إلى جهينة بصحبة الأهل.

رقم سبعة عشر، يصل ما بين السيدة عائشة والعباسية. يمر بالأزهر، حافلات لونها أحمر وأبيض. يدل على مرحلة العباسية

الثانوية الفنية. لم أركبه قط إلى السيدة عائشة جنوباً. دائماً إلى الشمال. يعنى زمن الفورة وتوقع هلة سعاد والوصول إلى الفراغ النابع من صحراء العباسية غير العامرة وقتئذ والاقتراب من المعازل، مستشفى الحميات القريبة من المدرسة، ومستشفى الأمراض العقلية المحاطة بالأشجار والتى جعلت للمكان دلالة على المرض النفسى، فيشار إلى من يعانيه أو من يلوح عنده خلل على أنه «عباسية» أو «خانكة» والثانى مكان أبعد مقر لمستشفى أكبر وأشد. تتقدم الحافلة رقم سبعة عشر فى طريق الدرّاسة المترب وقتئذ مزدحمة، كثيرون يتشعبطون بالبابين، لهذا تميل حتى يُخيّل لمن يراها أنها ستنقلب لكنها تمضى.

ستة وستون، يبدأ من الدرّاسة وينتهى عند بولاق الدكرور. بالنسبة لى يعنى أول عمل التحقت به. بداية الستينيات، شوارع الدقى، طريق الفانيليا الصاعد إلى صميم الحواس، الأشجار الجميلة.

عدا ذلك تتداخل أرقام الحافلات، لا يتبقى عندى إلا هيئاتها، ألوانها، ملامح لا يمكن تحديدها لسائقين، لمحصلين، لفتيات تطلعت إليهن أو تماس جسدى بأجسادهن، الترامويات عندى أكثر تحديداً.

تسعة عشر. اكتشاف الأماكن بمفردى، مواجهة الخطر عندما كدت أسقط تحت عجلاته، أول حافظة تنشل منى، الشيخ صالح الجعفرى يجلس مهيباً، ملء العيون، يقول شيئا عن تغطية الرجال وتعرية النساء.

اثنان وعشرون. يبدأ من المذبح. ينتهى فى العباسية. عربات من

الطراز القديم، بلا جدران. الدكك بالعرض. فقط قسم الحريم. والدرجة الأولى. أشبه بمقصورتين أمام وخلف، يمر بشارع الخليج ـ بورسعيد فيما بعد ـ منه تبدأ صلتى به، الطريق إلى المدرسة فى العباسية. سهير الطالبة فى مدرسة السرايات، الخمرية الدسمة ذات البث القديم، أول من اقتربت وحدثتها عارضاً عليها صداقتى بلهجة أبطال الروايات الكلاسيكية. لم يستغرق الحوار إلا دقيقة وربما أقل. أصغت إليّ ثم قالت: «آسفة ليس عندى وقت. . » ليال عدة أنطق الجملة بتنغيمات مختلفة محاولاً الاقتراب من اللهجة التَى قيلت بها تماماً. أتطلع إلى السقف وأقول لنفسي: أى نبل؟ أى نقاء؟ . ثم أقول: كان ممكناً أن تنهرنى لكنها لم تفعل. أستعيد نظراتها. أقوم منحنياً ناطقاً: آنستى النبيلة اقبلى احترامى وتضحيتى.

واحد وعشرون. من العتبة إلى شبرا. أنزل فى محطة لا أتذكر اسمها الآن، أتجه إلى شارع هادئ، يقيم فيه عبد المنعم زميلى. نستذكر دروسنا، زوجة شقيقه تطبخ أصنافاً مما نسمع عنها. خرشوفاً محشواً، بفتيكاً، مكرونة محشوة. يدعونى إلى الغداء لكننى أعتذر، أخجل من تناول الطعام عند الآخرين. عبد المنعم هو الوحيد من الدفعة الذى استمرت صلتى به. أراه كل سنة أو سنتين مرة. ابنه الآن ضابط شرطة.

ثلاثة وثلاثون. ترام يؤدى إلى إمبابة. بداية الستينيات تحول إلى تروللى باس مع الخط رقم خمسة عشر المؤدى إلى الجيزة. قيل إنها الوسيلة الأنسب والأرخص، صديقة البيئة إذ لا تسبب المركبات أى تلوث، ثلاثة وثلاثون يؤدى إلى منطقة المساكن الشعبية التى انتقل

إليها أحمد عمر ساكن الطابق الأرضى بالدرب، يميل إلى بدانة، يرتدى جلباباً بلدياً، طربوشاً أحمر، امرأته اسمها وجيدة تشبه ميمى شكيب، ما يعنينى ابنة شقيقه؛ ثريا، ذات الكبرياء، وقفتها، طلّتها، نظراتها المتجهة دائماً إلى فوق، أحببت الاقتراب منها وتنسم شذاها الكثيف، لم أتعلق بها. ربما لأنها تخلو من كل ما يمت إلى الحمراء.

خطوط حافلات. خطوط ترام، أرى اللافتات الدالة لبعضها جلية واضحة رغم اندثارها الآن، أخرى لا تبدو منها إلا الهيئة العامة، وقد يتداخل خط لحافلة بترام، لكن كلها تبدأ وتنتهى عندى.

أبو حجر

كل أسبوع مرة.

يعود أبى من صلاة الفجر صباح الجمعة حاملاً طبق الفول من «أبو حجر»، ودورق الحليب من محمود اللبان أو المالكى واسم كل منهما باق إلى يوم تدوينى هذا. أما الأول فغاب أثره واندثر خبره.

يقف أبو حجر أمام عربة فول شرق مسجد مولانا الحسين، تحمل القدرة وزجاجات الزيت، واللوازم الضرورية، من ملح وكمون وشطة وفلفل وخبز. بعضه طرى ومنه الملدن، والمقمع، أما الزيت فحار وزيتون وفرنساوى، لكل منها مذاق خاص، حاد وهادئ، وذو طعم خاص مغاير.

ما تناولته من أنواع عديد، أتذوق الجيد منها إذا وُجدت، لكن ما يشكل ذاكرتى المذاقية قليل. من ذلك الباذنجان المقلى المغموس فى الثوم والبطاطس والعسل بطحينة والخبز الشمسى والملوخية بتقلية والشاى بالنعناع. هذا ما أحن إليه وأسعى إلى تناوله رغم اختلاف الظروف واختفاء المصدر. فى مقدمة ما أتمنى استعادة طعمه فول أبو حجر.

يبدأ البيع بعد صلاة الفجر وليس قبلها. بعد الصلاة التى يؤديها فى مسجد مولانا يتجه إلى مكانه الذى لزمه أكثر من خمسين عاماً حتى صار ينسب إليه ويستدل به. «إلى يمين أبو حجر» «إلى شمال أبو حجر»، يجد قدرة الفول فوق العربة، فى تجويفها المعتاد، عمال المستوقد الملاصق لحمام السلطان يأتون بها فى موعد معلوم، لم يتأخروا عنه، ولم يتجاوزوه، وإكراما للرجل القديم فى الكار، ابن الأصول، فإنهم يضعون القدرة فى مكانها ويتركونها مغلقة، عند وصوله يمسك بقطعة قماش، يمسحها برهافة، بعناية. يكشف الغطاء عن الأوعية التى تحتوى على الثوم المهروس، والبقدونس والكسبرة، والكمون والفلفل المطحون والملح بنوعيه، الخشن والناعم، يرج زجاجات الزيت الثلاث. وينطق باسم الله بصوت مسموع، عندئذ يشير إلى أول الزبائن، إنه يراعى الترتيب، لذلك يكرر كثيراً «بالدور.. بالدور..»، يستمر حتى مطلع الشمس. مع الشروق يتوقف. فى الوقت نفسه تنفد آخر حبات الفول، إذا قصده أحد يقول «شطبنا»، غير أن مثل هذا الزبون لا يعرف «أبو حجر». لابد أن يكون غريباً. فكل الذين عرفوه وحرصوا على تذوق الفول من يده

يقصدونه خلال توقيته المعلوم، حكمدار الجيزة الذى يحرص على أداء الفجر يومياً فى مسجد مولانا يقصده أحيانا، أو يرسل سائقه، إذا جاء بنفسه يقف منتظماً مع المنتظرين، مثله آخرون لهم مراكز وأصحاب حيثيات، غير أن ما ينطبق على غيرهم إنما يسرى عليهم، لا يستثنى أحداً، أثناء وقوفه يتفرغ تماماً لتجهيز الفول، يتناول الطبق من الزبون، عندئذ يسكب قطرة زيت. ويميل بالطبق ذات اليمين وإلى اليسار. ثم يغرف الفول بتأن. حبة الفول لونها بنى فاتح. محصول مخصوص من مزرعة صغيرة تقع غرب إسنا. بعد كمر الفول يرسل النصف إلى أبو حجر. والنصف الآخر إلى ثلاثة محلات متخصصة فى الإسكندرية، بعد أن يغرف الحبات المستوية، المختلطة بماء العدس الأصفر. يتناول على مهل بطرف الملعقة بعضاً من الثوم المهروس، يضعه فى المركز، فى منتصف الطبق تماماً. ثم متمهلاً أكثر يحفه بالبقدونس. ثم يرش الملح خفيفاً. يتطلع إلى الزبون كأنه يتأكد، يعرفهم واحداً. واحداً، لكل مزاجه وطبيعته، هذا يفضله بالشطة، وذاك لا يطيقها، أحمد يحب الزيت الحار. وعلى يفضله فرنساوى. أما إذا رأى وجهاً لا يعرفه، لم يرد عليه من قبل فيسأله بصوت خافت ثم يلبى.

لم أعرف عناية فى الإعداد تماثله إلا عند الخضرى الحلوانى، إذ ينحنى على صينية الكنافة ليقتطع منها، يبدو وكأنه سيلثم الشعيرات الغارقة فى السمن والسكر، كذلك البجيرمى بائع الطحال الذى لم أعرف أنظف من جلبابه إلا بياض جلباب بائعى الاشتنجل، كذلك عثمان النوبى بائع الهريسة المنزوى عند مدخل سوق الحمزاوى. كل

منهم تركز وجوده كله فيما يقوم به، ليس نتاج عمله أيًا كان إلا دثاراً ومستقرا لروحه وكينونته الخفية.

خــوف

أفق قــاهرى مـؤكـد، أحـدق إلى تنافـر طرز المبـانى، تجـاور المتناقضات، الأبراج الحديثة، المبانى الفقيرة، ما تحمله الأسطح من ركـام، غيـر أن رحابة المدى فسيـحة، غـيوم مسـالمة، تبـدو أبدية، مقيمة، لكننى أعرف أنها سرعان ما ستولى، ترى، أين تنبع الغيوم؟ متى تتكون؟ وإلى أين تنزوى؟، أبتسم لمن لا أرى. بمفـردى أحـاور المجهول فأغضب وأضحك، بدون علامات.

ضوء مروض، هدف راسخ، مكتمل، غير أننى بغتة أفاجأ بخوف يخل انتظام دقات قلبى، مجهـول، بلا سبب، لا مصدر مباشرا، لا جـهـة يمكن تعـيينهـا، لا من الداخل. ولا من الخـارج، خـوف من الخوف..

تساؤل

هل يسيل الضوء أم يتصل؟ ، هل يتدفق من منبعه القصى موصولاً ، أم أنه متكون من ذرات متجاورة؟ هل يمضى فى مسارات مستقيمة انطلاقاً من المصادر التى يصعب تحديدها إلى المقاصد التى يعسر تعيينها؟ هل ينحنى حقا عند مروره بمصدر جاذبية هائل الكثافة؟ هل يعنى الانحناء أنه مادة ، وإذا كان كذلك ، فلماذا لا نقدر على الإمساك به؟

حلم

سمك يعوم فى البر ، أصناف شتى . ألوان لا يمكننى تصنيفها ، فجأة تتدفق قوافل من الجنازات . نعوش متتابعة لكننى لا أعرف لمن ، عندما سألت ، قيل إنها لمسئول عن الشباب ، أتعجب : هذه الجنازات كلها لشخص واحد ، قيل لي : «إن النعوش فارغة عدا واحد» . ألتفت فأرى صاحبى مجدى يقف ساكناً . أسأله فيجيبنى بلهجته المميزة عند النطق بالعربية . يخشون عليه من الاغتيال . .

كنافة

أمى أمام وابور الغاز، ماركة بريموس، مشتعل، نار هادئة، تمسك صينية نحاس، تغطيها بطبقة رقيقة من السمن البلدى، تضعها فوق الموقد، إذ يسيح السمن تبدأ رص شعيرات الكنافة، تنثر حبات الزبيب، ثم تبدأ فى رص الطبقة الثانية، الزبيب، ثم الطبقة الثالثة، تدير الصينية فوق اللهب على مهل، تمسك حافتيها بقطعتين من قماش مبلول، تدندن أحياناً بأغانى الحنين إلى البلد، إلى الجنوب، ربما تصمت مبدية الجلد والصبر، لا تكف عن تدوير الصينية إلى أن يستوى الجزء الأسفل، يتخذ لوناً وسطاً بين الأصفر والأحمر، تحملها بعيداً عن الموقد، تهزها يميناً وشمالاً. تقلب الدائرة المتماسكة فوق غطاء الحلة المستدير، تعيدها مرة أخرى، لكن مقلوبة، التحتى مكتمل الاحمرار يصبح فوقياً، أما الشعيرات التى لا تزال بيضاء فوق تصبح بأسفل، أقرب إلى النار، تميل الحواف، هكذا يكتمل النضج، ينكمش القرص. تنشأ فجوة بينه ومحيط الصينية. فى الستينيات جرى تطور كبير فى البيت. اقتنينا موقداً يعمل بالبوتاجاز مزوداً بفرن، محلى الصنع، إنتاج المصانع الحربية. ذا شعلتين قويتين، أخرىً أصغر لعمل الشاى والقهوة أو غلى الحليب. ساعد الفرن أمى على سرعة إعداد الكنافة. تضع الصينية داخلها ولا تحتاج إلى تقليبها إلا مرة واحدة. تتقن استخدام الفرن. عرفت من قبل فرناً مختلفاً فى جهينة. يستقر فى زاوية الفناء، من الطين، ينقسم إلى نصفين. تحتى ويوضع فيه الوقود اللازم لإشعال النار، أقراص الجلة وقطع الخشب الصغيرة. الفوقى وتوضع فوقه أقراص العجين، الخبز، الفطائر،

الفايش، البتاو، قدور الفخار، لم أعرف الكنافة فى جهينة، إنما عرفت المخروطة، تؤكل باللبن والسمن، تسوى خيوط العجين على البخار، لا يذكرها الآن إلا المعمرون، عندما قصدت القرنة العام الماضى طلبت من صاحبى أن يعد لى إفطاراً من المخروطة، كنت أسعى إلى استعادة المذاق، بدا حائراً. قال إنه لم يأكلها منذ سنوات عديدة، قصد امرأته لكنها اعتذرت. تحدث إلى بعض أقاربه وهنا أبدت عجوز من القدامى استعدادها، جاءت إلى بيته لتعد المخروطة للضيف المتعلق بالماضى البعيد، لم تخبرنى أمى أين أتقنت هذه الطريقة لإعداد الكنافة، لابد أنها تعلمتها من خلال إحدى جاراتها، إما فى حارة خوش قدم أو درب الطبلاوى. لم أسألها. لكم أرجأت الاستفسارات إما عن تقاعس أو ظناً باتساع الوقت، إلى أن نفد وقتها قبل أن أحاط علماً.

أى نسب تثمر هذا المذاق وتلك الطراوة؟

بعد إنضاج الكنافة تجىء مرحلة التحلية، فيها يتم صب الشراب المصنوع من السكر والليمون، والذى تم غليه فوق النار ثم تبريده، يتم صبه على مهل، يتخلل الشعيرات التى تماسكت، شيئاً فشيئاً تلين، السطح أصلب، القلب ألينها وأحبها إليّ، كنافتها رمضانية، تماما مثل باذنجان البولاقى. لو أنى رأيته فى عين هيئته، بالجلباب الأبيض، بإطراقته، فى المكان نفسه، لكن فى غير رمضان، لما كان هذا البولاقى وباذنجانه الأسود المخلل. كذلك كنافة أمى. لو أعدتها فى شهر آخر لما كانت.

بعد أذان المغرب نبدأ بشرب الخشاف، بلح مبلول وتين وزبيب،

ثم الوجبة يعقبها الحلوى، كنافة أو قطائف، تقطع أمى القرص المستدير، تبدو الخيوط الصفراء المبتلة بالشراب كأنها سلاسل المتعة. كنافتها وسط بين الصلابة واللين، هذا ما أفضله وأبحث عنه حتى الآن، مع مضى الزمن صار شراؤها جاهزة أسرع وأسهل، تعرفت على أنواع شتى، منها «المبرومة» و«العثمانلية» و«النابلسية» و«كنافة شعر»، أكلتها محشوة بالقشدة، بالجوز واللوز، بالبندق، بالفستق، بالجبن، مغمورة فى أشربة مختلفة ألوانها. لكننى لم أجد المذاق الأول.

نزلت بالشام. فى حمص وقفت فجراً أمام محل اسمه «الناطور»، عنده أنواع شتى، بالغة الإتقان. فى اللاذقية مضيت إلى حلوانى شهير، تخصص فى الكنافة بالجبن، يقع المحل فوق مرتفع، مطل على البحر، قصير، ممتلئ، راسخ، يقطع الكنافة بعناية، كأنه جراح، فى دمياط حلوانى قديم اسمه «أبو ستة» متخصص فى الهريسة، وهذه حلوى لم أعرفها إلا عنده. ما يجمعه باللاذقانى أن كليهما لا يفتح إلا لمدة ساعة واحدة يومياً، تنفد الكمية مع الثوانى الأخيرة فيغلق أبوابه، تناولتها فى مكان آخر بعمان، صاحبه نابلسى الأصل، اسم الدكان «حبيبة»، الكنافة بالجبن اختصاص نابلسى، رائحتها تدل عليها من مسافة، شهية، ذكية، لكنها تفتقد تلك النكهة الخاصة لكنافة أمى، فى باريس رأيت أصابع كنافة فى واجهة مطعم يونانى. شكل الشعيرات مشابه لما أعدته الوالدة، دخلت، طلبت المسقعة، والكنافة، بدا النادل كأنه يسمعها لأول مرة، طلب الانتظار، عاد بصحبة شاب مصرى يعمل فى المطبخ، ابتسم قائلا:

إنهم يسمونها هنا «قطائف»، كان المذاق أقرب لكنه غير مماثل، بل ربما أكون متوهماً هذا القرب برغبتى الشديدة فى إيجاده.

أبو غزالة

دائما يحدق إلى أسفل. إلى شفتيه. العلوية مقلوبة، أغلظ من السفلى. ثمة ما يصل بعينيه الجاحظتين، أنفه أيضا مستطيل، صامت دائماً، لم أسمع صوته، كأنه يتكلم بالإشارة مع أنه لم يستخدم أصابعه أو ملامحه على مرأى منى قط.

يبدو أن له صلة بالكهرباء، لم أره إلا مرتدياً حلة كاكية صفراء ذات أزرار نحاسية لامعة، يمت إلى مصلحة أو مؤسسة ما، ربما كانت شركة الكهرباء فى السبتية أو أحد فروعها. معروف فى الدرب أنه متخصص فى مد خطوط الكهرباء، أو بمعنى آخر سرقتها، ثمة أسلاك مؤدية إلى المصابيح التى تضىء الشوارع والطرقات، كانت تضاء بالغاز حتى أواخر الأربعينيات، قبل نزول الليل كان عمال شركة الغاز يظهرون قبل الغروب، يحملون سلالم طويلة، يصعدون فوقها لإضاءة المصابيح، فى الصباح يجيئون مرة أخرى لإطفائها. كانوا من معالم الحركة فى المدينة. أدركتهم، خاصة المصابيح التى تضىء أمام مسجد الأزهر. المدخل الرئيسى المواجه لمسجد محمد بك أبو الدهب، ومحطة ترام رقم ١٩. بعد الثورة، ربما فى عام ثلاثة

وخمسين، أو أربعة وخمسين تبدل الحال، مُدت أسلاك الكهرباء، احتفظت الفوانيس بشكلها الخارجى، غير أن المصابيح أصبحت تضاء بالكهرباء، عُرف عن أبو غزالة مهارته فى اختراق خطوط الكهرباء الحكومية ومدَ أسلاك فى مواضع مختلفة، يخفى مساراتها بعناية، ينتهى كل منها بمصباح قوة ستين أو مائة وات فى غرفة أو صالة داخل بيت، مما سمعته أنه يتقاضى عن كل عملية ثلاثين قرشاً لا غير، لم يكن مبلغاً قليلاً بالنسبة لسكان الدرب وقتئذ، لكنه يجنبهم متاعب الإضاءة بمصابيح الكيروسين، عرفت منها نوعين، لمبة نمرة خمسة، ولمبة نمرة عشرة، بالإضافة إلى خفوت إضاءتهما التى لا تقارن بالمصابيح الكهربائية فإن متاعبها لا نهاية لها، تقتضى عناية مستمرة لتنظيف الغطاء الزجاجى من السناج، وتزويدا بالكيروسين.

يقف أبو غزالة وسط الحجرة فوق مقعد بدون مسند، أبى يرقبه بتأن، يتحرك فى صمت، لا تعنينى اللمبة رغم أنها نقلة بالنسبة لنا، ما أُحدق إليه، ما أطيل النظر إليه، تلك الملامح التى لو رأيتها قبل ثلاث أو أربع سنوات لربما ألحقت بى فزعاً لغرابتها وندرتها. لم أعرف مثل ذلك فى آخرين، يتطلع إلى تحت باستمرار حتى لو كان محملقا إلى أعلى، إلى السماء، نصفه العلوى يميل إلى الوراء. صدره بارز. طويل القامة بغير اتساق، رغم أننى رأيته مرات عديدة قبل ظهوره فى حجرتنا. إلا أننى لم أره فيما تلى من سنين إلا عام تسعة وستين، أى بعد حوالى ستة عشر عاماً، جرى ذلك فى التليفزيون، أزور صاحباً تعرفت إليه فى تلك السنة. مخرج موهوب. فى الاستديو رأيت رجالا ونساء ينتظرون، كومبارس. يتفقد المخرج أو مساعده ملامحهم ليختار منهم السائرين فى طريق.

أو الجالسين بمقهى أو من يعبرون خلال اللقطات، فوجئت بالعينين الجاحظتين المتطلعتين إلى تحت، إلى الشفة العليا الغليظة، المقلوبة إلى أعلى، المتطلعة إلى العينين بدون نظر، مررت أمامه مرتين، طبعاً لم يعرفني، قال صاحبى إن وجهه غريب، لو أنه يجيد التمثيل لأصبح له شأن، لكنه لا ينطق إلا بصعوبة، لذلك يكتفى بمروره البطىء فى تمثيلية موضوعها الرعب، إن ظهوره الصامت هكذا يثير خشية البطل، عندما جلست فى غرفة المراقبة أرى المشاهد عبر شاشات التحكم، طالعتنى عيناه، لم أسأل صاحبى، كيف اهتدى إليه؟ ، ولم أستفسر من أبو غزالة عن كيفية معرفته الطريق إلى التليفزيون، لم أره إلا مرة واحدة فى تمثيلية قصيرة بعد حوالى عامين، لم ألمحه فى طريق رغم كثرة ترددى على الدرب والمنطقة، غير أننى رأيته فى منام قرب استيقاظى، لم أر منه إلا العينين والشفة الغليظة، المقلوبة، بقيت ملامحه بعد صحوى، وبين الحين والحين تبدو لى معلقة فى موضع لا أقدر على تعيينه . .

قبل وبعد

معظم ما يرد عليّ من نثار يفد من أويقاتى الأولى . حيرنى ذلك مدة . خاصة أن الأمر يستوى، عند تعمدى الاستعادة بقصد، أو عند استسلامى للشظايا المتوافدة من ماض بعيد . كان لابد أن ينقضى وقت ليس بالقصير حتى أدرك أن منْ عاش مراحلى البعيدة .

المنطوية، ليس من يسعى الآن حثيثاً صوب التلاشى، أحمل اسمه وسمته، لكنه ليس أنا، إنه آخر، وعندما نستعيد ما يمت إلى آخر نرى ما لا نراه فينا. ويمثل عندنا ما لا يبدو منا. لا نتحرج من ذكره والإخبار عنه لأنه يمت إلى شخص مغاير. انتمى إلىّ يوما واتصلت به، لكنه ولّى، بعدت بينى وبينه الشقة، ولأننى أعرف عنه الكثير أدونه، أشهره بلا تردد، بلا حرج، عجيب ذلك، فما مررنا به وانقطع عهدنا معه، نستعيده جلياً، واضحاً، أما القريب، اللصيق فكأنه لا صلة لنا به، لن أقدم على ذكره إلا إذا تقارب البُعد مع قديمى. ولكن ليس لى قديم واحد. فلن تتاح لى المسافة كى يصبح ما يفصل بينى وبين ما أنا عليه الآن، قدر ما بينى وبين ما كنت عليه، الحقبة جد قصيرة، فهل سيستعيدنى من أجهله بعدى، هل سيتوافد نثار ما أمر به الآن على من لن أعرفه أبدا، من لن ألقاه أبداً، من أجهله مثل ذاك الساعى قبلى.

أربعة فى ستة

كل ما تبقى

مساحة جد ضئيلة من ورق التصوير الذى لمع يوماً، بالضبط أربعة فى ستة، هكذا عرفت الصور. إما أربعة فى ستة أو ستة فى تسعة. المقاس معروف بالسنتيمتر، مستخدم فى الوثائق الرسمية، تطلب

الصورة مقترنة بالمقاس، تلصق فوق إطار مرسوم، مطبوع، إما المقاس الأصغر أو الأكبر.

ألوانها تغيرت، تكتسب هذا اللون الحائل الذى يقف على حواف الألوان المختلفة، لاهو أصفر ولا بنى، لا أحمر ولا أزرق، لون لا يمكن تصنيفه، أو إرجاعه إلى لون محدد، تماما مثل الوقت، نرى أعراضه، آثار مروره بنا أو مرورنا به ولا نفهم كنهه. ماثل أمامى عبر الصورة، حوافها تآكلت، أضعها تحت زجاج مكتبى بحيث يمكننى رؤيتها عند الجلوس إليه، متسائلا بين لحظة انقضت وأخرى تليها: صورتى أم صورة آخر كان يسعى يوماً؟ ، أحقاً هذا إسماعيل أخى أم أنه آخر يمت إليه، يشبهه من بعيد.

أقدم صورى المتبقية. بل إنها الوحيدة. ما من أخرى قبلها بعد أن استولى الضابط الذى قدم لاعتقالى فجراً على مظروف حوى صور تخرجى وصور الأسرة النادرة. عند نهاية كل سنة يصطف الفصل بأكمله، صفوفاً متساوية. أولها قعود، الأساتذة كلهم. صفوف ثلاثة للطلبة، وقوف على درجات سلم عريض بحيث يظهر كل منا واضحا. احتفظت بصور المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية حتى تخرجى حاصلاً على الدبلوم. رغم أن المراحل لم تتعدد حتى الاستيلاء عليها. غير أنى كنت أداوم النظر بين الحين والحين، أنطق أسماء من أذكرهم بصوت مرتفع وأجتهد فى تعقب أسماء الآخرين انطلاقا من الملامح المتطلعة، الرانية، أتساءل عن مستقراتهم المجهولة لى، أستعيد ملامح من اقتربت منهم.

صورة أخرى كأنى أراها أمامى الآن، ضاعت بين ما ضاع، كان

والدى يصحبنا للنزهة إلى الحدائق، إلى المتحف الزراعى المجاور لعمله. حدثنا يوماً عن نافورة جديدة تطلق الماء إلى أعلى مصحوبة بأضواء ملونة، أيام فيها تطلع، وسريان تفاؤل بعد قيام الثورة، قصدنا الميدان الفسيح ما بين العصر والمغرب. انبهرنا بالنافورة ذات الأضواء الملونة. جلسنا فوق الدكك الرخامية المحيطة بها. مس وجهى رذاذ الماء. جاء رجل يرتدى حلة صفراء، يحمل آلة تصوير ذات ثلاث سيقان خشبية، وافق أبى، دس المصور رأسه فى قماش طويل يشبه كُماً ضخماً ذا تجاعيد. تجلس أمى متطلعة بكامل ملامحها، أبى إلى جوارها، حولهما، إسماعيل إلى يمين وأنا إلى يسار، نوال تستند إلى ركبة أمى، تحتضن على الأصغر.

صور أخرى من رحلتى الأولى بمفردى صوب الجنوب، أخرى لم تبق فى وعيى، لم ينج من الزمن الأول إلا تلك الصورة، ربما لصغر حجمها ودقتها لم يلحظها ذلك الضابط الذى راح يكدس المضبوطات أمامه وحوله. مظاريف، رسائل. أوراق مكتوبة وأخرى بيضاء. كان غشوماً، غتيتاً، ورغم أننى لا أكن حقداً ولا أحمل ضيقاً حتى لمن آذونى، إلا أن من أجهل اسمه هذا أستعيد جلسته فى الصالة وتقليبه مضمونى فأبث مقتاً تجاهه مع أننى لا أعرف عنه إلا صورته الماثلة عندى. لا أدرى إذا كان ساعياً فى تلك الحياة الدنيا أم كف؟

لم تفلت منه إلا تلك الصورة. أربعة فى ستة. «فوتوماتون». ربما بدأ التصوير السريع فى الخمسينيات. فى العادى لابد من مرور يوم أو يومين لاستلام الصور. «الفوتوماتون» عبارة عن آلة كبيرة. يسدل ستار على الشخص ويقف الفنى من الناحية الأخرى، بعد دقيقة أو

دقيقتين تظهر الصور . لمدة ظلت هذه الطريقة غير معتمدة فى الأوراق الرسمية ولا أعرف السبب . فى شارع أم الغلام ، تحت بناية حديثة . طلاها ملاكها بلون أحمر فاقع . افتتح محل للتصوير علق إعلانا كبيراً عن طريقة التصوير الحديثة ، والتسليم الفورى ، المقابل زهيد جداً .

داخله عُلق عقال عربى ، وغترة ، قبعة رعاة بقر ، لحية مستعارة ، نظارة زورو السوداء ، مسدس وخنجر ، غطاء جلدى لعين قرصان .

اخترت عقالاً عربياً ملونا بالأحمر والأصفر ، مازال أصل اللونين واضحاً ، مسدس ، هاأنذا أشهره ، فى مواجهة من؟ ، لابد أنه وضع شبيه بنجم سينمائى ، أو بديل لآرسين لوبين الذى عشت تفاصيل مشيته ، ونظرته الجانبية الهازئة ، وإشهاره مسدسه فى الوقت الذى يشعل فيه سيجارته تحديا للأغنياء الذين يستولى على أموالهم ليسلمها إلى المعوزين .

لماذا أبدو جاداً . بل غاضباً؟

شقيقى إلى جوارى ، أقصر قامة ، مبتسم ، طفولى الملامح ، يتحدث فى سماعة هاتف وهمية ، ممسك بكتاب مفتوح ، رواية ما ، لايبدو غلافها ، بالتأكيد خشيت تركها فى الخارج ، آلة التصوير تشبه الدولاب ، المتطور منها يوجد الآن فى المطارات ومحطات المترو ، وعند مداخل الأسواق الكبرى ، يبدأ عملها بعد وضع عملات معدنية بقدر معلن عنه .

أبدو كالخاطف لمن يصغره سناً ، لكنه لا يُبدى ذعراً ، إنما يبتسم ، ترى ، ماذا جال بخاطر الرجل عندما ضغط زر التشغيل؟ هل سخر

منا أم جالت بذهنه أمور عادية لاصلة لها بنا، من هو؟ ما ملامحه؟ ، لكن . . لماذا أتساءل عنه وأنا لا أعرف كم بقى من تلك الملامح عندي؟ أتعرف على أخى أكثر مما أتعرف على نفسى، وإذا ما توصلوا يوماً إلى استنطاق الصور العتيقة، فماذا سيقول من يواجهنى، ماذا سيقول لى؟ وكيف أجيب عليه؟ ، هل يسألنى عما سببته له؟ ما نقص منه عندى وما أضيف إليه؟ ، هل سيتعرف علىّ؟

خسوف

تشرق الشمس وتغرب فلا يلحظها أحد من سكان المدن، خاصة المكتظة، المزدحمة مثل قاهرتى، تفد النجوم إلى السماء وتمضى، تنهال الشهب والنيازك، لا يلحظها أحد، فى المدن الكبيرة تضل الكواكب، وتغطى الأضواء المحدودة على النجوم البعيدة، المحدقة من الأعالى، لا تنتبه إلى حركة الأفلاك إلا عند وقوع الاستثناء، اختراق المتكرر بما لا يتكرر إلا على فترات متباعدة، ذلك اليوم تطلعت إلى أعلى نهاراً، من النادر أن أرقب السماء نهاراً، ربما فى الشتاء لأحاول تصنيف ألوان الغيوم، وتفسير مجرى السحب، والتحديق فى الشمس إذ تبدو فضية، لامعة، محددة الاستدارة، مع تواريها خلف الغيوم يمكن التطلع إليها، لا أخرج خصيصا لذلك، إنما يتم الأمر أثناء ركوب العربة على الطرق السريعة الممتدة خارج المدن، أو عند تواجدى فى الريف.

ذلك اليـوم لم أكـن بمفـردى، إنما تطلع إلى أعلى الآلاف، إن لم يكن الملايين من جيرانى فى تلك المدة التى قدر لى أن أسعاها فوق الكوكب، فى هذا اليـوم بالتحـديد، كلهم تطلعوا إلى أعلى، إلى الجرم الأكبر الذى يوثق أرضنا إليه. بعضهم استعد فخرج إلى الخلاء، ومنهم من سافر إلى مواضع بعينها، إلى تلك الجزيرة فى خضم المحيط الاطلنطى، والتى يبلغ عندها الخسوف ذروته، اقتنيت نظارة سوداء خاصة، اشتريتها من باريس مع كتاب عن الشمس، طبع على هيئة قرصها المستدير، صدوره جزء من الحدث. تصادف اقتنائى لنسخة خلال سفر سريع، صعدت إلى شرفة الطابق الأخير بالمبنى الذى أعمل به.

أرتدى النظارة القاتمة، أصبح أكثر قرباً من الشمس رغم المسافة الفاصلة، ثمانى دقائق بسرعة الضوء، أى واحدا وعشرين عاما من الرحيل المتصل على متن أسرع طائرة معروفة لدينا الآن. بمجرد تطلعى اتخذت موقعاً فى شرفة كونية، ما يبدو لى نظراً إلى فوق ربما يكون من حيث الوضعية الأكبر خطاً مستقيماً، موقع لا أطل منه على شارع أو ناصية أثيرة أو شجيرة جميلة، إنما على حركة الفلك. لمحت بدء زحف ظل القمر المستدير على قرص الشمس، يقضمه قضماً، ظل الجرم البارد، المجرد من كل غلاف جوى، التابع للأرض، المنتظم فى مدار جاذبيتها، ها هو يغطى أصل الأصل، يحول بين المركز والفرع، بين الخط والنقطة، مجرد ظله البارد، الهامد يزحف على الأتون الملتهب، الجسم المتفجر درجة حرارة سطحه خمسة آلاف وستمائة درجة مئوية، تصهر كافة أنواع المعادن ما عُرِف منها وما لم

يعرف بعد، تحول المادة الصلبة بأدق مكوناتها إلى سيولة لا تُدرك بالحواس المصاغة لدينا طبقاً لشروط المحتمل، فرع الفرع يبدأ تغطية الأصل، يخفى لهيبه الكونى شيئا فشيئا، يقضمه، يقصه قصاً بمقدمته المحنية الدائرية، حتى يصبح القرص الذى لا يمكن النظر إليه بالبصر الإنسانى فى الحال العادى مجرد هلال نحيل يذوى شيئاً فشيئاً، مستباحاً للمتطلعين، الراصدين، الباحثين عن السر ومن يشغلهم الأمر والفضوليين، الجسم الذى اعتدنا أن نرى بدايته ونهايته هلالاً نحيلاً يحول بظله مصدر ضوئه وإشعاعه إلى هلال، يتشابه البدء والمعاد، الأصل وفرع الفرع. لكن ما نظنه أصلاً، ليس إلا فرعاً لأصل آخر تنتظم حول مركزه بلايين النجوم المماثلة. وربما يكون هذا كله مجرد ظل ظليل لأصل خفى، جد بعيد، يستحيل الوصول إليه بتصور الأفئدة حتى، أصل أصيل يثبت المقدرة على ضبط تلك الأجرام فى مداراتها، ينظم حركتها بحيث يمكن لمن أحاط بقدر من العلم أن يتنبأ بالخسوف والكسوف، ليس المقبل منهما فحسب، إنما كل دورة لهما لثلاثة قرون بمقاييسنا للوقت!

مع تقدم الظل يتغير الضوء. يبهت شيئاً فشيئاً، تهب دفقات من رياح غير معهودة فى ذلك الصيف، برودة غير مألوفة. لاخريفية ولا شتوية، برودة من بعيد، من بعد لا يمكن تقديره، لذلك تنفذ إلى أدق الخلايا رغم مسيسها الرهيف، يغمق الضوء مع انحسار الضوء المنبعث، المنير، يلوح خلل كونى، خلل غير بعيد، تتصادم عنده تلك الأجسام المعلقة، عندئذ ينتهى الوضع كافة بالنسبة لمن يسعون ويحاولون الإدراك.

يكتمل إخفاء الظل للأصل، عتمة غير مسبوقة، لا يمكن مقارنتها بأخرى، فى أفق المدينة تتصاعد ابتهالات جماعية من المساجد، صلاة الكسوف، أصوات جماعية، مدغمة، لا تخص شخصاً بعينه، ولاتدل على فرد، إنه ابتهال المجموع، توجه الكافة إلى حيث لا يمكن التعيين، أشخص من مكانى غير عابئ بصعوبة وضعى، الكل متطلع، حتى من يتلو الدعوات فى الأماكن المغلقة، مهما علت الأصوات فثمة صمت، أقصى ما يمكن إدراكه هو ما نراه، الصوت الوحيد المسموع فى الكون لذلك الأصل البعيد الذى لا تُلم به الأبصار، والذى كدت أشرف على رؤية قبس من أثر لآثاره!

باذنجان البولاقى

ليس لإطراقته مثل، كأنه خُلق هكذا، متطلعاً إلى الأطباق وما حوت، لا يظهر هنا إلا خلال شهر رمضان، بالتحديد بعد ثبوت الرؤية، يخرج المنضدة المستطيلة، يرص فوقها أوانى المخلل، يلزم مكانه المواجه لمقهى البنان حتى ليلة العيد، إنه البولاقى، أهو اسمه الحقيقى أم صفة أطلقها عليه أهالى الحى؟ ، لا أعرف، كما أننى أجهل مهنته الحقيقية، رغم رؤيتى له مرتدياً القميص والبنطلون طوال شهور السنة، ماضياً إلى عمله أو راجعاً منه، إلا أنه بالنسبة لى ما يكون عليه خلال شهر رمضان لا غير، يخرج بدءاً من العصر أمام بيته، مرتدياً جلبابه ناصع البياض. غزير شعر الرأس، فاحم شديد

السواد، لا يمكن تدقيق عينيه، لأنه متطلع دائما إلى المخلل، جفونه مرخية كأنها مسدلة، نادراً ما يتكلم حتى ليمكنني الجزم أننى لم أصغ إلى صوته قط، يقيم فى البيت الذى يقف أمام بابه، لكننى لم أعرف أى طابق، لم ألمحه يطل من أى نافذة، لم أره جالسا إلى مقهى البنان المواجه، لم أره يتحدث إلى أحد، فقط. . وقفته الرمضانية تلك، يتناول منى القرش، لا يسأل عما أريد أو ما طلبه أبى، يعرف رغبات زبائنه، بل يمكنه تخمينها، يتحرك بخفة بين القدور الفخارية، البرطمانات الزجاجية، الأطباق العميقة الكبيرة، فى الأوانى المغلقة بإحكام يرقد الزيتون الأخضر، الليمون غامق الصفرة، البصل بأحجامه الصغيرة والكبيرة، اللفت بنوعيه الأحمر والأبيض، أما الأطباق المغطاة بالقماش الخفيف، الشاش، فيرقد بداخلها الباذنجان الأسود، الطماطم، شرائح الخيار، الفلفل بأنواعه.

يظهر قبل ارتفاع أذان العصر من مسجد سيدى مرزوق الأحمدى، هل يرتبط الموعد بعودته من وظيفته، أم أنه يحصل على أجازة طوال شهر رمضان، يشمر أكمامه، لا يمسك الثمار المخللة بأصابعه، بل بملقاط معدنى أو مغرفة. إذا مد أحد الزبائن أصبعه مشيراً يحذره من اللمس، يبدو أحرص من طبيب أتم تعقيم أدواته استعداداً لإجراء جراحة، عندما يرص الباذنجان والطماطم يبدى التأنى والعناية، أذكر أنفاسه التى كان يستنشقها بقوة عند انهماكه شأن من يستمتع بعمل ما.

كما يُعرف آرتين الأرمنى بالجبن الرومى رغم تعدد الأصناف فى بقالته، والخضرى بالبسبوسة رغم إتقانه الحلويات الأخرى. اشتهر

البولاقى بالباذنجان، فرادة مذاقه، وندرة الخلطة التى يحشوه بها والتى يصعب فك مفرداتها، إرجاعها إلى أصولها الأولى، لم يطّلع أحد على سرها، ذاع مذاق الباذنجان لذلك كثر الطلب عليه، قصده مشاهير وأصحاب حيثيات من المصلين بالحسين، كذلك كبار تجار خان الخليلى والصاغة والنحاسين والخرنفش، وقيل إنه يزود القصر الملكى بعابدين، يومياً، فى ساعة معلومة يجىء رجل مهيب فى عربة يجرها حصان، يدخل إلى البيت قبل خروج البولاقى إلى الطريق، يعود إلى العربة حاملاً طبقا كبيرا ملفوفاً به مخلل اليوم، خاصة الباذنجان، لشدة الإقبال عليه أصبح الصنف الوحيد الذى يجب حجزه مقدماً، لم يصغ إلى نصائح البعض بزيادة الكمية، يعطى الأولوية لقدامى الزبائن، أيا كانوا، دراويش أو باعة جوالة أو تجاراً أو باشوات مرموقين ممن اعتادوا ارتياد الحى. الكلمة الوحيدة التى سمعته ينطقها، عندما حاول أحدهم اجتياز من يسبقه.

«بالدور..»

لم يستثن أحداً قط.

شمس

يطل إلىّ عبر المسافات اللامتعينة، شعره الأبيض، حواجبه أيضا، عيناه ضيقتان مزرورتان، جلباب مخطط، ياقة لم أرها إلا حول

رقبته، تحيط بها تماماً، يتحرك فى دكانه محدود المساحة بتأن دقيق، لا يفتح إلا بعد صلاة العشاء، بعد إغلاق أبواب المسجد الواقع عند مدخل الدرب.

دكان مستطيل، عمقه إلى الداخل تموهه علب الكرتون الفارغة أو المليئة بسجائر كوتاريللى أو ماتوسيان، علب تتسع كل منها لمائة، تباع بالواحدة، كنت أجمعها وأستخدمها فى لعبة «صبيان وبنات» حيث أرصها فوق بسطة السلم مع كاميليا وعزة ومحاسن، تلك العلبة دولاب وهذه سرير والأخرى ترابيزة السفرة والرابعة للمطبخ، أتناول الإفطار قبل ذهابى إلى الشغل، وعند عودتى من الطابق الأسفل تقابلنى كاميليا ـ زوجتى ـ بالقبلات وتستعد لإعداد الغداء.

العلب الفارغة مصدرها دكان عم شمس، ما يفيض عن المساحة يُلقى به إلى الخارج، لم أره إلا ليلاً، بعد أن يشعل عمال الإنارة مصابيح الغاز، وتغلق معظم المتاجر فى شارع قصر الشوق وحبس الرحبة عدا مقهى البنان وعبد الهادى البقال، يصعب نهاراً رؤية موضع الباب، كأنه جزء من جدار المسجد، لايظهر إلا بعد أن يفتحه ويقف خلف الفاترينة التى لا يوجد داخلها إلا علب السجائر ورائحة التبغ، أما زجاجات البيرة خضراء اللون، طويلة العنق فلا أدرى أين يحتفظ بها؟

فى الأزهر والجمالية لا يوجد محل يقدم الخمر إلا عم شمس، لا يوجد قانون مكتوب يمنع، لكنه عُرف، حيث مواضع الأضرحة ومراقد الأولياء والمشايخ الراحلين لايُقدم الخمر بكافة أنواعه،

الحشيش ممكن، بل إن رائحته تتردد خلال الموالد بقوة، لا يوجد نص يحرمه، يقول حشاش مكين مداعباً: لو أنه حرام فنحن نحرقه!

عم شمس يقيم فى حجرة فوق سطح البيت رقم ثلاثة، ينام طوال النهار، ينعس قبل شروق الشمس ويستيقظ قبل أذان العشاء، لا يعرف أحد كيف يدبر أحواله، لم يره أحد داخلاً بأرغفة أو ورق فيه لحم أو كيس فاكهة. كما لم يشم الجيران رائحة تقلية منبعثة من سكنه. لا صيفاً ولا شتاء، طوال النهار لا يسمع له صوت ولا يتسرب من غرفته حس، يظل واقفاً طوال الليل فى الدكان. عند العاشرة تماماً يبدأ تقديم البيرة، يُخرج الزجاجة الخضراء الملصق عليها ورقة مربعة صفراء باللغتين العربية والإنجليزية، ستلا الفاخرة، على مهل يفتحها، يضع كوباً مستطيلاً إلى جوارها، يسأل الزبون: «برغوة أم سادة؟»

برغوة يصب مباشرة. بدون يميل الكوب بزاوية معلومة يتأنّى فى الصب من الفوهة التى تلامس الحافة. بحساسية مرهفة وحذق نادر، يستغرق تماماً. لو ناداه ضابط «الثُّمن»، لو جاءه الشيخ على الجرجاوى الذى يوده ويتقرب منه وأحيانا يدعو له، لم يظهر حتى ملاحظة أو إشارة من بعيد يلومه خلالها على بيعه البيرة للخلق، بل لو جاءته تلك المرأة سرحة القوام، التى لم يفلح أحد فى رؤية ملامحها حتى الآن، لا يعرف إنسان عمرها، شابة أم عجوز، تظهر أحد أيام الأسبوع بعد أن يفتح الدكان بدقائق، تهمس تحية المساء، متمنية له الخير، تناوله لفافة، يمد يده لتأخذ منه شيئاً لم يدققه أحد

ولم يعرفه قريب أو بعيد، لكن الثابت المعلوم أن ملامحه لا تتبدل إلا عند اقترابها، يتخلل خيط دقيق غير مرئى يصل بين مكونات وجهه، يؤكد من اطلع على قدومها أن ملامح أخرى تبزغ، تطل عالقة بحضوره طوال مثولها وتختفى بمجرد ذهابها، مع هذا كله لوظهرت أثناء صبه الكوب المتأنى لما التفت ولما انتبه، إنها اللحظات التى ينعزل خلالها تماماً، بل إن الحاج ناصيف الفران الذى عرف مذاق البيرة وتأثيرها المسبسب، المهدئ الذى ساعده على النوم بعد أن جافاه زمناً وأضناه الأرق، منذ تجرعه أول كوب من يد شمس لم يكف، يؤكد أنه لا يفتح الدكان ولا يخرج من غرفته العلوية، المنعزلة، إلا ليصب بدون رغوة، بالطبع. لم يعرف مدى صحة ذلك، المؤكد أن متعته فى الصب المتأنى الحاذق المحاذر، لا يحيد بصره عن سلسال السائل الذهبى السارى من باطن الزجاجة إلى محيط الكوب المحندق، يمد يده حاملاً بعناية إلى الزبون، لا يبيع زجاجة مغلقة أو كاملة، بالكوب، فقط بالكوب، ولم يره أحد يتذوقها أو يلمس طرف لسانه بها. حاول بعضهم شراء زجاجة لكنه رفض بحزم وصد، مجرد انتقال البيرة من يده إلى الزبون ينسحب إلى داخل الدكان، يتوارى الجميع إلى جانبى الباب يحتسون على مهل، بصمت، يحاذرون أن يرتفع صوت أحدهم أو يتجاوز الحد، لا يقدم على ذلك إلا الغشيم، الجاهل بأصول الشرب عند عم شمس، من يعرفه يخشاه، ملامحه الصامتة والثابتة تبعث على الخشية، لايبدى سروراً ولا يفصح عن غضب، غير أن طيفاً شجيًا يعبر طلته إلى الخلق، من يعرفه يدرك مغزى نظرته إلى من لا يرضى عنهم، يقف ثابتاً فى الحيز المحدود، يصوب بصاته فى خط مستقيم، لا يحيد، لا يستأنف السّقْىَ لمن

ينتظر، عندئذ يبدأ الواقفون، المنتظرون دورهم لنيل الشراب فى زجر المغاير، يدفعون به إلى المغادرة، إلى الابتعاد بينما شمس على حاله، لم يرفع إصبعاً، يقول المعلم البنان صاحب المقهى القريب إنه ذو سطوة على ضباط وجنود «الثُّمن»، كيف ولماذا؟ لا تفسير معلن، واقعة الباشجاويش هجرس معروفة، ذائعة، معروف فى الناحية كلها، يدور على الحارات والدروب والأزقة. يفتش على عساكر الدوريات، يتأكد من يقظتهم، يوقع لكل منهم فى دفتر صغير، لم يكن أمثاله يحملون أسلحة نارية أو بيضاء فى تلك الأزمنة، فقط عصا قصيرة مقلوظة مثبتة إلى الحزام الجلدى العريض. لكن مجرد ظهوره يرجف القلوب العاتية عدا شمس. لا يعرف أحد الليلة أو اللحظة أو الدافع الذى جعل الباشجاويش هجرس يتذوق أو رشفة «ستلا» فى حياته، عرفها فى عمر متقدم لكنها لم تكن حسوة عابرة. صار يتردد بقوامه وبنيانه المائل قليلاً إلى الوراء. يطلب الـ «ستلا» بلهجته الصعيدية، يعب ولا يشرب، يبلل شاربه المبروم ويدفع، ما أزعج شمس صدور صوت عنه. تطلع إليه مشمئزاً، غاضبا، لحظة نادرة بدا عليه انفعال. أحد الزبائن العتاقى فهم، شرح للباشجاويش المهيب الفرق بين المشروب الذهبى وعصير القصب. مع الأيام زاد هجرس المعدل حتى تجاوز الزجاجة والنصف. طبعا يجرعها كوباً بعد كوب. فى ليلة اختفى فجأة من أمام الدكان، أخذ معه الكوب الفارغ. ابتعد حتى اختفى فى درب المسمط، وقف عند المدخل الآخر لقصر المسافرخانة، رفع وجهه إلى المشربية الوسطى المظلمة، راح يجعر بصوت ذى شعب عديدة، عندما أطل سكان البيت المواجه سارعوا بإغلاق النوافذ ومنع النساء والأطفال من رؤية عُريه المكتمل.

المعلم لانضى، عبد الهادى البقال، عبده الخضرى، كلهم فى دهشة، لم يصدر رد فعل من رجال «الثُّمن» ضد شمس، هجرس عوقب وأودع فى مكان أمين بالعباسية، غير أن الحاج ناصيف الفران وصفهم بالغباء، ألم يلفت نظرهم إلا ما جرى لهجرس، ماذا عن الدكان المحفور فى جدار المسجد الذى يضم سيدى مرزوق الأحمدى، ماذا عن السنى موزع العطور على أحباب الحسين، الدرويش الورع، يخرج قبل صلاة الفجر، يتوقف أمام الدكان، يخرج قارورة ذات توليفة خاصة، يفتحها متمهلاً. يمد شمس يده مقلوبة، يتلقى مسة العطر، يعبق الفراغ بالرائحة المعنبرة بينما السنى يطلب منه الرضا والدعاء.

زفة العجم

سكة التمبكشية

طريق واصل ما بين شارع الجمالية وشارع المعز لدين الله، لم أعرف فى القاهرة القديمة إلا طريقين يبدءان بسكة، أولهما السكة الجديدة الواصلة بين ميدان الحسين والموسكى، شق زمن الحملة الفرنسية لتسهيل وصول القوات من مشاة وخيالة إلى الجامع الأزهر مركز الثورة والدعوة إلى الجهاد. بعد حوالى قرن تم شق شارع الأزهر الأعرض، ربما للسبب نفسه، بعد أحداث ثورة ١٩١٩، كانت

المعدات العسكرية أعقد وأضخم، بعد افتتاحه انشطرت المدينة إلى قسمين لم يتصلا حتى وقت هذا التدوين مطلع القرن الحادى والعشرين.

عديدة الأسماء التى أعرفها وأرددها بدون أن أفهم معانيها أو مدلولاتها. التمباكشية مركز تجارة التنباك بسائر أنواعه العجمى والعدنى واللاذقانى والتركى، أيضا النُقل، والنُقل كلمة لم أعرف أصولها، تعنى مكسرات رمضان من عين جمل وبندق وجوز ولوز مقشر وغير مقشر، كذلك التين المجفف والزبيب والقراصيا وقمر الدين. معظم التجار عجم، أى أصولهم فارسية، المحدثون منهم لا يتكلمون العربية بوضوح، لكنتهم ما تزال تعاودنى، تفخيم الحروف مع إدغام بعضها، من أمضى سنوات أو الجيل الثانى منهم المولود بمصر يتقن العربية تماماً.

لوالدى معرفة ببعضهم، العجم فى سكة التمبكشية، وفى متاجر خان الخليلى، خاصة السجاد والمصنوعات الخشبية والخزفية والشمعدانات الفضية. يصحبنى أبى بعد الظهر إلى معرض ضيق الواجهة لكنه عميق الفراغ، داخله كل غريب، من الصين، سنغافورة، الهند، الملايو، اليمن، بلاد فارس، الأناضول. صاحبه يدخن النرجيلة دائماً، يجلس مولياً وجهه صوب ضريح سيدنا الحسين. العلامة التى تستنفره من ذاكرتى الشاى الأخضر بالنعناع، نعناع طازج، خصب الخضرة، نفاذ، لم أعرف مثله فيما بعد إلا فى المغرب.

فى التمبكشية رجل منهم يرتدى عباءة صيفاً وشتاء لونها أصفر

غـامق، لا أراه إلا منحنياً إلى الأمـام. لا أتمكن من مـلامحـه. كل هؤلاء يعرفهم الوالد من صلاة الفجر بمسجد مولانا الحسين، كثيرون مررت بهم، لكن لسكة التمبكشية موضع آخر عندى.

صباح باكر. الطريق خالية، أتجه من بيت القاضى إلى الخرنفش، أفاجأ بهم قادمين نحوى. تجار النُقل وآخرون من خان الخليلى وغرباء لا أعـرفهـم، يتمـايلون إلى اليمين وإلى اليسار فى حـركـة منظمـة، قبضاتهم مضمومة، يضربون صدورهم، فى صوت منغم، يصيحون بدرجة أقرب إلى الصراخ:

«يا حسين.. يا حسين..»

عـمامـات، جلابيب منحسرة، أقدام عـارية، ملامح ملتاعـة، القبضات تخبط الصدور ترجها رجاً، توقفت أدركنى حزن، رغبت فى البكاء غير أننى حشت الدمع، فيما بعد ذرفت كثيراً، لكن بمفردى أمام مقصورة الضريح الشريف، إنه من الأماكن التى تبعث الأشجان الدفينة وترسل القطر سلسالاً من عينى.

قلت لأبى إننى رأيت بعض صحبه صباحاً، وصفت له ما عاينت، قال:

«إنها زفة العجم.. عاشوراء..»

ظننت الوصف خاصاً به، لكننى أصغيت إليه فيما بعد من عم محمد العطار، وعبده نادل مقهى الفيشاوى..

أم سعد

ظهيرة يوم لا اسم له عندى الآن، ما بين الثانية عشرة والثانية. يقترن التوقيت بدرجة من الضوء تغمر الحارة التى تخف الحركة بها لانشغال النساء فى إعداد طعام الغداء. ولاستدعاء معظم الأطفال بعد أن نالوا حظهم من اللعب.

طَرْقٌ غير معتاد على الباب، تلمس أمى صدرها بيدها:

«ياساتر استر. . »

تتردد، ما من مثير للخشية مثل طوارق الفجأة، وقفت على مسافة خلفها.

«الحقينى يا أم جمال. . »

تعرفت على صاحبة الصوت، بادرت بفتح الباب. .

«أم سعد. . مالك يا اختى؟ »

إذا ما ذُكر الفزع على مسمع منى على امتداد الأزمنة التالية فلابد أن أستدعى ملامحها، خاصة أننى فى ذلك العمر لم أكن أرفع البصر عنها بمجرد دخولها وقعادها متربعة فى الصالة الضيقة، أقعد خلف أمى أتطلع إليها، مرتاحاً، مأخوذاً، آمناً، مستكيناً بتأثير ما تبثه من دعة وقدرة على رشح مؤثرات غامضة تجعلنى مشدوداً إليها، وضعى نفسه الذى اتخذته عند النظر إلى الحمراء فى البلدة، تطلُّعى إلى أم سعد من خلال عمر متأخر، ربما كنت أدنو من العاشرة. أو التاسعة،

وربما الحادية عشرة، لا أدرى، أما الحمراء فالمؤكد أننى كنت دون الخامسة عندما تعلقت بصورتها الماثلة عندى حتى الآن.

تجىء أم سعد كل شهر مرة أو مرتين، تحمل بقجة فيها قماش أو مناديل لتغطية الرأس، أحياناً تأتى بقطع صابون معجون بزيت الزيتون لمنع تساقط الشعر، أو بودرة ناعمة لمعالجة التسلخات، أو مفتقة تفوح رائحتها النفاذة، مزيج من سبعة مكونات، أقواها تأثيراً ونفاذاً العسل الأسود والحلبة، تدفئ الجسم فى الشتاء، تبعث الدفء، تزيد السمنة والربربة، كان الامتلاء من مكونات الجمال وقتئذ. لم تكن أم سعد سمينة أو حتى تميل إلى امتلاء.

وجهها بيضاوى، فسيح، عيناها مركز جاذب، مؤثر، فسيحتان، عميقتان، إطارها عميق السواد، حاجباها علويان، مشرفان، أما أنفها وفمها فيشكلان لحيناً غامضاً، لا أسمعه لكننى أرصده، ورغم انعدام الصوت إلا أنه لم يكن بوسعى إلا الامتثال والإصغاء، قوامها ناعم، مُنعم، لا بالطويل ولا بالقصير، قريب من السموق، دان من الاعتدال، لا أدرى أى فصوصها يمنحها الخصوصية، ليس لوعورة ذلك عليّ فى أول العمر، أثق أنها لو مثلت أمامى الآن فستنتابنى الحيرة ذاتها، ولن أقدر أبداً على تحديد موضع البث ومصدر الحلوى، والربربة! ، كافة ما يمت إليها هادئ، ناعم، فكأنها منبع الإثارة والرضى، بل إننى خلال استعادتى لحضورها عبر أزمنة مختلفة، وفى أماكن متباعدة إلا وكانت محرضاً على الطمأنينة والاستكانة. لذلك تبدو استثنائية الاستعادة فى ذُعْرِها الذى صار عندى سمة وعلامة.

تسند جبهتها إلى راحة يدها، ينحسر جلبابها تحت الملاءة اللف عن رواء ناصع مازال يلبى احتياجى رغم توالى الأزمنة، استدارة الكتفين وانحدارهما تمهيداً للذراع المتصلة براحة يد يبهرنى اتساقها وتناسبها، أستعيدها من كافة الجهات، من أمام ومن خلف، من أعلى ومن أسفل، فكأنها تسرى عندى!

فى هذه الظهيرة لم تبسط بضاعتها، لم تفرد محتوياتها، إنما بدت مرعوبة، فزعة، لايرد معنى الخشية عليّ إلا تبدو ملامحها، اضطرابها، زيغ نظراتها، تحديقها إلى نقطة غير محددة، تلفظ بين الحين والحين ما يعنى أنها فى حالها، تسعى على رزقها، تمشى فلا تميل ولا تهتز، ولا تلامس بعينيها أى نظرات أخرى، ألا يكفى تعبها، ألا يكفى شقاؤها وجريها المتصل لتصون الأنفس الثلاث، اليتامى، من تركهم والدهم بدرى، ألا يكفى سعيها من العطوف إلى الكفر إلى الدراسة لتبيع حتة هدمة أو صابونة أو كيس شاى لتؤمن القرش الحلال؟

إيقاع صوتها كأنها ترثى حالها. انتبهت فجأة عبر استغراقها، قالت إن ما أدهشها جرأته. وقاحته، عندما وصلت إلى المدخل، قالت إنه لن يستطيع، الدرب سد، لا يؤدى إلى حارة أخرى، غير نافذ، لا يدخله إلا من يقيم به أو من له صلة بأحدهم، لكنها فوجئت عندما التفتت أمام الفرن أنه يتعقبها عن قرب، يكاد يمد يده ويلمسها، يغرس نظراته فى ظهرها مثل السكين، إنها خائفة ولا تدرى ما تفعل!

همّت أمى قائلة:

«استنى..»

فتحت الباب، تبعتها موزعاً بين الرغبة فى النظر إلى أم سعد والخشية من مجهول ما، لم أعرف ولم أسمع بمثله من قبل، ليست أم سعد تلك التى طالما تمنيت مجيئها والتطلع إلى قعدتها وإلى ملامحها خلسة مهدئاً أنفاسى. كأن الخوف بدلها.

طرقت أمى الباب المواجه، الست عطية زوجة عبده موزع السجائر على دكاكين البقالة والخردوات والأكشاك فى الميادين، تذكرها أمى بالهدوء والرقة، دائما تصفها بالعروس رغم مرور سنة على مجيئها، ماتزال تنتظر طفلها الأول، شقيقها يجىء نهاراً ليرتاح، يعمل محصلاً بالترامواى، هادئ مثل أخته، خجول، لا يرفع عينيه حتى لا يقع بصره على جارة أو عابرة سبيل.

تساءلت أمى عما إذا كان عبده موجوداً، وعندما استفسرت عطية عن السبب إذ أدركت أن الأمر غير عادى، خاصة أن ملامح أمى تنذر بوقوع شىء ما، قالت باختصار إن أحدهم يضايق أم سعد.

«تصورى دخل وراها..»

خبطت عطية صدرها بيدها:

«ياخبر..»

صاحت متسائلة عن المجرم ابن المجرم، لا يحتاج الأمر وجود زوجها، ستنادى الجيران لردعه، ارتدت إلى الصالة لتعبرها صوب النافذة المطلة على الدرب، حاولت أمى منعها، لاتدرى ما يمكن أن يجرى، جريت إلى نافذة الغرفة الداخلية، اعتليت الكنبة، تطلعت من خلال المصراعين المنفرجين قليلاً، أمام بيت أم عيد يقف متطلعاً

إلى بيتنا، متسع الحدقتين، مستنفراً، لونه بنى غامق، شعره غزير، شفتاه متسعتان، يحدق بثبات، مستنفراً. يسيل تجاه الطوابق الثلاثة، وعندما ارتفع صوت عطية صارخة، شمحرضة، لم يبد عليه أنه سمع أو انتبه، مستحيل ردعه.

فى لحظة متقدمة، تمت إلى نهار آخر بعيد، أسأل أمى مستفسراً عن غيبة أم سعد، لماذا لم تعد تأتى منذ ذلك اليوم؟

تلوح بيدها معلنة صمتها، آمرة فى الوقت نفسه بالسكوت!

فريال

لندرة اسمها تمْثُل جلية، واضحة، نازلة السلم، طالعة، من أعلى إلى أسفل، من تحت إلى فوق، ناهضة، صدرها مشرع، انشقاقه باد فى غير مواربة، يضيق جلبابها بجسدها الذى يكاد يطفر منه إلى حيث لا يمكن التحديد.

بنات الدرب أسماؤهن معروفة، محدودة؛ زينب، عائشة، خديجة، هند، روحية، سعاد وربما ليلى، صفية، لكن فريال اسم نادر وقتئذ، ينتمى إلى من يُطلق عليهم أولاد الذوات، أمثال الفنان سراج منير، أو الفنانة ميمى شكيب، وربما لم يجرؤ البعض

على تسمية بناتهم به لأنه ملكى، يمت إلى الأسرة الحاكمة، شقيقة الملك فاروق الأميرة فريال، لكن ما يدحض هذا أن للملك شقيقة أخرى رائعة الجمال. الأميرة فوزية التى تزوجها شاه إيران رضا بهلوى وافترقا بالطلاق لأنها لا تنجب، وكان يريد وريثاً للعرش، فوزية اسم شائع فى الجمالية والباطنية والعطوف والأرياف. لكن يظل لفريال خصوصية وفرادة. سمعت من يقول إنه سيدخل سينما فريال ناحية الظاهر.

غير أن فريال امرأة عبده شقيق عطية جارتنا، فلم يكن فى مظهرها ما يوحى بهذا الاسم الملكى، كانت غامقة السمرة. مسدلة الشعر. عيناها فسيحتان، غليظة الشفتين، دائماً بينهما انفراج، يبرز من خلالها فلجة أسنانها، لا يكتمل تعبير وجهها إلا بتكوين جسدها الفائر، صدرها الطاقق، وذراعاها المتأهبتان للاحتواء، وذلك السموق بدءاً من ساقيها حتى تفريعة قوامها، خاصة بطنها، نحول خصرها، مقدمة فخذيها واستعصاء ثوبها عن مداراة خطوطهما. كانت «أنثي». إليها تتطلع الجارات خلسة أو مباشرة، خاصة عندما تظهر فوق السطح لتنشر الغسيل وتصبح فى مرمى البنايات المجاورة التى ترتفع طابقاً أو اثنين، أو عندما تطل من نافذة غرفتها عصراً، يهيمن ثدياها الأشمان على الدرب كله، طال وقوف سمير الشيوعى، والحاج أحمد تاجر العطور بالحمزاوى، وغريب مساعد سائق القطار، أصبح ميقات ظهورها معروفاً، مقدراً، من يقيم بأسفل يتطلع إلى أعلى، ومن يستوى مقامه ينظر متمهلاً، يحيد بنظراته بعيداً ثم يمرُّ بها متمهلاً وكأنه يتطلع صدفة، بعضهم لا يحيد،

منهم فكرى الكهربائى الأعزب، وعبد الهادى الكمسارى الذى يعد جيرانه أنه سوف يسافر قريباً ليحضر زوجته من فاقوس، ما عطلها عن اللحاق به عسر الأحوال، مجرد حلول العصر، ظهورها يعنى خروج الذكور والإناث إلى الشرفات والنوافذ للتطلع إليها، تهيمن على الكافة عبر ردود فعل متباينة، وقيل إنها بعد مرور وقت قصير تبدأ رائحتها الخاصة المحرضة فى السريان عبر الفراغ إلى الحواس كافة، لم يعرف الدرب مثيلاً لها، منها حض غير مباشر، تحريض خفى، وبث نافذ، صارت مصدر قلق وخشية عند الجميع، الآباء يخافون على أبنائهم البالغين، الأمهات قلقهن مزدوج، على أزواجهن من ناحية، وعلى الأبناء، وبالتحديد البنات، وقوفها بهذا الشكل، وسفور جسدها حتى مع ارتدائها الجلباب الخفيف من قماش رمش العين، مصدر غواية للمراهقات، والمتطلعات خفية إلى التجاوز، أما ما ضاعف قلق الكافة فخيبة زوجها، لم يعد خافياً أنه لا يملأ عينها، ولا يقدر على إطفاء حريقها، أو إشباع هذا المرجل الأنثوى، ولا أعرف حتى الآن كيف تسربت أدق تفاصيل اللحيظات الحميمة جداً. حتى أن النساء صرن يتبادلنها عند أحاديثهن الصباحية فوق سلالم بيوتهن الداخلية، والرجال فى المقاهى، حتى العيال أثناء اللعب.

كيف عرف الجميع أنه ينتهى قبل أن يبدأ، إنها لم تعد تأخذه على محمل الجد، فما أن يقترب منها حتى تأتى من الحركات الساخرة ما يضاعف فتور همته وأنها عندما راحت مرة ترفس بساقيها تداعى فوقها، تطلع إليها دامعاً، قال منهنهاً:

«انت مش جدعة . . »

تنام مولية ظهرها له، فى الليل تنفث لهباً لا يقدر عبده على تهدئته أو إطفائه، حتى أكدت أم سهير الداية والتى تسكن تحتها مباشرة أن طقطقة الفراش لطول تقلبها وكثرته تقلقها ولا تدع سهير ابنتها اليتيمة تلميذة الثانوية العامة والتى تستعد لدخول الجامعة والحصول على الشهادة العالية، تأخذ نصيبها من النوم، غير أنها لم تتخذ خطوة تجاه جاراتها لاتخاذ موقف مما يجرى فوق، الأسباب عديدة، أولها: أى موقف سيجرى اتخاذه بالضبط؟ ، أى حجة ستقال؟ أى اعتراض؟ ثانيا: يبدو أن ثمة رغبة خفية فى متابعة ما يجرى، الفرجة بالتواطؤ، خاصة أن عبده صار يزداد انحناءً ونحولاً، ينزل السلم محاذياً، ملامساً الجدار، يعبر الدرب متقوساً، عيناه فى الأرض، لا يواجه أى إنسان بالنظر ولا يرد على ما يسمعه من تلقيحات، أحياناً واضحة حتى ليكاد المتكلم أن يخاطبه مباشرة. وفى مرة سكبت فريال ماءً فى الدرب فبللته، وقالت أم سهير إن هذا ليس صدفة، وإن البنت الفائرة لا تجد من يلمها. عطية شقيقته هى الوحيدة التى بدت غير مبالية، كأن الأمر يمت إلى شخص آخر، كأنه لا يعنيها فى شىء، وعندما تتهادى نازلة إليها بالجلباب الكاشف، الشاف عما يجب أن يداريه، تفتح الباب وتأخذها بالحضن، وتسألها عما تحتاج إليه . .

صباح . ربما العاشرة، أو الحادية عشرة، المؤكد قبل الظهر . ظهر ما فى يوم ما، أسبوع ما، سنة ما، ربما بين الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، ربما أقل، لكن المؤكد بعد الثالثة عشرة، بعد ظهور علامة البلوغ، وإدراكى مصدرا غير معتاد للذة غامضة، يعقبها ذلك السائل المهين، اليسير، وعيى الأتم بالتحول وكتمانى الأمر عن الأقربين، مؤكد أن ذلك الصباح تال وليس «قبل» .

أقف فى صالة البيت الضيقة مفرداً. أين ذهبت أمي؟ ، لابد أنها خرجت لتقضى حاجة ما، منذ عودتنا إلى الدرب، بعد انتقال دام عامين إلى الدرب الأصفر، لم نستطع الاستمرار لارتفاع الإيجار بالنسبة لمرتب أبى، عسرت أحوالنا فعدنا إلى بيت أم كوثر، شقة أضيق لكنها أرخص، أمامنا شقة عطية، كانت ممرضة فى الإسعاف، بعد اقترانها بمحمد تقاعدت، لزمت البيت، لكنها تحتفظ بحقنة وإبر، سرعان ما تضعها على النار إذا ما تلقت استدعاء إلى أى بيت فى الدرب، يدها خفيفة .

صباح متجه إلى الظهيرة، أقف متطلعاً إلى الباب كأنى أتوقعها، ربما أفكر فى انفرادى هنا، وانفرادها هناك، لا يمكننى اليقين، خاصة أن دقات قلبى هرعت فى إثر بعضها عندما طرق الباب، بالتأكيد فوجئت بها، تقف أمامى فى جلبابها المعلق إلى كتفيها بحمالتين، يكشف رواء كتفيها ومفرق ثدييها، قصير، ما تحت ركبتيها بقليل، الجلباب قريب من قميص النوم، عادى رؤية بعضهن من خلال النوافذ أو ينشرن الغسيل فى الشرفات وهن حاسرات، عادى كما

تخرج إحداهن ثديها لترضع طفلها على مشهد من المارة، ليس عريها ما استنفر كوامنى الغامضة، إنما ملامحها المتطلعة، الجريئة، المقتحمة، هكذا تبدو لى تلك اللحظة من هذا الصباح، تسأل عن شوية ملح، ثم قالت إنها ستطل على النار الموقدة، طلبت منى تجهيز الملح، لم أدخل إلى المطبخ، بقيت واقفاً وكأن انصرافها إلى حين فرصة لتهيؤى، لم أكن أدرى بالضبط ما يجب أن أفعله، كيف أتصرف. لم أكن أعرف شيئاً على الإطلاق، فكرت فى حسن صاحبى وكيف سيتصرف، أخبرنى أنه نام مع امرأة مطلقة تسكن ناحية الموسكى، قال إنها كانت بمفردها، إنها شرعت فى تقبيله، وأن النار سرت فى بدنه وروحه فلم يدر ما حدث، أزالت بكارته واعتاد التردد عليها فى مواقيت معلومة، رحت وجئت، هل أمضى إليها؟ لماذا عادت؟ أحقاً لتطلّ على النار؟ هل أوحت لى؟ لماذا تأخرت؟ أحقاً كانت تحتاج إلى الملح؟

فُتح الباب، لكن لم تدخل هى منه، إنما أبى، على غير عادته رجع مبكراً، لم أتوقع مجيئه قط، موعده ما بين الثالثة والرابعة، سألنى عن أمى؟ ، أجبته بكلمات ما. ثم استفسر عن تركى الباب مفتوحاً، هل أنتظر شخصا ما؟ يبدو أن شيئاً فى هيئتى أثار ريبته، لكنه لم يفكر فى الاحتمال الذى كان ممكنا حدوثه منذ لحيظات فى ذلك الصباح، والذى تلته صباحات عدة، تجاوزت فى مجموعها حوالى عشر سنوات قبل أن أعرف ما كان يجب أن أعرفه هذا الصباح.

منحوتة، ملامحها محددة، قادمة من بُعد سحيق، صلة العينين الوطيدة بالأنف، بالذقن، بالوجنتين، بما لا يمكن تحديده أو تعيينه تحيل إلى تمثال مصرى قديم لم يكتشف بعد، ما زال مخفياً فى حيزٍ ما.

هكذا تبدو سعدية فى صورتها الأولى، لها عندى صورتان، الأولى مؤطرة بفراغ الدكان الضيق الواقع تحت المسجد الذى نسبت إليه منطقة الجمالية، تحته مباشرة ثلاثة محلات، لا أدرى هى تمت إلى أصل البناء، أم أضيفت فيما بعد، فى أزمنة أخرى بعد رحيل جمال الدين الاستدار المنشئ. الدكان لمحمد بائع الصحف. قوى التركيب، مضغوط العنق، على ذقنه وشم دائرى، يرتدى جلباباً قصيراً، فوقه صديرى بلدى، كأنه فلاح يسعى إلى العمل فى غيط، وليس إلى حوارى وأزقة ودروب يزعق منادياً على الصحف، خاصة، الأهرام والمصرى. أرى قدميه قبل وجهه، مفلطحتين، أصابعهما طويلة، دائماً حاف، هل لصعوبة حصوله على حذاء مناسب للمقاس. أم لأن الحفاء كان منتشراً فى تلك الحقبة. أراه دائماً من الخلف، رافعاً رأسه إلى أعلى، منادياً بالطبع، يوم الجمعة صباحاً ينزل أبى إلى الدرب ليشترى منه المصرى الذى يقرأه على مهل.

فى البداية لم أكن أعرف من أين يجىء عم محمد بائع الجرائد؟، أترقب ظهوره أو سماع صوته المنادى، عندما بدأت أتجاوز الدرب، أخرج إلى شارع الجمالية بمفردى، أتجه شمالاً، رأيته فى الدكان المنخفض عن مستوى الطريق، الكائن فى مواجهة بائع الفول

والطعمية، وعتريس تاجر الفحم، وعباس مكوجى الرجْل، فى البداية رأيت امرأة شابة ترتدى السواد، ضيقة العينينَ، طويلة الصمت، زوجة عم محمد، تقف خلف الفاترينة الصغيرة القصيرة، فوقها أوان زجاجية مستديرة بها أنواع من الحلوى الرخيصة، داخلها علب سجَّائر، معظمها مقفول، واحدة أو اثنتين، تبيع منها بالسيجارة المفردة «فرط» أو بالعلبة، الدكان مساحته صغيرة محدودة، عمقه معتم، لم أستطع رؤية ما يحتويه حتى عند الوقوف أمامه ومخاطبة عم محمد، أو زوجته، لابد أنه جاء بمفرده أولاً ومارس مهناً مختلفة حتى استقر به الحال موزعاً للصحف فى الجمالية، والحقيقة أنه لم يستمر، لا أدرى ما جرى له فى مرحلة متقدمة، خلال الستينيات، أى بعد أن عرفته لأول مرة واعتدت نداءاته على الصحف بحوالى خمسة عشر عاماً، فوجئت به يعمل فى فرن الحاج ناصيف الذى يتوسط الدرب، يحمل الطاولات التى ترص فوقها أقراص العجين أو الخبز الناضج بعد تسويته، يمضى به إلى البيوت هنا وهناك. عم محمد دائماً يمضى عندى من هنا إلى هناك. إما موزعاً للصحف، أو آتياً بالعجين إلى الفرن، ذاهباً إلى البيوت بالأرغفة، لماذا ترك الصحف والدكان الذى استقر به ساعاتى، بدّل الفاترينة بأخرى مستطيلة، لم أتعامل معه فلم يكن لديّ ساعة أصلحها حتى ذلك الحين، يقع عليه بصرى عند عبورى إلى سينما الفتح بشارع الخيامية، أو عودتى من باب النصر، دائماً ينحنى يصلح ساعة ما. ولكن ما أدهشنى أنه يقوم بعمله الدقيق فى عتمة الدكان الذى لم يكن ممكناً إلا رؤية الواقف عند مدخله، بالتحديد الوجه والعنق والصدر، أما بقية الحضور الجسدى فيندمج

فى ظلمة المكان الضيق والتى تبدو قائمة بذاتها، لا تتأثر بضوء النهار أو مصابيح ما بعد الغروب. من هذا الإطار يطل وجهها كما رأيته أول مرة، تنظر جهة شارع الجمالية شمالاً أو شارع حبس الرحبة يمينًا. فى الحالتين بالجنب. لذلك يطالعنى جانب وجهها دائماً. الوضع نفسه الذى اعتاد الفنان المصرى القديم أن يرسم به وجوه الآلهة والملوك والنبلاء، حتى وضع عينها يشبه ذلك الانحدار القليل وكأنها المركز الأوحد.

سعدية..

يمت إليها عم محمد، الدكان، أختها الصامتة، مسجد جمال الدين الاستادار، الدكاكين المواجهة، رائحة قَلْى الطعمية، ولون الفحم الأسود المطل من أجولة مختلفة أحجامها، توقع الوصول إلى الناصية التى يمكن منها رؤية وكالة بازرعة، وسبيل أوده باشا عند مدخل حارة الميضئة، درجات الضوء عبر أويقات النهار. كافة تلك المفردات التى رسا بعضها عندى دون التعرف عليها إلا فى أزمنة متأخرة، خاصة المبانى القديمة، كل هذا يدور حولها، فى فلكها، تلك الوقفة التى تجعلنى أتمهل عند المرور أمامها، وثمة وشائج غامضة تصلنى بها، أمام الرغبة فى إطالة النظر والتملى فلم تشبع قط، حاولت عند مواجهة ما يمكن أن يذكرنى بها، أو يستدعيها إليّ بدءاً من المرور أمام الدكان الذى يرف قلبى مبدلاً نبضه كلما رأيت تغيراً جرى عليه. من ساعاتى إلى خباز إلى طرشجى إلى إغلاق منذ سنوات لا أدرى ما سيكون بعده. أو عند رؤية وجه يتخذ وضعًا جانبياً مثلها. لم أتوقف أمام أى لوحة تصوِّر وجها خلال هذا

الوضع . فى متحف . فى معرض . فى كتاب ، إلا واستعدتها رغم فوات الوقت ، أما الهزة التى اعترتنى ودامت توابعها مدة ، فعند دخولى مقصورة الإله أوزير فى معبد سيتى الأول بالعرابة المدفونة ، عندما خطوت داخله أول مرة ومشيت الهوينا فى فراغه الذى كان يوماً مقدساً .

ما الصلة بين الحفر البارز الذى يصور إيزيس ، الإلهة الأم ، العتيقة ، الغاربة ، وسعدية شقيقة بائع الصحف الجوّال دائماً؟

لا أدرى ، لكنه ذلك الوضع الجانبى ، تلك الأصداء المترددة فى التوالى الإنسانى ، لم أر سعدية إلا متطلعة ، تلمس ذقنها ، يدها مرتكزة ، راحلة بالفكر إلى حيث لا أعرف ، عند اقترابى من الدكان أبطئ خطوى ، مرة أو مرتين اشتريت منها ، صوتها مليح ، عريض ، تتعلق به بحة ، تعرف أبى :

«أهلا بابن الرجل الطيب . . »

لم أقل لفظاً ، كنت فى زمن الخشية والخجل ، كنت أتهجى مفرداتها إذ أقف أمامها بحجة شراء شىء ما . وعبر مراحلى التالية لانتقالى من الجمالية ، مع طول سعيى فى الحياة الدنيا ، وتنقلى ، كنت أستعيدها وأجد فيها ما لم ألقه وقت وقوع بصرى عليها ، كأن صلتى بها تشب وتنمو عبر المخيلة رغم نأيها واغترابى عنها ، حتى عند وقوفها الجانبى الصامت ، المحدق إلى المجهول لم تكن إلا صورة ، ولا فرق عندى بين ما أطالعه فى الحين ، وما أستعيده بالمخيلة . غير أننى بعد سنوات طوال ، ربما عشر ، ربما خمسة عشر ، رأيتها مرتين .

تعبر ميدان التحرير، خطواتها سريعة، بل مهرولة، كأنها تود اللحاق بأمر ما، أو تهرب من شيء غامض، لم تكن ترتدى الطرحة السوداء، كانت فى جلبابها الريفى الأسود، لكنها سافرة، شعرها هائش، وجهها متعب، قوامها مشرع، سامق كما اعتدته، لكن وجهها مولٍّ شطر وجهة خفية، لم تمر إنما مرقت، كانت تعبر الإشارة، وكنت فى داخل عربة صاحب لى، ولولا تمكنى من وجهها الجانبى لطالنى الشك وتمكن منى.

المرة الثانية والأخيرة، واجهتها، تحدثت إليها وتحدثت إلىّ، عرفتها ولم تعرفنى، عندما مضيت بصحبة حسن أقدم صحبى حتى وقت تدوينى هذا، زميل دراستى الابتدائية، الخبير بالنساء، كثير الجولات والغزوات. قصدنا عمارة مطلة على المتحف المصرى، راسخة، قديمة، قوية المدخل، فى طابق منها، فى شقة لا أعرف رقمها الآن ولا يمكننى تعيينها أو تحديدها أو ذكر رقمها، يقيم أصدقاء أجانب له، استأجروا الشقة مفروشة، قصد تقديمى إليهم، وتعرفى إليهم، عندما فُتح الباب حرصت ألا تتبدل ملامحى، وألا يلوح أثر الرجة التى سرت عندى.

هى.. سعدية، كأنها لم تبدل رداءها الريفى الأسود، كأن القادمين لا يعنيها أمرهم، ما من أدنى فضول عندها. جاء أحدهم من الداخل، تهلل عندما رأى حسن، صافحنى بمودة، كانت تقف مولية جانب وجهها الأيسر إلينا، خاطبها قائلاً:

«يا مشيرة.. شوفى البهوات يشربوا إيه؟»

وكنت أكلمها بالصمت بادئاً حديثى باسمها الأول، متسائلاً بالشجى الأعتى عما أوصلها إلى تلك اللحظة، وهذا الموضع؟

هـروب

في حـوارهمـا الليلى الهـادئ، تفـضى أمى بما وصلهـا من أخـبـار الحـارة إلى أبى. من راح، من جـاء، من تشـاجـرت مع من؟ من باع ومن اشترى، فجأة انخفض صوتها إلى ما يشبه الهمس:

«عطية هربت»

«هربت. . مع من؟»

«مع الرجل الذى دخل وراء أم سعد الدلالة. .»

عطية الفارهة، البضة، التى لم أرها ترتدى الجلباب إلا على لحم جسدها مباشرة مفصحة عن كافة تضاريسها، استعدت وقفتها فى الشرفة، خروجها متحدية، متطلعة شزراً إلى الرجل الذى لن أنسى وقفته المستنفرة، غير العابئة، يطق بالرغبة، كيف تحقق الوصل بينهما، كيف فارقت بيتها.

«يظهر أن زوجها لم يملأ عينها. تماماً مثل أخيها الذى خاب مع امرأته».

عطية، فى مكان ما الآن مع الرجل المجهول، الجرىء، الذى تعقب أم سعد.

«سبحان الله العلى العظيم . . »

أم خيرية

ما بين درب الطبلاوى وحارة الصالحية مسافة، قدر ما تبدو قصيرة الآن بقدر ماكانت طويلة، تكمن عبرها المخاطر عندما طلبت منى الذهاب إلى الربع الذى تسكنه، القائم على ناصية الحارة، أخبرها برغبة أمى فى حضورها لتفصيل قطعتين من القماش. الشتاء يقترب والبرد سينزل فجأة، أعرف مكانهما فى الصوان الصغير الذى اشتراه الوالد من تاجر الأثاث المستعمل الحاج فؤاد بشارع أمير الجيوش، ينطقه الناس، «مرجوش» ، من الكستور، حتى الآن لا أعرف المعنى، لكنه أكثر سُمكاً، له وبر خفيف أشبه بالزغب، يعنى اجتيازى المسافة وقتئذ الخروج من دربنا المسدود، الذى لا يفضى إلى آخر أو إلى حارة أو زقاق، لا يدخله إلا من يقيم فيه أو من يمت إليه بصلة، عند ناصية المخرج مسجد سيدى مرزوق الأحمدى، بابه المؤدى إلى القبة يطل على بداية شارع قصر الشوق، الخروج إليه يعنى بداية المجهول، التماس مع الخطر، الشارع يفضى إلى آخر، إلى ميدان الحسين، إلى الأزهر حيث الترامواى، والمتاجر الكبرى، منها داود عدس وبنزايون، من الأول كان الوالد يأتى بكسوة الشتاء، والصيف، أدخل صاحب المتجر نظاماً يُعرف بالاستمارة، أى البيع بالتقسيط للموظفين بضمان المرتب، كان الوالد يعد استمارة

للصيف، وأخرى للشتاء، داود عدس ظل اسما وعنوانا لسلسلة من المتاجر الكبرى، إلى أن قابلت ابنه فى باريس، كان مالكاً للفندق الذى استضافتنى فيه مؤسسة معنية بالشأن ولهذا موضعه.

داود عدس، الكستور، ما بين الدرب والحارة، يؤدى هذا إلى أم خيرية، إلى مكان بعينه، غرفة فى الربع. مبنى يحتل مساحة مربعة، له عدة مداخل، وصفت لى أمى أنه المواجه لباب فندق الكلوب المصرى الجانبى المغلق دائمًا، فى الطابق الثانى، لابد أن أسأل، إنها معروفة، زبائنها كثيرون.

مدخل الربع ضيق، سلم بدون حاجز ينثنى فجأة بعد عشر درجات تقريباً، عدة انحناءات تؤدى إلى أول غرفة مسكونة، لدخول الربع وللنفاذ إلى أقسامه الداخلية لابد من المرور عبرها، لا يعرف أحد هل صممت هكذا لتكون مقر إقامة تلك السيدة العجوز الضريرة، التى تجلس متربعة عند مدخلها، تتلقى ما يتصدق به العابرون، لا تفارق مكانها حتى ليتساءل البعض متى تقضى حاجتها؟ متى تبدل ملابسها إذا كانت تغيرها، كافة محتويات الغرفة واضحة للقريب والبعيد، تؤدى إلى ممر طويل تصطف على جانبيه حجرات تتفاوت أحجامها، منها الضيق ومنها الفسيح، بل عرفت فيما تلى ذلك العمر إحداها تتكون من غرفتين فوق بعضهما، أى من طابقين، كانت تسكنها عائلة زميل لى فى مدرسة عبد الرحمن كتخدا، وسمعت عن أبواب تؤدى إلى مساكن فسيحة، منها ما يضم أعداداً لا يمكن حصرها من الغرف والممرات السلالم المؤدية، بل تنبت أيضا أشجار مختلفة أنواعها فى فراغات تشبه الحدائق. ثمة زهور

وشجيرات حناء وتمر هندى وريحان، سمعت من يقول إنه لا يوجد فى الجمالية كلها أو المحافظة من يعرف على وجه الدقة ما يضمه ربع الصالحية. يُقال إن علماء أزهر مشاهير أقاموا فيه، فضلوه لقربه ورخص إيجاراته. سكنوه عند قدومهم لتلقى العلم من قراهم وبلدانهم البعيدة، بعضهم من مصر والآخرون من أقطار شتى، المعروف، الذائع أنهم يستكينون إليه فى المراحل الأولى، وعندما يتمون الدرس ويتحولون من طلبة إلى أساتذة فى الأزهر، أو يدرسون العلوم فى مساجد أخرى ينتقلون إلى منازل مستقلة، فسيحة، مغلقة على أصحابها، ما بينها وبين البيوت المجاورة أسوار عالية. عكس الربع الذى يقيم فيه الفقير إلى جوار الثرى، التاجر والعالم ومجهول النسب، لا يهم أن يعرف الناس بعضهم بعضاً، ولابد أن يمر الجميع بهذه الغرفة التى لا يغلق بابها المؤدى إلى باب آخر، ممر، الربع يضم أيضاً مصانع صغيرة للحرف اليدوية، صناعة الحقائب الجلدية والبُلغ المزينة بنقوش ذهبية، علب الصدف المطعمة والأطباق مختلفة الأحجام المنقوشة بطرز عربية وأخرى فرعونية، يوجد أيضاً بعض المشاهير من صياغ الفضة والذهب، فى طريقى إلى أم خيرية كنت أمر بأحدهم، عجوز، قصير القامة، ينحنى دائماً على آلات صغيرة يدوية، يلتصق بإحدى عينيه منظار أسود مكبر، كثيراً ما سألت نفسى عما يمكن أن يراه من خلاله، لم يكن لغرفته باب، لهذا رأيته، غير أننى لم أتوقف قط لأرضى فضولى، أستمر قاصداً غرفة أم خيرية مقللاً الاستفسار بقدر الإمكان، مهتدياً باسمها وكأنه يتضمن شيئاً ما دالاً. يجذب ويرشد الساعين إليها، لا أسأل رغم عسر الممرات المؤدية إليها، والغرف المتداخلة، ويقينى أن تلك

الدروب المفضية تتغير مع كل مرة أجيء فيها إلى الربع ناقلاً رسائل أمى، لم أستفسر إلا فى المرة الأولى، المرات التالية أكاد أغمض عينى، لا أتطلع إلى أحد، أمشى قاصداً أم خيرية وأصل بالفعل، لم أضل، سمعت من يقول إن البعض تاه فى «الربع»، دخله وفقد طريقه، لم يعرف أحد لهؤلاء أثراً، بعضهم يلوذ بالمكان ولا يفارقه، أخشى التطلع إليهم، النظر إلى الغرباء، خاصة عند خروجى من الدرب، فى الذاكرة التى لم يكن رصيدها من التفاصيل والرؤى المعاينة غزيراً حكايات عن أطفال ابتعدوا عن مقار إقاماتهم ولم يرجعوا إلى أسرهم.

«أوعى حد يقول لك تعال أوديك لأبوك..»

أقصى ما أخشاه الانفصال القسرى عن الأهل، الخطف، تحذيرات عديدة ترسبت، رسخت، التفاصيل المفزعة عن المخطوفين. تعذيبهم، ترويضهم، تطويعهم إلى الدرجة التى ينسون فيها الأهل والجيران. يُطلقون إلى الحافلات والتراموای للنشل، أو لبيع علب الكبريت، والأدوات الصغيرة، مثل الأمشاط ومشابك الغسيل، والحلوى الرخيصة، الخشية من الفصل القسرى ظل هاجسى إلى أن جرى ذلك فجراً فيما تلى ذلك من سنوات لكن فى ظروف مغايرة تماماً، ولهذا موضعه من نثار ما تبقى.

إذ أصل إلى غرفة أم خيرية تنزل علىّ سكينة، ليس لسلامة وصولى ونطقى بما أوصتنى به أمى، لكن لهدوء المكان وجمال ترحيبها، وما غمض علىّ من أسباب تصل ما بينى وبينها، مجرد فتحها الباب أطالعها بجسدها الشاهق، شعرها الغزير بدون منديل أو

عصابة، يتدلى منحدراً على ظهرها، بعض جدائله إلى الأمام، جلباب البيت قصير، بلا أكمام، منحنيا كتفيها المنزلقان في رحابة سخية.

تطل عليّ من أعلى، عيناها ماثلتان بسوادهما العميق. باستدارتهما، عمقهما، تتدفقان بما استعصى عليّ تفسيره وقت مطالعتي وإن فسرت فيما بعد، أم خيرية تعني هاتين العينين النافذتين، المكحولتين، المطلتين على داخلها العميق بقدر ما تبدوان للناظرين.

لم أر خيرية قط، بل لم أعرف إذا كانت تسعى فعلاً أم أنها مجرد اسم مضاف إلى الأم ليناديها الناس به. في الحارة تعرف الأنثى باسم الابن أو البنت، يظل اسمها مخفياً خاصة بعد الزواج والإنجاب، قليلات أولئك اللواتي عرفتهن بأسمائهن مباشرة.

لم أر خيرية إنما رأيت ابنها، يماثلها طولاً وفراهة وامتلاءً، أبيض البشرة، أراه مرتدياً حلة كاملة، يجتاز باب غرفتها، أنيق، رغم أنني لم أعرف له اسماً في ثنايا ذاكرتي لكنني منحته اسماً، كثيراً ما أسمي بعض من أجهلهم، ومن لا أعرفهم.

«طلعت ابني..»

هل نطقت باسمه لتعرفني به؟

مرة واحدة رأيته عندها، أين يقيم؟ لماذا لم أره مرة أخرى؟ لقلة ترددي أم لندرة مجيئه؟ هل طلعت ابنها فعلاً؟

أحياناً يخيل إليّ أنه يصعد درجاً في الربع، أو في مكان آخر،

كامل الهندام، فيما عدا ذلك لا يفد عليّ ولا يطل، أما هى فتشرف من كافة الضواحى، من وقوفها السخى بالباب، من انحنائها أمامى وسفور كافة الاستدارات، الظاهرة والمكنونة، والمفارق المؤدية، ما بين النهدين، ما بين الردفين، كافة المابين، تلك الدقائق المثيرة لفضولى، الحاضة على تحديقى، شفيعى صغر سنى، ولا مبالاتها فى حركتها عبر الحيز الضيق الذى لا يوجد فيه إلا سرير عريض، وماكينة خياطة سوداء، عليها علامة . . . من قراءتها فيما بعد بالإنجليزية، عندما رأيتها مرسومة على محل بشارع الأزهر، عند الناصية المؤدية إلى سوق الحمزاوى «سينجر» اسم ماكينة الخياطة التى طالما تطلعت إليها أثناء جلوس أم خيرية إليها وانحنائها اللافت، وكثيراً ما كانت تباغتنى بالنظر، تبتسم فتتلألا عيناها بمعنى خافت يسرى إلىّ سريان الحليب الدافئ، تفيض أم خيرية على المكان وعلىّ، تمس حواسى كافة، تؤقلمها مع الدنيا، مع المطلوب معرفته.

لها حد عندى، لا تبدو بعده، لحظة موضعها غرفتنا، حوار حاد مع أمى، خلاف ما، أم خيرية ملفوفة بالملاءة السوداء، على وجهها اليشمك والاسطوانة الذهبية الموازية للأنف، تتلخص فى عينيها المسفرتين، الموكلتين عن الحواس كافة، أصبحتا مرجعيتى فى كافة ما عرض لى من إناث ذوات نظرات مبثوثة، أستعيدها، تطل علىّ من حيث لا يمكننى بلوغ الغاية أو المرام، لكن ما يحيرنى غضبها البادى، وانصرافها بخشونة، وقوف أمى الصامت تودع بدون أسف هذا المهرجان الأنثوى.

عريس وعروسة

إمبابة، الكيت كات، شارع ما، درب ما، منزل مجهول الطوابق عندى، صالة فيه، ثلاجة ايديال مرفوعة فوق قاعدة خشبية، تواجه المدخل، كنبة عريضة، أصحب زميلى نبيل محروس حسين، نزور مدرساً من معارفه لغرض ما، يخرج علينا بعد أن دعانا إلى الدخول وتركنا بمفردنا لمدة دقيقتين أو ثلاث، عاد مبتسماً، قال نبيل قبل صعودنا إنه متزوج منذ أسبوعين.

تتحرك الشفاه، تتماس النظرات، حوار ما، أشارك فيه بكلمات، عينا المدرس واسعتان، فيهما راحة وارتياح، تظهر عروسه، يخفق قلبى وأبذل الجهد لأدارى وأخفى رجتى لرؤياها، كأن ليلى مراد خرجت من عرض سينمائى لتسعى أمامى بابتسامتها الرقراقة ولألأة عينيها ونبل حضورها.

تضع صينية فوق منضدة وسط الغرفة، مشروب ما، شاى، قهوة، كركديه، حلبة، شربات.. لا أعرف رغم أننى رشفته واستقر عندى غير أن ما طغى حضورها. جلست إلى جواره، يتطلع صوبنا بعينيه الواسعتين، مدركاً جمالها. فخوراً، تياها بها وكان علىّ أن أخفى حتى عن نبيل صاحبى، أن أقمع زلزلتى بجمالها وإظهارى حسن الأدب فى حضرة العريس والعروس...

نجوى

يتأهب أبى وأمى لاستقبال خالى الذى سيصل من البلدة بعد أيام، يلبى ما تطلبه أمى، يؤكد لها أنه لن يغضبها مرة أخرى، أن تسامحه، الضيق وقصر اليد هما ما يدفعانه إلى تلك اللحظات التى لا يرغب استعادتها.

تذكره أمى بتهديداته أن يبعث بها إلى أخيها.

يؤكد أنه لم يقصد، وأن ساعة الغضب تدفع الإنسان إلى قول ما لا يريد النطق به.

تقول إن ما ترغبه هدوء السر بينهما.

يؤكد لها أن ما فات مات، المهم أن يقضى محمد أيامه فى هدوء، ثم يؤكد أنه تحدث إلى الدكتور المفتى عندما صلى الفجر أمس فى مسجد مولانا الحسين، وأنهما سيذهبان إليه فى عيادته بشارع فؤاد ليكشف على أنفه ويكتب له العلاج اللازم.

أصغى إلى حوارهما الذى يتحول إلى همس خافت، تقوى علىّ رائحة خالى، الصوف والقمح والذرة العويجة والعيش الشمسى والملوخية الناشفة والحمام المحشو بالفريك المرصوص فوق البلح وسائر ما تحويه القفة المجدولة من خوص النخيل والمغطاة بقماش ثوب قديم، أغفو.

خالى طويل الصمت، عمامته من اللباد بنى اللون، حول عنقه شال من الصوف المغزول المنسوج فى جهينة، يلف به عنقه صيفاً

وشتاءً. سمعت من يقول إن ما يحوش البرد يمنع الشرد.

شروق

لا أعرف الساعة ، ستائر الغرفة سميكة تحجب الضوء تماماً، كما أننى لم أصحب المذياع الصغير، أثبت المؤشر على الإذاعة البريطانية، منها أعرف التوقيت المصاحب لرنين ساعة جرينتش، كونى الصدى، لم أمض إلا سويعات فى تلك الاستراحة التى وصلتها ليلاً، أخرج إلى الصالة، أسعى إلى اللحظة المؤجلة، كان من المفروض أن أقدم على ما اعتدت عليه فور دخولى، أن أفتح مصراعى الشرفة، أطل على ما أراه خلالها لأول مرة، ماقد أعود إليه أو ربما لن أبلغه، كنت متعباً فسعيت إلى النوم، أخرج إلى تمام الضوء، أفاجأ ببدء الانصهار.

ضوء ساطع فى مواجهتى، بؤرى، مشع إلى كافة النواحى، يلغى ما عداه، يذيبه، يوحده بنقيضه. هكذا احتوى صخور الجبل، النخيل، الشجر، النبات، الضفتين، يطل المبنى على النهر، مجرى عريض هنا، قديم، راسخ. مرتفعات صخرية، تحتها النخيل على الضفة الشرقية، إذا كان قرص الشمس مازال يُطل فمن أين هذا النهار الجنوبى الساطع؟

كم دام ذلك؟ كم استمر هذا الشروق؟

لا يمكننى التحديد. لكن ذلك السطوع مازال يتردد عندى، وربما تجاوزنى إلى ما بعدى.

قتيل

شارع الغورية ساعة العصارى، قادم من ناحية باب زويلة إلى شارع الأزهر، الأقمشة المعروضة مهرجان من الألوان، تافتاه، أورجنزا، باتيستا، رمش العين، دمور، دبلان، بفتة، صوف، دكان الطرابيش، معدات الفرد والكى النحاسية، بعده أجزخانة رقية، منها اشترى أبى الدواء لشقيقى قبل رحيله، لا أمشى أمامها إلا وأذكره. مدخل المغربلين، خوش قدم، بائع العصير، الممرات المؤدية إلى محلات الأحذية فى الفحامين أرخص، أكداس البضاعة، قالت أمى إنه يمكن تجهيز العروس بكل ما تحتاج إليه من الغورية. قرب شارع الأزهر، ما بين مسجد الغورى وقبته، ما بين الملاءات اللف المحبوكة حول الأجساد الفائرة أو الهرمة، والجلابيب، والقمصان والبنطلونات الساعية حول أصحابها، يندفع ذلك الصبى، ربما فى الثامنة أو التاسعة، يجرى. . يجرى مندفعاً كأنه فى ملعب مفتوح رغم الزحام، قادم من موضع ما. مكان ما إلى ما بين عجلتى الحافلة الضخمة، سقط بالضبط بينهما ودارت الخلفية بالضبط فوق رأسه، أكف بغتة، كأننى أصغى إلى وصف، كأننى أرى مشهداً مصوراً، قريبا جداً من الجسد الصغير الذى لم يعد متصلاً، أعجب من كيفية التسديد!

الأمير

سامية البيضاء، أولاد سامية، زوج سامية، إنها أنصع نساء الحارة بياضاً، وإن كانت أم سهير الضخمة ترى فيها ما يشبه الجير، بارداً، ولا تدرى السبب الذى يجعل منخارها مرتفعاً، لا تعير اهتماما بأحد، ولا تجامل فى ميلاد أو موت، زوجها جزار من عائلة الفص، من أحد الفروع المتصلة بها، زوجها أبيض أيضاً، فاحم الشعر ناعمه، متسق الجلباب، مخيال فى مشيه، يعبر الدرب كأنه يطأ الأرض بأطراف أصابعه، غير أنه بعكس زوجته، عشرى، يومئ لهذا ويحيى تلك، لم يعرف عنه العيب.

سامية البيضاء تمثل عندى بطلتها ساعة العصر، تبدو من النافذة محدقة إلى الأمام وأحياناً تهم فتطول رقبتها لتدقق شيئاً ما بالنظر ثم تعود إلى الداخل، أعرفها بما يُروى عنها، أدق أخبار الأميرة فريال عندها، أى خبر عنها تقصه، تلصقه، أى صورة تحيطها بإطار إن كانت كبيرة أو تضعها فى دفتر مخصوص إن كانت صغيرة، تطلب من زوجها أن يتقصى أحوالها، إنه حريص على الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية، خاصة البى بى سى بالعربية، مذيع النشرة عنده خنفة، لكنه يؤكد لها ويقسم كل ليلة أنه لم يصغ إلى شىء يخص الأميرة، عندئذ تصيح منبهة، محذرة:

«سمو الأميرة . . »

لا يمكنه ولا يمكن لأى من أبنائها الثلاثة النطق باسمها مجرداً، أو لقبها بدون كلمة سمو، عندما علمت بسفرها إلى الخارج طلبت من ابنها مسعد أن يكتب لها رسالة تتمنى فيها عودتها بالسلامة، وعندما عادت بسلامة الله وحفظه، أملت عليه أخرى تهنئها بسلامة الوصول، تبكى غيظاً وتبدى حسرة قوية لأنها لم تتعلم القراءة والكتابة، أما زوجها فلم يفتح الله عليه إلا بالتوقيع، التوقيع بحروف كبيرة يخطها على مهل. بتأن، بحذر، فتوقيع خاطئ يمكن أن يلحق به أذًى وهو الأمين، المسالم الَّذى لم يُستدع إلى قسم شرطة يوماً ولم يتأخر عن دفع ضريبة. لو أنها تعلمت لكتبت إلى سموها مباشرة، لبدأت بينهما صلة مباشرة، لزارتها فى قصر عابدين، ولردت الزيارة، الأميرة فريال فى الدرب، مرة تجىء بملابس الحركة الكشفية ومرة فى ملابس ممرضة، ملاك رحمة كما تطلق عليهن المجلات الأسبوعية والصحف اليومية، مرة فى ملابس بحار، تأوى إلى ركن بيتها بعد قضاء الحاجة والانتهاء من الكنس والتنظيف وإعداد ما ستطبخه حتى لا يرجع الرجل فلا يجد ما يأكله، تراها قادمة نحوها، موكبها يدخل الدرب، الجارات مطلات، الرجال يسترقون النظر بحذر، لا يصح أن تستقبلها فى الطابق الثانى حيث تقيم، سترتدى فستاناً مخصوصاً لتلك المناسبة، تنزل إلى مدخل البيت، لا . . إلى أول الدرب، هكذا يُتاح لجميع الجيران رؤيتهما معاً، سيعرفون قدرها، ترى ردود الأفعال عندهم، ما سينزل عليهم، الصمت، البهت، بالطبع لن تجىء سموها بمفردها. بل سيتقدمها من ينظف الدرب ويدارى عيوبه، من يتأكد من خلوه من أصحاب السوابق

والشحاذين، ربما تُعلق أعلامٌ وزيناتٌ. ستمشى إلى يسارها. تبتسم لما تقوله، تومئ على مهل، عند الاقتراب من البيت.

«تفضلى سموك. . تفضلى»

تعرف تصرفات الأكابر من خلال رؤيتها للأفلام التى شاهدتها مع زوجها فى سينما الفتح الصيفى، وسينما مصر البعيدة نسبياً، تتقدم بخطى سراج منير ونظرات ميمى شكيب، سيؤرخ الدرب بما قبل وما بعد.

لكم استعادت الترتيبات، لكم بدّلت وغيرت، وعندما قرأت مرضها، أصابتها بوعكة صحية، دققت فى استجواب زوجها، أى مرض بالضبط، أقسم لها أنه لا يعرف، لم تجر العادة على إعلان تفاصيل وأعراض أمراض الأسرة المالكة، لم تقتنع، دست يدها فى صدرها، أخرجت جنيهين ادخرتهما من مصروف البيت، طلبت منه أن يذهب إلى قصر عابدين، أن يدسهما فى يد أى ضابط أو جندى من رجال الحرس، أن يعرف منهم طبيعة المرض وحدوده حتى تقوم بالواجب.

تطلع إليها صامتاً، بدت مهمومة، حزينة كأن أحد أقاربها الأعزاء على وشك الموت. تابعته عند خروجه. ظلت مطلة من النافذة حتى عودته، لم تعد العشاء للأولاد، وعندما لمحت الرجل هرعت إلى الباب، بمجرد رؤيته صاحت مستفسرة:

«اطمئنى. . شوية حرارة. .»

خلال دقائق معدودات، سرى احمرار إلى لونها الأبيض، عندما

لامس جبهتها بيده أدركه فزع، كأنه الجمر تحتها، جرى إلى الحنفية، بلل قماشة، سارع إلى وضعها متمتما باسم الله العلى العظيم كى يخفف عنها رجفة الحمى . .

قتيل

تساءلت أمى :

«مالك يا أحمد؟ »

عندما تنطق اسمه فهذا عين الحنو، وذروة إبداء القلق، عندئذ لابد أن ينطق، حتى بالصعب .

«الشيخ محمد . . تعيشى انت . . »

«محمد حسنين؟ »

«نعم . . هرسته عربة نقل . . »

مات مزنوقاً ما بين العربة وجدار المسجد الذى قصده لتأدية صلاة الفجر، أى أنه مات شهيداً، أصغى من مرقدى إلى حزنهما ورثائهما للرجل الصالح، أرى الرجل الممتلئ قليلاً ملتحفاً بالجبة والقفطان، حول خصره حزام عريض من حرير، فوق رأسه عمامة حمراء محاطة بشال أبيض . زى أهل الأزهر وخدمة العلم، أمر عبره إلى البيت القديم، الفناء الذى تتوسطه فسقية قديمة، مغمورة بضوء هادئ

رطب، ظل ظليل فـلا بد أنه الشتـاء، النوافـذ المغطاة بالخـشب المخروط، الصالة الفسيحة والغرفة الداخلية المسورة بالكتب، كتب، كتب مجلدة، بعد الغداء أتسحب لأتأملها، العناوين مكتوبة بحروف مذهبة قرب المنتصف، تحت اسم الشيخ، البيان والتبيين، السيل الجرار، افتتاح الدعوة، تفسير المراغى، كتب بالطول، أخرى فوقها بالعرض، أشعر أن ثمة من يرقبنى، ألتفت، أطرق خجلاً، لا أعرف متى دخل إلى الحجرة وتربع فوق الكنبة، يتطلع إليّ هادئاً، حانياً، مشجعاً، عندما يلحظ خشيتى يسألنى:

«تعجبك الكتب..»

هيئته، قعدته ماثلة، أما ملامحه فغائبة، لا أقدر على الإمساك بها، لكن الوقت، مكان البيت يجتازان بى ما لا أعرفه إلى ميدان القلعة، منظومة المساجد العتيقة التى تراكمت معارفى حولها درجة، درجة، مسجد محمد على أعلى، فى الميدان المحمودية، قانى باى الرماح، فى المواجهة السلطان حسن، الرفاعى، مرجعية هذا كله عندى لحظة لا يمكننى تعيينها أعبر خلالها الميدان إلى بيت الشيخ محمد حسنين بصحبة أبى وأمى وأشقائى، أعبره مع صحبى، أعبره وحيداً، أروح فيه، أعود إليه، أجتازه ولا أتوقف، لكن فى كافة الأحوال ألتفت فجأة فتطالعنى تلك البصة وذاك الحنو الغارب.

بيوت

تُعرف بيوت الدرب بأسماء ملاكها أو زوجاتهم، مثل بيت أم كوثر، وأم صبرى، وأم نبيل، وربما يُنسب العقار إلى أشهر من أقام أو يقيم به. ومن ذلك بيت الحاج ناصيف الفران، معروف أن مالكه يحيى ابن البرين تاجر الدقيق النوبى ناحية أم الغلام، وقد تكون النسبة إلى من سكن يوماً واكتمل رحيله، من هؤلاء الشيخ على الجرجاوى الذى قضى محترقاً بعد انفجار موقد الجاز فيه أثناء استحمامه فى شقته التى كان يعيش بها وحيداً، كان أعزب لم يتزوج، لم يختلط بأحد، عثروا عنده على علب صفيح كبيرة الحجم مما يعبأ فيها المسلى البلدى ماركة الميزان ناحية بين السورين، مليئة بقطع العملة الفضية فئة القرشين مسدسة الشكل والمرسوم عليها صورة الملك فاروق شاباً فترة توليه العرش، عُرفت بين الناس بستين فضة، وكانت قيمتها وقت صكها قرشين صاغ، الآن وقت هذا التدوين ألفين وستمائة قرش، كل قطعة من الفضة النقية عيار ثمانون جراماً، نُقلت الصفائح إلى جهة غير معلومة وبقيت أخبارها متناقلة بين الناس، عُرف البيت باسم الشيخ قبل احتراقه، كان محاميا شرعياً يستأجر الشقَة التى تحتل طابقاً كاملاً، لكن صاحب البيت غير معروف، مجهول تماماً، ولم يُكلف أحد خاطره من السكان بالسؤال عنه، المقيمون يسددون الإيجار لسيدة متقدمة العمر، تجىء كل ثلاثة شهور، صامتة، لا تتحدث إلى أحد، تقف متطلعة، تدس يدها فى

صدرها، تخرج إيصالاً تسلمه بعد تحصيلها النقود.

بيوت أخرى بلا أسماء، ربما يخشى السكان النطق بأصحابها، مثل بيت أم علية التى تقول الشائعات أنها تواطأت مع زوجها لقتل ابنتها بعد اغتصابها وظهور علامات الحمل عليها، عندما أوشك أمرها على الظهور، يشير إليه الجيران بكلمات غامضة مثل «البيت دا. .» أو «البيت اللى هناك. .» فإذا ألح السائل يُقال له «بيت اللى ماتتسماش. .»

واجهات

تطل الواجهات ـ التى مررنا بها أو أقمنا ـ عبر الذاكرة وكأنها ملامح لكائنات عرفناها، ألفنا بعضها ونفرنا من الآخر أو خفنا خوفاً غامضاً. للواجهات عيونها، النوافذ أو الشرفات، أو فتحات للضوء وتلقى الهواء أو أخرى غامضة ليس لها ما يبرر وجودها، واجهات أنثوية المظهر، ربما لارتباطها بمن حملت لهن التوق والشوق وتمنيت رؤيتهن. من ذلك بيت الحاج حامد مدرس اللغة العربية، عم سهير التى خفق لها نبضى مطولاً ولم أبادلها حرفاً، وقت تدوينى هذا يكتمل حوالى نصف قرن على ذلك النبض المولى، لا أعرف مستقرها أو مثواها، تمثل أمامى الواجهة المستطيلة، نوافذ تتحرك مصاريعها إلى أعلى وإلى أسفل، بياض الستائر الشفافة ماثل،

جلى، ثلاثة طوابق، ست نوافذ، خلف الأول منها أقامت وتحركت، وأطلت عبر العصارى، ترتبط الواجهة كلها بها، بحضورها، بسعيها، بتطلعى إليها على أمل رؤيتها ولو لمحة، أما شُجنة صوتها فكأنها تنبعث من البناء كله، بعد انتقال عائلتها إلى مسكن أفسح جهة الخرنفش لم يفارقنى اليقين أنها هناك داخله، مقيمة مع يقينى بمفارقتها المكان، مع توالى الوقت تداخلت ملامحها بخطوط الواجهة، فتأنسنت الجدران والنوافذ وتبنين الوجه، لاترد على خاطرى إلا وينبعث التحديق صوبى من عينيها، من الشبابيك الموصدة الآن، واجهة بيت أم سيد غامضة رغم وجود ست شرفات مستطيلة، أسوارها من حديد مورق، أرضياتها خشبية مستندة إلى عروق بارزة. فى الثانى إلى اليمين يقف السنى مرتدياً جلبابه الأبيض والبرنس المغربى أو العمامة المحاطة بشال أخضر، فى الشرفة صناديق تحوى زجاجات صغيرة، متماثلة الحجم، لايزيد طول الواحدة على إصبع صغير، رأيته عند صحبة أبى إلى صلاة الفجر بضريح مولانا وسيدنا الحسين، يوزع لمسات على ظهور أيدى المصلين، رائحة قوية نفاذة فيما بعد نسبتها إلى ناصية تجمع المسك والعنبر والريحان معاً، المسك يعنى النفاذ، والعنبر الحضور الحى والريحان للأبدية التى لا يمكن إدراكها بالحواس، كل من الثلاثة باعث على الغموض والاستتار، هكذا العطر المجوهر، إشارة لا تصريح، تلميح لا إفصاح، هكذا ارتبطت واجهة بيت أم سيد ذات الشرفات بالاستتار، لا تلوح لى إلا وتبزغ سائر التساؤلات المستحيل إيجاد اجابة عنها، يتصدر عين المشهد السنى بنظرته السارحة وزيه المثير لخيالات الرحيل.

واجهة بيت الفص، عائلة الجزارة الشهيرة، متصلة الأسباب بعائلة فادية ومحاسن، رغم أنهم مجرد مستأجرتين لحجرتين متقابلتين فى الطابق الأرضى، لفادية قوام ماثل وملامح تمثال مصرى من الأسرة السادسة، أميرة الجيزة المستكينة بجوار زوجها حاكم المنطقة، كأن الجدة اجتمعت بالحفيدة وهما فى العمر نفسه. الوقت عينه قبل تجاوز كل منهن للأخرى، كلما نزعت إلى هذا النحت المبين فاجأتنى فادية من الزمن العتيق بوقفتها وتفاصيل جسدها الأشم، المكثف، المجوهر، غير أن ما يعنينى رائحتها، فلأقل عبيرها، بمعنى آخر طيبها، أول رائحة أنثوية خمجة مكموجة عنيفة المركز تلج حواس شمى، صارت مرجعية وبداية إدراك لحقيقة شملى، بداية لأننى حتى الآن أقيس عليها وأنسب إليها، إدراك لأننى أُحطت علماً فى وقت متقدم بتأثير تجاربى ومعارفى أنه لكل أنثى عبقها الخاص، لا أقصد العطر المكتسب من خارج، إنما ذلك المنبعث من داخل، من عمق لا يمكن تحديده، لا تتشابه إحداهن مع أخرى سابقة لها أو لاحقة، هذا مما يطول الحديث فيه، لكن ما يعنينى هنا أن الواجهة ارتبطت عندى بعبير فادية، صارت البناية كلها متنسبة إليها، الباب المقوس من أعلى يعنى خروج أو دخول والدها البائع فى محل شهير للبن ناحية باب اللوق، لم أره يرتدى جلباباً قط، دائما حلة مكتملة المعانى، جاكت وبنطلوناً وصديرياً أفرنجياً، وطربوشا ربما يكون تحته منديل فى الصيف لامتصاص العرق ودرئه، النوافذ كاملة، فرجات مؤدية إليها، البناية إطار لها، لفادية التى أخصبت مخيلتى وأثرت مروجى وأججت توقى رغم أننى لم أبادلها لفظاً ولم يقم بينى وبينها حوار قط..

واجهة الحذر والايماء تمت إلى الفرع الآخر من الدرب، الآخر بالنسبة لى لأننى مقيم بالناحية اليمنى، أما اليسرى فيحدها هذا القصر الغامض الذى حذرنا الأهل من دخوله أو محاولة تقصى أموره، ألا نتبع فضولنا مهما كانت الظروف، جدار عريض، مرتفع أصم، تتخلله مشربية مرتفعة، بارزة، معلقة، منمنمة، تعرض تشكيلات شتى، مختلفة تركيباتها وخطوطها.

ماذا يوجد داخل المسافرخانة أو تحتها؟

فى الزمن الأول لم أعرف إلا الروايات التى تزيد الغموض وتقصى أى محاولة للاقتراب، فثمة من يقول إن القصر ما خفى منه تحت الأرض أكثر مما يظهر منه، سراديب يفضى بعضها إلى بعض، مازال رجال الباشا يسعون داخلها، يتزوجون، يتناسلون، يتوارث بعضهم بعضاً، فى انتظار الصيحة الكبرى للانقضاض والظهور انتصاراً للباشا.

انقضاض على من؟

انتصار لمن؟ لأى باشا؟

رغم اطلاعى وإحاطتى فيما بعد أنه محمد على، وأنه اختار هذا القصر ليكون مقراً لإقامة ضيوف الدولة، من هنا جاء اسمه «المسافرخانة»، وهو نفسه أقام فيه، فى الغرفة الشتوية الشرقية وُلد الخديو إسماعيل، ظللت أتطلع إلى واجهته هائلة المساحة، لاَ تحد منها المشربية إلى أن أتيح لى ولوجه بعد بلوغى الرابعة والعشرين، أى فى عام تسعة وستين من القرن العشرين المنصرم، فى هذه السنة جرى احتفال كبير بمرور ألف سنة على تأسيس

مدينة القاهرة وشهد القصر ترميماً وتحسيناً وقراراً بتخصيصه لإقامة بعض الفنانين، بينهم صاحب عزيز أتاح لى الدخول والتجول، منذ ذلك الحين توطدت الصلة، تنفست المكان، عشته بظلاله وأصواته ومنحنياته ونقوشه وخطوطه وديوان الشعر المكتوب على جدرانه، حتى شب الحريق قرب نهاية القرن فأتى عليه وبدأت أشيده من الذاكرة عبر مرثية طويلة مكتوبة لم أنشرها على الناس بعد، ذكرت فيها كل كبيرة وصغيرة، ما دق أمره، لم أستند إلى مرجع. ولم أعتمد على صورة ملتقطة أو لوحة مُبْدعة، شيدته من الذاكرة، عدا الواجهة فمازلت أتطلع إليها مستفسراً عما يجرى، عما تخفى، إذا نزلت مدينة لأول مرة أتطلع إلى الواجهات كافة كأنها أصداء ورجع لما عرفته فى الدرب، إذا بلغت ميناءً، أول ما أفعله أن أستعيد الواجهات الغامضة عبر تطلعى وسعيى بالنظر، صارت خلاصة التطلع ولب السؤال حتى بعد اختفائها من الدرب وبقائها عند بالتصور، بالرؤى الرجراجة المراوغة غير المتيقن منها، منها تنبعث كافة الواجهات وإليها تعود. .

الأسطى سيد

شارع المشهد الحسينى.

دائماً أقول: لو تقلقل حجر من موضعه فى أى جزء منه لاكتشفته، لا أظن أن بصرى وقع على جدران ونوافذ وأبواب وزوايا ونواحٍ كما جرى لى مع هذا الطريق، أحدده بالجزء الموازى للمسجد

الحاوى للضريح الذى يضم الرأس الشريف، إنه مدرجى إلى المدينة، إلى أنحاء البلد، إلى الخارج، إلى الكون، لم يمر يوم فى العقود الثلاثة الأولى من عمرى إلا وعبرته على الأقل مرتين، الأولى فى الخروج من داخل الجمالية إلى ميدان الحسين، إلى الأزهر الذى كان وصولى إليه بمفردى علامة على تقدمى خطوات فى اكتشاف العالم والسعى فى دروبه وحيداً. معتمداً على ذاتى.

أستحضره فى سفرى مقبلاً أو مدبراً، الإقبال فى أول النهار، أو ما قبل الغروب، الإدبار عند العودة، عبوره من الميدان قاصداً البيت، أولى الظهر إلى الميدان، يعنى ذلك اتجاهى إلى البيت، فى طفولتى وحتى السادسة، لم أفارق أبى، كان يصحبنى معه دائماً، يدى تمسك بيده، لذلك ترتبط كافة الأماكن به، فندق الكلوب المصرى، الحاج الصاوى الترزى البلدى، بيومى صاحب دكان الموبيليا، الأصفهانى تاجر السجاد فى خان الخليلى، الأسطى سيد الحلاق.

كلما عبرت شارع المشهد الحسينى أول ما أتجه إليه بعينى طفلاً دكان الحلاق، وإذا استدعيته إلى ذاكرتى فى البُعد أول ما يمثل أمامى هو الأسطى سيد.

فى زمن صحبة أبى، كنت أتطلع إليه بخشية وفضول، الدكان ضيق المساحة، مقعد كبير للحلاقة يعلو وينزل طبقاً لوضع الزبون وطوله، له مسند متحرك أيضاً، وسادة صغيرة مغطاة بالجلد الأخضر، تستند إلى قائم حديدى ينزلق صعوداً ونزولاً، عندما تستند الدماغ إليه ويلقى صاحبها راحته يثبتها بواسطة مفتاح صغير،

يقصده أبى لحلاقة شعر رأسه مرة فى الشهر، ولحلاقة ذقنه ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً، لابد أن يحدد موعداً مسبقاً، الرجل منظم جداً، حريص على نظافة المحل إلى درجة الوسواس، ثلاث أو أربع منشات للذباب مختلفة الأحجام، لها رف خاص، المرآة حادة البريق، الأرض يكنسها باستمرار، أحيانا أثناء قيامه بالحلاقة، الفوطة البيضاء التى يضعها لزبون تلقى فى سلة مغطاة، لا يتكرر استخدامها، أما أغرب ما احتواه الدكان فعلبة من الصفيح، يزيح غطاءها ليبصق فيها، كان يلوك «المدغة» باستمرار، ورق الدخان المجفف، وأحياناً يخرج علبة صغيرة مفضضة، مستديرة، يفتحها بحرص، يتناول منها ذرات النشوق بنية اللون، يقربها من فتحتى أنفه مع نفس عميق، يغمض عينيه، بعد لحظات يعطس بقوة، عطسات متتالية، بمجرد تواليها يتناول منديلاً أبيض من جيبه ليحجب الذرات عن التناثر ويتدفق الدم إلى وجهه، يعود ليمسك بالمقص، أو الموسى، يستأنف الحلاقة، على الجدران الثلاثة مرايا مستطيلة كبيرة الحجم، ربما يرجع إليها الإحساس بخصوصية الضوء داخل الحيز، ثمة رف فى مواجهة المقعد، عليه علب البودرة، وزجاجات العطر، وعلب صغيرة فيها دهون ومعاجين ومساحيق، على مسافة أربعة أو خمسة أصابع قطع الشبه المكعبة التى يستخدمها لصقل وترطيب الجلد بعد عمل الفتلة، وهذا من الأمور التى كنت أحوش نفسى عند بدئه فى نتف جذور الشعيرات المتبقية بعد عمل الموسى عن الضحك، وذلك لحركة رأسه، وللتعبير الذى يبدو على ملامحه. كان يعقد طرفى الفتلة على أصابع يديه، يتقاطعان عند المنتصف وبحركة مخصوصة تبدأ عند ملامسة الفتلة للجلد يروح ويجىء إلى الخلف،

ثم إلى الأمام، يبدو أبى متألماً بعض الشىء، يزم شفتيه، لكننى كما سمعته يقول مرة، لا أدرى أين؟ ، إنها الطريقة المثلى لتنعيم الجلد نعومة لا مثيل لها، خاصة بعد دعكه بالشبه. عند استخدام الاسطى سيد للفتلة تتبدل ملامحه تماماً، هذا المتجهم دائماً، الذى لم أره مرة مبتسماً، من يتحرك فى الدكان، حول الزبون بدقة، بتأن، كأنه يقيس خطواته أو يحصيها أو يضعها فى الأماكن نفسها، بمجرد ميله واقتراب وجهه من الزبون، بمجرد بدء عمل الفتلة تنقلب ملامحه تماماً، تتسع عيناه، تنفرج شفتاه، يتقوس حاجباه، يضاعف من هزليتها حركته المتكررة، ارتداده وإقدامه، مع تكرار الحركة تزداد ملامح وجهه تغيراً، وأقمع رغبتى فى الضحك، ويبدو أن هذا سرى مع مراحل عمرى، فلا أستعيد وجهه وانقلاب شكله إلا وأتعجب لكننى لا أضحك ساخراً، كأنه يرقبنى، وكأنه يوشك أن ينهرنى، لسبب ما كنت أخشاه وأضيق بالوقت الذى أقضيه عنده منتظراً فراغ أبى من الحلاقة، رأساً كانت أو ذقناً.

ربما لتجهمه الدائم، وتخصيص مقعد صغير مستدير، بدون مسند للأطفال، أمره لى أن ألزمه، يخشى أن أتحرك فأحطم بعض الأشياء، أو أثير اضطراباً فى المكان، مرة تناولت الجريدة التى يعلقها إلى حامل من الخيزران، يحفظها مبسوطة عند تقليب صفحاتها، تناولها بخشونة، قال أبى:

«إنه يقرأ الجورنال يومياً..»

رد الأسطى سيد بعدوانية:

«يمكن أن يمزقها..»

لزمت مكانى صامتاً، كاتماً حنقى وضيقى، صحيح أننى طفل لكننى لست كما يظن، تعلمت القراءة قبل دخولى المدرسة من أبى الذى اعتاد أن يشترى كل يوم جمعة الأهرام، وفى بعض الأيام المصرى، سيظل الأهرام بخطه ورسمه من علامات الذاكرة، كذلك العلم المصرى الأخضر ذو الهلال الأبيض والنجوم الثلاثة، يرفرف من خلال الصفحة الأولى، أذكر عناوين أخرى كنت أراها فى فندق الكلوب المصرى مع بعض الزبائن، مثل «الزمان»، «البلاغ»، «الجمهور المصري» لم تستمر بعد الثورة، كذلك المصرى، لكن علامته بقيت عندى، أما الأهرام فمازال. كان الوالد يقرأ متمهلاً، عرفت شكل الحرف منه قبل أن أدخل المدرسة. تعجب الشيخ مصطفى والأستاذ نصر عاشق أم كلثوم، أساتذة اللغة العربية من ذلك، واهتم الشيخ مصطفى بى وأبدى العناية، قابلنا فى الطريق يوماً، كان يسكن حارة درب المسمط، كان مهيباً، له حضور، ومنه جلوة، أبدى حنواً بعكس تجهمه فى الفصل، لمس رأسى قائلاً:

«باسم الله ما شاء الله، باسم الله ما شاء الله. .»

كيف يرضى عنى الشيخ مصطفى هكذا. ويدعو الله أن يحفظنى لأبى، ولا يسمح الأسطى سيد لى بقراءة الصحيفة خوفاً من تمزيقى لها؟ ، كنت ميالاً إلى الكتمان، أمسك غضبى وبعد انتهاء اللحظة ألوم نفسى، كيف لم أرد؟ ، كيف لم أستجب على الفور؟ ، يتصاعد الأمر كلما زادت المسافة وقتاً ومكاناً، مازال هذا من طبعى، وكم كلفنى ذلك.

ربما لصمته الدائم وتحركه المحسوب، ربما لأنه ختن أخى الأصغر،

مازلت أذكر عودته منفرج الساقين، الأربطة المبللة بالدم والمطهرات، بعضها أصفر والآخر أحمر قان، لست موقناً أنه هو الذى قام بختانى، لا أقدر الآن وقت تدوينى هذا على اليقين ، لكن ثمة دلالات تؤكد لى أنه هو، لا يقوم بالختان إلا فى أيام الاحتفال بمولد سيدنا الحسين، لا يتم ذلك فى المحل، إنما فى كشك صغير من قماش أخضر، مغطى، يقف أمامه النسوة والرجال، بعد تمام العملية يحملون الطفل بينما تعلو الزغاريد، وأحيانا يحضن الأب ابنه ممتطياً حصانًا، متبخترا فى الطريق، بالنسبة لأخى لم يجر شىء من ذلك، أمى فقط، كل الأقارب بمنأى، جدتى وخالى فى البلد القصى. فقط تسعى إلى الجارات المجربات إذا طرأ مشكل. حتى الآن لا يمكننى أن أحدد سبباً بعينه ينبئنى أو يفسر خوفى من الأسطى سيد، كان رغم خشيته شديد العناية بالمحل، بأدواته، بالزبائن، أما المدخل فمن النوادر التى ما زلت أراها، ستائر من الخرز الملون، مدلاة فى خيوط رقيقة، تحجب ما بداخل المكان وتكشفه أيضا بقدر. تمنع الذباب خاصة فى الصيف.

أحاول إقصاء الصورة الأخيرة التى رأيته عليها، كان ذلك عند بلوغى المرحلة الثانوية، خروجى صباح كل يوم قاصداً محطة الترام التى تقع أمام المسجد الأزهر، ثم أنتقل فى ميدان العتبة إلى ترام آخر أصل به إلى العباسية. فى الذهاب والإياب أرقب الأسطى سيد. أصبح نحيلاً. أقصر مما رأيته فى الزمن المنقضى، غير حليق، دائماً يسند وجنته إلى راحة يده وباليد الأخرى منشة لا تتحرك أبداً. ستائر الخرز بها ثغرات، المرآة المواجهة مبقعة، كأن صدأ أدركها، لم أتوقف

أمامه لأتحدث إليه، لم يحدث أن تبادلنا الكلام، دائماً كان يتحدث إلى أبى، لشهور طويلة رأيته بمفرده، دائماً مطرق، ناظر إلى الأرض، لم أشاهده واقفاً قط أمام زبون، أو منحنياً، متحركاً بالفتلة، وعندما أغلق الدكان لفترة طويلة أشرع فى الاستفسار عنه من أبى، لكننى لم أنطق!

رومى

رومى المنضبط، رومى الجسد، رومى الدوغرى،

معروف بجديته الشديدة، صرامته وعدم تبسطه مع الآخرين، يعمل عند ترزى أفرنكى بشارع قصر النيل بوسط البلد، مجرد القول فى تلك الخمسينيات المنقضية أن فلاناً يعمل بهذه المنطقة أوروبية الطابع فهذا يعنى تميزاً بدرجة ما.

يجيد القراءة والكتابة، إنه أحد القلائل جداً فى الدرب الذين يقصدهم عم محمد موزع الصحف ويسلمه الأهرام سواء تقاضى ثمنه أم لا، سواء وجده أم لم يجده، عندئذ يترك الجريدة أمام عتبة الشقة اليمنى، الأول من بيت السنى. الأهرام أكثر الصحف عنده رصانة. أقرب إلى الرأى الرسمى. ظل مقتنعاً بذلك حتى بعد تأميم الدور كلها وتحول الصحف إلى أصوات متشابهة، ورث ذلك عن أبيه ونقله إلى أولاده السبعة، أربعة ذكور وثلاث إناث، علمهم جميعاً ذلك، أن يبدأوا بقراءة كلمة الأهرام، الرأى الرسمى للجريدة وأن

يلتزموا بما جاء فيها إذا تحدثوا فى السياسة مع أى إنسان، كذلك تعليق الإذاعة الذى يلى نشرة الثانية والنصف ظهراً، الحق أنه كان مثالاً يُحتذى فى ذلك، إذا ماجرى أمامه حوار حول السياسة أو شأن عام فلا يجيب إلا بما وصل إليه عبر هذين المصدرين، حتى وإن كان ما قرأه أو سمعه يدور حول أزمة جزيرة تايوان. أو عواقب الحرب الكورية أو أزمة برلين.

من أصوات الدرب المميزة فى الصباح الباكر والتى علقت بذاكرة كثيرين أصغوا إليها صغاراً بدهشة، أو كبارا بدت عليهم علامات الحيرة، ذلك الهتاف الجماعي:

«تحيا مصر..

تحيا مصر..»

لم يكن صادراً عن مدرسة أو معهد أو ثكنة جيش، إنما عن شقة رومى بالطابق الأول، يوقظ زوجته وأبناءه فى السادسة تماماً، بعد أن يغتسل كل منهم ويرتدى ملابسه كاملة، سواء كان سيخرج بعد المراسم، أو سيبقى فى البيت مثل امرأته ضخمة البنيان، مفرطة الصدر والعجيزة. الجميع يصطفون لأداء التحية للعلم، الذى يرفعه إلى صارى نصبه وسط الصالة، بعد أن يستقر العلم فى الذروة، يرفع يده بالتحية مردداً الهتاف بحياة مصر ثلاثاً، وعندئذ يأمر عائلته بالانصراف، يمكن لهم أن يبدأوا نهارهم، عند خروجه يصافح زوجته ماداً يده بالسلام كما يصافح الرؤساء والملوك بعضهم عند اللقاء، كثيراً ما دقق النظر فى الجريدة الناطقة التى تعرض قبل الفيلم الطويل، يحرص على التردد على سينما الفتح بالضبابية صيفاً،

وسينما الكواكب شتاءً، كذلك سينما أوليمبيا بشارع عبد العزيز، وسينما إيديال ورويال قرب عابدين، عُرف عنه حبه للسينما، خاصة الجريدة الناطقة، يصحب أسرته كلها إلَى سينما الكواكب بالدرّاسة مرة كل شهر، مساء السبت أو عصر الأحد يمضى بمفرده إلى دور السينما الأخرى، عند خروجه أو دخوله إلى الدرب يخرج البعض للفرجة عليه، خاصة النساء رغم اعتيادهم رؤية مشيته العسكرية، استقامة جسده، ذراعه اليمنى إلى الأمام، اليسرى إلى الخلف، عند المنحنى يتوقف لحظة قبل أن يستدير على قدم واحدة ثم يُكمل، سمعت أبى يقول لأمى فى حوار ليلى إن أسعد لحظات رومى الترزى عندما يتحدث إلى أسرته فى شأن هام، يبدأ حديثه قائلاً:

«سيداتى.. سادتي».

تساؤل

هل المكان ثابت حقاً؟

هل نصحو فى المكان الذى نمنا فيه؟

كيف والأرض تدور حول نفسها؟

كيف والأرض تدور حول الشمس مندفعة فى الفراغ بسرعة ستين كيلو فى الثانية؟ هكذا قدر علماء الفلك. كيف الثبات إذن ودورانها حول مركزها مستمر، حول الشمس دائم، دوران الشمس وكواكبها

حول المجرة، دوران المجرة حول المجرات.

كيف يكون الجنوب الذى عرفناه فى المساء عين الجنوب الذى نشير إليه فى الصباح؟ كذلك الشرق والغرب والشمال؟ والفوق والتحت؟ كيف التحديد مع أن كافة شىء يدور؟

شفقة

عصر، شتاء، رمادية الغيوم غالبة، منخفضة، تكاد تلامس سعى البشر، تنبئ بمطر سخى، شمس مختبئة. لماذا أثق أنها بدايات شتاء مع أن النهايات تماثل البدايات؟ أفق فسيح خفى لتراكم الغيوم. سماء قريبة، دانية فوق سطح بيتنا فى الدرب، جلبابى خطوط، بيضاء نحيلة، بنية عريضة. أقف مطرقاً حزيناً.

لماذا؟

لا أعرف!

أشعر بشفقة نحوى من خلال الوقت الذى أرمق فيه تلك اللحظة الشتوية التى تحتوينى، ما بيننا عمر يصعب تبيان تفاصيله. إدراكه ممكن فى مجمله، تتدفق حنية منى تجاهى، يصل داخلى ما بين لحظتين منفصلتين تمتان إليّ، تباعدان وتقربان ما بينى وبينى.

الرجل الممعن فى الشيخوخة الآن يدمع للطفل الذى كانه ولم

يعـد. هكذا تطلعت منى إلىّ. خـاطبت وأصـغـيت، رثيت حـالى لحالى، موزع، مفرق على ناحيتين، كأنى فى جهتين متعارضتين، مع أنى هو، منطلقى شـتـاء يمر علىّ وآخـر لن أرسـو عنده، هـذا يفـوته وذلك فاتنى. لا يوثقنا إلا تلك الشفقة منى إلىّ.

ضوء ثاقب

فوق السطح ليلاً وبمفردى. ليل غميق القتامة، ناصع النجوم، أولى الوجه تجاه الشرق، لا أعرف سبب خروجى وحدى إلى هذا الليل كله. أيضا لماذا تلك الظلمة؟ كأن الكهرباء مقطوعة عن المدينة كلها..

بغـتـة، يظهـر ضـوء نحـيل. دقـيق، كـأنه فص مـاس، قـادم من الأعالى، بالضبط نحوى، ثاقب، يلغى ما عداه، أثبت فى مكانى، أعرض وجودى كافة له، أتوقعه، أو لا يمكننى الحراك، يزداد طولاً مع اتجاهه صوبى، بالضبط صوبى، وعندما صار دانياً أحاطنى مجاله بينما يعبر صدرى إلى ما ورائى. إلى ما فوقى وتحتى، يشملنى إدراك بالشـمول. وانتـعاش جديد عليّ، كأنى خـضت فى لجة من النعناع الرطيب، رغبت فى التحديق إلى ما وراء الحجب، طال بى المقام، وعندما عدت إلى داخل الغرفة صرت واعياً أننى لست الذى كنته..

خوف

بغتة يداهمنى هذا المجهول

ثمة شىء ما سيقع، سيحدث

ما هو؟ ما كنهه؟

لا أعرف

متى يبدأ؟ من أين يبدأ. من أى جهة يأتى؟

لا أدرى.

من تحت، من فوق، من خارج، من داخل، الآن، أمس، غداً؟

لا أعرف، المؤكد قبوعه فى مكان، موضع ما، كمونه، تقوقعه، لكنه فى لحظة ما سينطلق فجأة، سيبرق، سيحل فجأة، يكتمل بغتة، يتحقق بالتدريج، أشق ما عرفته خلال الترحال، مواجهة ما لا يمكن التنبؤ به، ما يستعصى على كافة التفاسير..

نيويوركية

الطريق إلى مطار جون كيندى، تقلع الطائرة المصرية فى الحادية

عشرة ليلاً لتعبر المحيط إلى الساحل الأوروبى، ثم تجتاز فضاءات البحر الأبيض إلى أفريقيا حيث نقيم.

فى عربة صاحبى معصوم، مساعد قنصل مصر وقتئذ. زوجتى فى المقعد الخلفى. مازال الوقت متاحاً للوصول إلى المطار. قضاء بعض الوقت قبل الإقلاع، أمضينا بصحبة معصوم ثلاث ساعات، كنا فى الطريق من المكسيك إلى القاهرة، لم نشأ الإقامة فى نيويورك لبعض الوقت، لو أننى تعرفت على لوحات إدوارد هوبر المعروضة فى متحف الفن الحديث. لو أن الصلة التى قامت بيننا بعد حوالى خمسة عشر عاماً بدأت فى ذلك الوقت لمكثت وقضيت المدة اللازمة، لظروف شتى قامت عند بدئى هذا التدوين يلوح لى أمر، استحالة نزولى المدينة مرة أخرى وبالتالى لن أقف مواجها أصل اللوحات التى همت بها وتأثرت من خلال المستنسخات المتقنة أو الكتب التى سعيت إلى اقتنائها، ليس مثل رؤية الأصل.

تتوقف عربة صاحبى عند إشارة مرور. إلى جوارنا عربة تقودها شابة، تعلقت بملامحها، دقيقة، محددة، سمراء سمرة فريدة لم أعرف لها مثيلاً، تلامس ذقنها بإصبع يدها الأصغر، تميل قليلاً إلى الأمام، ترتدى ثوباً رماديا، ملامحها القوية انغرست عندى، حضورها الأمثل، لم أحد عنها حتى تقلقل الحركة واندفاعها بجوارنا إلى حين، ولت إلى حيث لا أدرى ومضينا إلى نقطة انطلاقنا لعبور المحيط.

من يدلنى. من يتح لى الفرصة للمثول أمامها مرة أخرى ولو للحيظات، من يرشدنى إلى هذه الشابة التى توقفت بعربتها عند

تلك الإشارة فى الطريق الذى لا أعرف اسمه المؤدى إلى مطار ج. ف. كيندى، كان ذلك فى تمام الساعة الثامنة والربع من ذلك المساء النيويوركى، النوفمبرى، عام تسعة وثمانين، من؟

تساؤل

لماذا يبدو العمل الفنى الناقص أكثر إثارة للمخيلة من المكتمل؟

تساؤل

أحدق فى أحدث صور التقطها المرصد الفضائى «هابل» لأعماق الكون، مجرتان تتصادمان. بقع من ضوء وألوان، ألا يوجد تشابه حميم بين صور المجرات الشاسعة سحيقة البعد وبين صور خلايا الدم تحت المجهر، ألا تحوى نقطة الدم الدقيقة عند تكبيرها والتدقيق فيها كافة تلك التفاصيل، ألا تتماثلان فى الهيئة؟

حروف سوداء كبيرة تتوسط الصفحة التى بدأت أطل إلى سطورها خلال الحقبة الأخيرة، لم أعتدها من قبل.

اللواء أركان حرب الكنزى فى ذمة الله.

أقرأ الكلمات مرة أخرى.

منذ شهور لا أدرى مقدارها اتصل بى. سألنى عما إذا كنت أذكره، قال إنه يود مقابلتى لأمر هام، بدا صوته واهناً، متسلخاً. أكد أن لديه ما يرغب أن يقوله لى. كرر رقم الهاتف مرتين، كتبته على ورقة صغيرة صفراء اللون، فى اليوم التالى لم أجدها، عبثاً حاولت البحث لكنها اختفت. تلا اليوم آخر، غاب عنى أمره.

عندما أستفسر عما إذا كنت ما أزال أذكره. أجبت مستنكراً: كيف أنسى أيامى النبيلة؟ أراه واقفاً قرب مبنى محافظة السويس. مرتدياً الزى العسكرى، كان برتبة عميد، القائد العسكرى لمنطقة مدينة السويس، أقف مصغيًا إليه، يتحدث وأسمع، لا أعرف ما يُقال.

ها هو يرتدى الزى الميدانى، يغطى رأسه بخوذة، يشير إلى الشرق.

ها أنذا أقبل عليه رافعاً ذراعى. نلتقى عند نقطة ما، يستحيل أن أستدل عليها الآن، نتعانق، ضوء شتوى، نهار من نهارات يناير أربعة وسبعين بعد انتهاء حصار مدينة السويس وفتح الطريق الرئيسى الذى يربطها بالقاهرة.

نمشى بجوار خليج السويس، يشير إلى الشرق مراراً، لا أقدر على تحديد الوقت.

حفل عسكرى فى مكان قرب القاهرة، يرتدى السترة الرسمية، يتأهب للإدلاء بشهادة، غير أنه يتقدم عندى من جهة ما يزيح صورته تلك ويقف باللباس الميدانى فى لحظة ما، مكان ما من مدينة السويس، يتطلع صوب نقطة ما، أتبع بصره ولا أعرف إلام كنا نتطلع أو نرقب.

رقدة

سرير، مفروش بملاءة سماوية اللون تتخللها خطوط زرقاء قاتمة، السرير فى غرفة مرتفعة السقف، تبرز منه عروق الخشب، فى طابق أخير، بناية قديمة، فى حارة متفرعة من شارع رئيسى يؤدى إلى ميدان السكاكينى باشا.

فخذا أنثى، ممتلئتان باعتدال، مشهرتان، منفرجتان، تفضيان إلى الرحابة، الوثارة، الدثور، الحنو، ما بينهما حضورى السيال، الفياض، الطامح إلى الرى والارتواء، لونهما فى صفاء القمح حديث الحصاد، يوحيان بالخصب، بالوفارة، صاحبتهما ليست بالقصيرة أو الطويلة، فهى عين التوافق، لا ملامح لها عندى، بقدر ما يمثل أمامى فخذاها عند استلقائها وتأهبها، بقدر ما يغيب وجهها

تماماً، حتى أنها لو مثلت أمامي بهيئتها نفسها التي عرفتها عليها منذ حوالي خمسة وثلاثين عاماً فلن أتعرف عليها، لكنها لو رقدت وشرعت فمرأى فخذيها سيحضر كافة ما عاينته في اللحظة عينها، كأنني أستعيدها مرة أخرى.

لها اسم، لا أذكره كاملاً، منه حرف الجيم، ربما نجاة، نجوى، رجاء، جميلة، إيقاع نطقه يقارب ما ذكرت، أطرق الباب، ينفتح فلا أرى أمامي أحدا، عندما أجتاز العتبة ألتفت وراءه. أشهدها صافية من كل ثوب، مخيط أو غير مخيط، كما وفدت إلى الدنيا أول مرة. لكنها مكتملة، ضارعة، منتظرة، متوددة، حاضة، مقربة.

تعيش بمفردها منذ أن سافر زوجها للعمل في الأردن، عندما التقيتها أول مرة كان غيابه ممتداً للسنة الخامسة، صديقتها نحيلة، طويلة، تعرفت إلى صاحبي واشترطت عليه أن يأتي بصاحبه لتعرفه إلى من لا تفترق عنها، لتأخذ راحتها معه، هكذا جئت إليها. وجاءت إليّ، قبلها وبعدها لم أعرف حنواً أو احتواءً كما ذقته منها، في المغرب يطلقون على الجماع لفظاً دالاً «الحوا»، لا أسمعه إلا وتخطر لي الأنثى، فالرجل لا يحتوي إنما يُحتوى، لم أعرف حوا كما عرفته معها، كل ما ترغبه أن تفتح الباب عارية تماماً، ثم تستقبلني بوثارة، بأناقة، برفعة، تمسك أطراف أصابعي، تشب على أطراف قدميها، تلثم شفتي، تهمس لوجنتي بلمسة من إصبعها، تضطرني إلى التمهل فموسيقاها يجب أن تقابل بأنغام مواتية وإلا صار النشاز وبانت العكارة.

مـرة أخـرى أتقنت بوادرها، صـرت عـارفـاً بأطيـافـهـا . ترتيب ظهوراتها، ترغب الخطو عارية، متمهلة، مستعرضة قوامها المكتمل، أكاد أراه أمامى الآن، ينتقل فى فراغ الغرفة المحدود فيصير رحبًا، فسيحاً، متسعاً، تدنو على مهل . تفك أزرار قميصى، مع كل خطوة، مع كل إقدام منها يعقبه لثمة، لا تفرغ من تجريدى إلا وأكون على شفا، تتقدمنى إلى الفراش رغم ترتيبه ونظافته إلا أنها تملس على الملاءة والوسادة، تنشد الوثارة، أما اللحظة التى وددت لو تمكنت منها، عزلتها عما قبلها وبعدها، أبتها بتًا، أحفظها حفظاً، أصير إلى قدرة تمكننى من استعادتها تحفيزاً للقدرة، واستعادة لبهجة التوقع، فللشروع شأن، كان بثها عند تلك اللحيظة يهدئنى ويؤججنى، هى العارفة بأصول التدانى والتمهيد المواتى، إنها عين وقت استلقائها، تصحبنى، تدفع صدرى بيديها الممدودتين تماما، تتأملنى، ثم تميل بى، ألامس استنفار حلمتيها، ولحظة تلاطم شفتيها تجىء الانفراجة، يتباعد لتبدأ الدفقة الأولى، ينضبط تكوكبنا، وهذا مما لا أقدر على الخوض فيه تفصيلاً، تباعد فخذيها إيذان بالرفرفة، باجتياز حدود ما لا حدود له، حيث لا أول ولا آخر، إنما الوصل والفصل معاً .

بقدر ما تفيض تأخذ منى، توهمنى أنها أسلمت القيـاد وهى الدليل عينه، تشبع حنوها، وتضبط درجتها، تتقن أركانها . أما ملامسة قدميها لظهرى فليس صدفة أبداً، إنما بقدر، لفترة إذا ما استرجعت اللواتى عرفتهن تتقدمهن بمسافة، قدرتها على مزج الفيض الأمومى، بالنبع الأنثوى الوثير وهذا عجيب .

شيئاً فشيئاً راحت ملامحها تنأى وتخفت، عدا انفراجة فخذيها،

وارتفاقهما، سموقهما، حتى صرت أستعيدهما لذاتهما، كأنهما غير متصلين بما توسدته وتوسدني، أحاول إيجاد معادل للفظ الفخذ، فيبرز لي الورك. ويستدعي ذلك الربلة فالساق، يتصل الورك بالأكل، عندما يمسك أبي الدجاجة لتقسيمها، وتوزيعها. الورك، الجناح، الرقبة، أقلب الألفاظ حتى أجد ما يناسب تلك الرعشة الحنينية، التواقة. يتركز بصري المتوهم عليهما. فلا أرى ما عداهما. ربما جزء من الفراش. ومساحة من الجدار، لم أعرف إلام المصير، عندما استيقظت ذات ليلة بعد أكثر من خمسة وثلاثين حولاً على آخر استلقاء وانفراج منها ومني، كان الحلم واضحاً. جلياً. وكنت ما بين الفجر والصبح مبهوراً، متسارع الأنفاس، لم أر عداهما، وانكفائي بينهما. كأنني أطالع نفسي من نقطة علوية، كنت راضياً رغم تهدجي. بعد أن بلغت منها في العدم ما عرفته في الوجود وبقي مجرد طيف، لعل وعسى!.

شتنجل

أجد الراحة في المقاهي ما بين الغروب واكتمال المساء، نزول الليل. تتهيأ لاستقبال الزبائن، بالنهار تكون إلى أماكن ممارسة الأعمال أقرب، يأوي إليها من فرغ أو يوشك على قضاء حاجة، أو من يدير عملاً. لكن الليل لتمضية الوقت، ميدان العتبة يختزن زمناً قديماً حتى ستينيات القرن، يحتفظ بجوهر العصر الذي شيدت فيه

المبانى الرئيسية لتشكل منظومة حول دار الأوبرا، مبنى البريد، فندق البرلمان، مبنى تيرنج التجارى يتناص مع مبنى معرض لافاييت الباريسى، مبنى صندوق الدين، معرض أحمد حلاوة، حلوانى ويلسون، عصائر خارالمبو، معارض صغيرة لإصلاح الساعات، ممرات ضيقة تؤدى إلى مقاه وبارات، أو بارات فقط تقدم الخمور، حتى ذلك الزمن الستينى، كلّما بلغت الميدان قادماً من القاهرة القديمة حيث أقيم، قاصداً سور الأزبكية حيث باعة الكتب القديمة، ثم ميدان الأوبرا، بمجرد وصولى الميدان، ألج زمناً ثم مكاناً، لا أدرى مصدر التأثير، ربما شكل العمارة، ربما توسط المكان باعتباره فاصلة، ما بين القاهرة العتيقة، والقاهرة الرومية كما أطلق عليها على باشا مبارك مخططها ومنفذها، ربما آثار من عبروا، يترسخ يقينى أن من يمر بمكان ما يترك أثراً، ما نوعيته؟ ما كنهه؟ لا أدرى، لتوسط الميدان أخذ من القديم ومن المستحدث.

مقهى فسيح تحت فندق البرلمان، الاسم الشائع «لوكاندة» ، كان يعد الأشهر فى وقته، مقصد أثرياء الريف، وأغنياء شبه الجزيرة قبل طفرة النفط، تمثل عندى إحدى حجراته، مستطيلة النافذة، مرتفعة السقف، فوق السرير يرقد أحد أثرياء قريتنا، أجرى عملية جراحية، ربما استئصال المرارة فى مستشفى الدكتور عبد الله الكاتب بالدقى، يطل عليّ وجهه، بشرته بيضاء مشربة بحمرة، يرتبط عندى بعباءة عربية من الصوف الأزرق القاتم، رقاده، إلى جواره نصف بطيخة، لونها أحمر متوهج، مغروس فيها سكين. أتنقل عبر المسافة المنقضية بين ملامحه واحمرار البطيخة وسواد اللب وعبثاً أحاول تذكر اسمه،

إنه من جهينة، لكن. . من هو؟ ما لم يُعرف الاسم يظل وجها متداخلاً مع البقية، ملامح فقط لا تعنى عندى شيئاً.

أجلس فى ذلك المقهى تحت اللوكاندة، بمفردى أم بصحبة؟ لا أدرى، غير أن بائع الاشتنجل يثير عندى البهجة لحظة ظهوره، أرقبه بتأن. يظهر فى ساعة متأخرة، فى الوقت الذى يحتاج فيه بعض الزبائن إلى طعام خفيف خلال جلستهم بالمقهى، أول ما أراه منه جلبابه الأبيض الشاهى، بياض ناصع، نظافة مرفرفة، يمسك طرفه بأسنانه بينما يداه تحفظان توازن السبت المصنوع من الغاب، أصفر اللون، تحت إبطه حامل خشبى يمكن ضمه وفتحه ليضع فوقه السبت بمجرد وصوله المدخل، يقف أمامه، سميط مستدير طرى بالسمسم، كعك مستدير جاف، طماطم مشطورة، محشوة بثوم وبقدونس، باذنجان أسود مخلل، بيض مسلوق، جبن أبيض، رقائق جبن رومى، إناء فيه ملح، إناء فيه فلفل، أوراق شفافة، بمجرد ظهوره يلمح بعض زبائنه الذين يعرفهم، يبدأ إعداد ما يريدون بمجرد تبادل النظر، يبهرنى إتقانه ودقته فى إعداد الطعام، تقشيره البيض على مهل، اختياره الطماطم بجوار الباذنجان والخيار المملح وأوراق الجرجير الخضراء التى يتوج بها الخضروات، يبسط الورق الشفاف فوق قطعة صغيرة من الورق المقوى، يتحرك على مهل رافعاً بضاعته باعتزاز، شاهراً فنه فى التنسيق، مثيراً شهية المتردد أو خافت الرغبة، كنت أطلب بيضتين وقطعة جبن رومى فتجاور مذاقهما من التناسق النادر بين الأطعمة وشريحة باذنجان مخلل مغطى بالثوم والكزبرة وثمرة طماطم، أما الكعكة المفضلة عندى فمنحتها اسمه

لأنه لم يكن ينادى على بضاعته إلا بها، لماذا هى بالذات؟ لا أعرف.

«شتنجل»

ما أصل هذا الاسم؟

لا أعرف، إنها تلك الشطائر المستطيلة، الغليظة إلى حد ما عند المنتصف، بها أثر من الملح، مذاقها خاص، خاصة مع قضمة من البيض المسلوق والباذنجان المخلل، شتنجل صار اسم أولئك الرجال رشيقى القامات الذين يمرون بمقاهى وسط المدينة، آخر من رأيته أمام مقهى ريش فى أواخر الستينيات، إذ يصيح «شتنجل» أحيله على شتنجل العتبة، صار اسماً لكثيرين لا أعرف أسماءهم، وصار دلالة على الميدان الذى يتداعى الآن، لا أمر به، لا أعبره، إلا وأسمع الصيحة المنغمة «شتنجل» لكننى لا أرى مصدرها، ذلك أن مصدرها، ومنبعها منى، تلك الأصداء عندى غير المنطوقة، لكنها تسرى بالدلالة على علامات وملامح ولحظات صائرة إلى اندثار معى..

موسيقى

عصر، شتاء، رمضان، أما اليوم فجمعة، مؤكد أنه الجمعة، وقفتى تلك فى المكتبة لا تكون إلا يوم جمعة، أنفض الغبار مستخدماً

ريشة ذات مقبض أسود ينتهى بمنحوتة أفريقية. أعيد ترتيب بعض الأقسام، أكتشف العناوين من جديد، تجاورها فى حد ذاته يخلق علاقات جديدة مثل البشر الذين يتعرفون إلى بعضهم لأول مرة، سكون، ليس صمت يوم الجمعة الناتج عن قلة الحركة وخفوت الضوضاء خاصة فى الضاحية التى أقيم فيها، لا أشعر بالحاجة إلى سماع الموسيقى الإيرانية الشجية التى خصصت الأسابيع الأخيرة للإصغاء إليها، لاستيعابها، لم أكن فى ذلك السكون الكونى، المترامى بحاجة إلى موسيقى، تتبع الأنغام غير المسموعة من داخلى..

وضع

عدنا إلى الغرفة بعد أن تناولنا إفطارنا، كنا أول الداخلين إلى المطعم عند فتح أبوابه، مذاق القهوة فى فمى، ضوء السماء الرمادية الشتوية خافت عبر الستائر الخفيفة، السقف مرتفع مازال البناء القديم محتفظاً بملامحه، بفراغاته، لم يقسم من الداخل طبقاً للنظام الحديث مع الاحتفاظ بالواجهة الأصلية كما تقضى قوانين المدينة، لهذا أفضل هذا الفندق الصغير.

ما بين النافذة والفراش غير المرتب تستقر حقيبتان، الأولى تخصنى، كبيرة، محكمة الإغلاق، تحوى ملابسى وأوراقى وبعض

كتب وقليل من هدايا، أحكمت ترتيبها مساء أمس، بداخلها ما احتجت إليه خلال شهر من السفر عبر بلدان ثلاثة، الأيام العشرة الأخيرة منها هنا، إلى جوارها حقيبة أصغر من قماش متين، مستطيلة، تتصل بأول وآخر لحظة، عندما تصل إلى الغرفة قادمة من محطة القطار لبدء لقائنا الذى يستمر أحياناً ليلة واحدة أو عدة ليال أُخر طبقاً لمدة إقامتى، تجىء من أقصى الشمال، مسافة تتجاوز الألف كيلو متر، لكن القطار فائق السرعة يقطعها خلال أربع ساعات، إنها آخر ما أراه منها عند افتراقنا، ترتبط بإقبالها وإدبارها.

تمددت فوق السرير، مسنداً ظهرى إلى الوسادة المطوية، مغمضاً عينى، متمنيا اجتياز تلك اللحظات وفواتها بسرعة، ليس عن ضيق منها أو نفرة، إنما لإشفاقى على نفسى وعليها من صعوبة الفرقة بعد مسرات شتى عرفناها معاً، ومارسناها سوياً، فى الطرق، فى الحدائق، فى المقاهى، فى المعارض المقامة وقت تواجدنا، فى تسكعنا، كافة ما عشناه، هذه المرة والمرات السابقة ينتفض متعاقباً مثيراً للشجن والخشية من التباعد وكافة ما يمكن أن يقع لاثنين متحابين، يعيش كل منهما فى بلد، تفصلهما المسافات المكانية والزمانية، امتثل كل منا للظروف، رضى باللقاءات التى تتخلل الأسفار والمهمات أو تلك التى يتم تدبيرها.

لكم أرغب فى الانفراد، إنها موجودة قربى وبعيدة أيضاً، بعد وقت قصير معلوم سيكون التباعد متواتراً بقدر سرعة القطار الذى يعود بها إلى مدينتها الساحلية الصغيرة. والطائرة التى تعبر بى الفضاءات إلى موطن حالى ومستقر إقامتى.

شعرت بأنفاسها الهادئة تلمس مسامى، تماماً لها وقع الضوء الناعم، الهادئ، المتمهل فى سريانه مع بداية هذا النهار الشتوى، فتحت عينى، فوجئت بتطلعها الراغب، ذلك البزوغ الأنثوى من عينيها، أما العنصر الحساس فانفراجة شفتيها، ظهور فلجتها، توالجت شفاهنا، لم تسع إلى تقبيل، إنما إلى التهام يضمن بقائى داخلها، تقنطرت شفاهنا، وجال لسانى عندها، وامتزج الرضاب، قمت واقفاً بعد استنفار حالى، بدا الوقت القصير المتاح ممتدًا، الثانية منه تعادل يوماً، لا قياس.

استدارت، نزعت تنورتها الزرقاء الطويلة، سروالها، ركعت ساجدة، مولية مؤخرتها نحوى، رأسها، وجهها مدفوس فى الفراش، منشبة أصابعها فى الملاءة، استداراتها مشهرة، معلنة، مداخلها كافة مؤدية، داعية، حاضة، فى مرات تقابلنا، لحظات امتزاجنا الأولى كافة، ترقد على ظهرها، تغمض عينيها، لكنها المرة الأولى التى تدعونى بتلك الركعة، أن أقدم، أن آتى إليها كما أرغب.

هذا الاستسلام المبين أدى إلى تناثر همتى فانكفأت على هضبتيها مقبلاً، غير قادر على أى إقدام!

عند منحنى السلم. يظهر فجأة.

موضع غير متوقع ظهور مثل هذا الحال فيه، قامة مفرودة، محاطة بحارسين، يمسك كل منهما بذراع، رجل، كيان ما، ثلاثينى أو أربعينى، على حافة البدانة ، عندما يكف عمل البصر يتخذ الجسد صفات الأعمى، التراجع بالنصف الأعلى إلى الوراء قليلاً ، يستنفر القوام كله عند التحرك من مكان إلى آخر اتقاء لمجهول قد يلحق الضرر، حذراً من أى عارض لايمكن التنبؤ بوجوده، ظهوره فجأة، تتساند أجزاء الجسد لعبور الفراغ غير المرئى بالنسبة للأعمى يندمج الوضع بكينونته، يبدو متمماً ، بازغاً، لكن من فرض عليه العماء المؤقت، من حيل بينه وبين ما يحيطه فإن تحفزه يبدو مضاعفاً، استثنائياً، أبطأت صعودى مما دعا الجندى الذى يصحبنى أن يلتفت نحوى مستفسراً بصمته، وكأن رؤية هذا المقيد. المعصوب أمر عادى لا يستدعى الوقفة أو الدهشة.

لم أدخل هذا المبنى إلا قسراً. مرة فجرا إثر اعتقالى. ومرات تالية لاستدعائى بهدف الاستفسار عن أمر، أو مضايقة، أو محاولة استمالة. ثم جئته طلبا للحماية، وهذا مما يطول شرحه ويحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه. إذ أننى بصدد تلك اللحيظة التى يفصلنى عنها مدى لا يقل عن خمس وثلاثين سنة من لحظة تدوينى هذا. رغم عبورها السريع. إلا أنها باغتتنى فى أماكن شتى، فى كل مرة لا أدرى الباعث ولا أقف عليه. لا أقدر على تفسيره.

عند المنحنى يتمهل الجنديان. لاينطقان. إنما يتوليان توجيه الكيان المستسلم لهما. المطيع، غير أن ارتباكاً يسرى عبر القامة المتجهة كلها إلى أعلى، درجات السلم مربكة، يمكن أن تنتهى فى أى لحظة، أن يستدير ترتيبها كافة الاحتمالات قائمة لمن لا يبصر مواضع قدميه. فما البال بالنسبة لمن يتوقع الأذى.

لا أستعيده إلا من موقع رؤيتى الأولى له. لحيظة الظهور المباغت وما لحقنى من دهشة وخشية وتعاطف. فما من مثير للشجن مثل رؤية الهيئة الإنسانية المتوقعة للأذى. لا أراه عندما حاذانى. عندما صرت موازيًا له لابد أن ذلك وقع. إذ أننى لم أتوقف عندما وقع بصرى عليه. ترددت وتمهلت لكننى لم أكف عن الصعود، كما أنه واصل النزول، ربما أكون اقتفيت أثره ببصرى أثناء نزوله واستمرار صعودى.

اللحيظة الأولى محت ماعداها. تبدو كافة اللحظات المتبقية ثابتة. معزولة عن حركتها. بعض تفاصيلها تختفى مع الوقت. وقد تبرزأخرى لا تمت إلى الأصل. إنما دخيلة من لحظات أخرى. لم أحتفظ بملامح الجنديين المتأبطين ذراعيه. الموجهين لحركته، بل إن موضعهما خال إذ تباغتنى اللحظة. كأنهما غير موجودين. لكننى أدرك حضورهمًا من خلال وضعه. من خلال هيئته. فكأنهما مثل ثقبين أسودين لا يمكن رصدهما إنما يمكن رصد آثارهما على ما حولهما. لا أذكر الجندى المرافق أو حتى السبب الذى استدعيت من أجله. فقط فراغ المبنى. وتلك القامة المستوفزة المحدقة بكاملها فى المجهول.

من هو؟ أى اتهام موجه إليه؟ إلى من يمت خارج تلك الجدران؟ ماذا يعمل؟ من أهله؟ ما حقيقته؟ إلى أين يقودونه؟

الاستفسارات عينها تتردد بمجرد بزوغ اللحظة فى مكان وزمان لا أتوقعها أبداً خلالهما، بعد حوالى خمسة وعشرين عاماً، أجلس فى قطار الصعيد، أسافر جنوباً، أفضل السفر نهاراً حتى أرى الوادى، ولتوازى الموعد مع توقيتات رحيلى القديم بصحبة الأسرة، أحدق إلى أعمدة البرق التى تفلت بسرعة إلى الوراء، إلى النخيل البادى والذى يعنى بالنسبة لى الإيغال جنوباً، يكتمل الأمر بظهور شجر الدوم. فجأة رأيت القامة المستنفرة معلقة فى الفضاء المواجه لى، مابين الحقول والنهر، مابين النهر والجبل الذى يحد الشرق، من ورائه تظهر الشمس صباحاً، ظهور اللحظة بما حوته ألغى ما عداها، الغريب أن تلك المباغتة صوحبت بإحساس أرقنى لفترة، مصدره صمتى عند رؤيته، كفى عن إبداء أى إشارة عون أو مؤازرة، لا بالحركة أو النطق، لمت نفسى لخشيتى وإيثارى السكون حتى بلغت حد النوم مع توالى تساؤلات لا إجابة لها.

أين هو الآن؟

ماذا جرى له بعد رؤيتى له؟

هل مازال يسعى؟

كنت أحاول استدعاءه للإجابة، لتفسير ما استعصى، لكن شق علىّ، لم أكن قادراً حتى على رؤية رأسه المعصوب، فقط قامته،

حتى بدء الرقبة، صدره، قدميه الحذرتين، لون بنطاله البنى الفاتح، قامة لا تتصل بشىء، مخفورة، مشيعة . .

وحشة

صاحبى العائد من الخليج فى أجازة صيف يرحب بى، بعد عناقه وترحيب زوجته يحيط بى أبناؤه، ابنته الكبرى، ابنته الوسطى، ولده البالغ من العمر أربع سنوات :

ازيك ياعمو . . بابا حكى لنا كتير عنك ياعمو . .

عند انصرافى يتعلق بى :

بات عندنا ياعمو . .

أتطلع إليه متخللا شعره، يصيح بينما قبضته الصغيرة تحاول التشبث بى :

«أصلى هناك ما حدش بيزورنا، وخايف هنا يبقى زى هناك، عشان كده خليك معانا ياعمو . . ».

اثنــــان

من مبنى قسم الدرب الأحمر يخرجان .

جندى شرطة ، نحيل ، قصير يرتدى ملابسه الرسمية القاتمة ، مهملة ، متسخة ، أكبر من مقاسه ، حذاء ضخم ، قدماه تلقان فيه ، إلى جواره ، بمحاذاته تماما شاب يماثله طولاً ونحافة وربما عمراً ، ثياب مدنية ، قميص متسخ ، بنطلون مهلهل ، شبشب زنوبة ، خطواتهما متماثلة ، موثقان إلى بعضهما بقيد حديدى ـ كلابش ـ الجندى إلى اليمين ، القيد حول معصم يده ، يمناه محاذية ليسرى الشاب ، مفتاح القيد فى المكان الذى سينتهيان إليه ، حيث يتم تسليم الشاب ، خلال المسافة الفاصلة يتصل مصيرهما ، يتوحدان فى القيد .

بعد دخولهما الطريق الجانبى المؤدى إلى شارع محمد على يتوقفان ، ليس من الواضح أيهما أخرج سيجارة ، ينحنى الشاب ، ينحنى معه الجندى ، يشعل ثقاباً يقربه من السيجارة بين شفتى الجندى ، الجندى يستدير منحنيا ، نصف استدارة ، نصف انحناءة ، يمد رأسه ليشعل سيجارة الشاب من طرف سيجارته المتقد .

ينفثان الدخان . يتابعان السير ، سيجارة كل منهما بين أصابع اليد الطليقة . أحيانا يتمايلان كأنهما على وشك التعثر . لكنهما يخطوان . .

مــكان

أين؟

وينبثق التساؤل. فقرة مباغتة

أين؟

أين أنا الآن؟ فى أى مـوضع الآن؟ لا أعنى الحـجـرة المحـددة التى تؤطر وجـودى الآن. اسـتـيـقظت فـيـهـا على بقـايا حلم لا يمكننى الإمساك بها. تعيينها.

أين من الكون؟ أعنى ما يتجاوز الغرفة والبلد والقارة والكوكب. ما حـولى يبدو ثابتًا مع أنه ليس كذلك. يدور حـول مركـزه. حول الشمس. الشمس حول المجرة، المجرة حول مجرات أخرى. دائما يتغير المكان والوقت ومعه حضورى، أين أنا إذن؟ أى نقطة بالضبط؟ إلى أى قياس يمكننى أن أرجع؟ من موضعى، من رقادى. لكن هذا غير ما يبدو. الظاهر نبات غير حقيقى فى الوقت الذى أرحل فيه حيث لا أدرى ولا أعرف.

أخــت

حفل تسليم وسام فرنسى إلى يحيى حقى، أسعى إلى بيت السفير الفرنسى راضيًا. سعيداً، أحببت الإنسان والكاتب، كنت سعيدا

أيضا لاختياره لى. هو من حدد وسمّى من يرغب حضورهم الحفل.

يجىء الدكتور حسين فوزى. تجاوز التسعين وقتئذ. يسنده سائق العربة، شاب ضخم البنية، غليظ التكوين. يمسك بذراعه، يوجه مساره، يعيش فى رعايته منذ وفاة زوجته الفرنسية، أقبلت عليه، تحدثت عن لقائى به فى الإسكندرية عن هريسة الحلبى فى ميدان الرمل. كان ذلك منذ حوالى ربع قرن، كان يمكنه المشى بمفرده يفيض حيوية وقدرة على الجدل، اشترى قطعة صغيرة، بدأ يأكلها أمام المحل الصغير، فجأة نظر إلىّ مدققا. قال على مهل:

ـ إسكندرية.. أختى هناك.

ثم ضيّق عينيه. حاد بتركيز بصره عنى. يخاطب نفسه:

ـ لا أدرى.. هل مازالت تعيش أم توفيت؟

أجاب على نفسه بصوت مرتفع:

ـ والله لا أعرف

ضم شفتيه. دفعه السائق:

ـ ما تخلصنا يادُكْتر!

وجــــود

من ؟

أنا أم الكون؟ الواقع المدرك لى أم ذاتى؟

تلك الأصوات. هل كانت ستوجد لولا أذنان تصغيان إليها. يستوى فى ذلك توالى قطر الندى وهدير الأمواج عند ذروة العاصفة.

تلك النجوم، هذه الشهب. الألوان بدرجاتها وظلالها لسائر العناصر. هل كانت ستوجد بدون نظرات تتطلع وعيون ترقب؟

رائحة تلك الزهور. هل كانت ستنبعث لولا تنسمها واستنشاقنا لأريجها؟

هل للمذاق حضور بدون حاسة تستشعره؟ تميز بين الحلو والحامض. الحادق والعادم؟ عرفت صاحبًا لى أثناء سفر فاقد لحاسة التذوق، يستوى كل طعام عنده، لا فرق بين لحم وبقل. بين صلب وسائل. قال لى إنه يأكل ليشبع. لا لكى يستمتع، بالنسبة إليه الطعام بسائر أنواعه غير موجود.

ما مصير تلك النسيمة بدون وجنة تستشعرها؟

هل يوجد المكان بدون مسافر؟ بدون من ينتقل؟

ماذا يعنى الزمن بدون من يعين الفوارق بين أمس وغد وحاضر لا يستمر، بدون من يدون ماجرى فيه ويتنبأ بما سيكون عليه الحال. ويحاول تفسير سريانه واستيعاب غموضه؟

عندما أغمض عينى إلى الأبد تسود العتمة التى سأصبح جزءًا منها؟ تتلاشى الصور ويستوى ماكان بما سيكون، من يبلغ منا النهاية عندئذ؟ ذاتى التى تدرك هذا الكون؟

أم الكون المدرك بذاتى.

خضرتهما

أصعد إلى عربة المترو. مقاعد عديدة شاغرة. وقت هادئ للركوب. لأننى غير مرتبط بتوقيع الحضور والانصراف. أتفادى أوقات الذروة. كنت متعبًا لم أنل كفايتى من النوم. أحد الركاب راح فى سبات. بعضهم يحملق إلى حيث لا شىء، المقعد المواجه لى خال. أتطلع إلى ما يمر بى خارج النافذة.

متى صعدت؟

متى جلست؟

لم أنتبه إليها. فجأة وجدتها أمامى. ليس فيها ما يلفت النظر، شابة محتشمة، ترتدى ملابس عادية، متواضعة، تمسك بحقيبة جلدية. نظارتها القاتمة تخفى عينيها تمامًا، أعود إلى التشاغل بما أراه خارج النافذة. بعد محطة دار السلام تزايد عدد الواقفين. ازدحام نسبى.

ثمة شيء جرى، لا أدرى مركزه، غامض لم أحدده تماما. ثمة تغير حدث فى الفراغ التفت بوغت.

تمسك نظارتها بيديها.

عيناها تطلان على الوجود. علىّ. يتغير بمرآهما اليوم كله، يتبدد تعبى. أعدل وضعى أفيض بالتفاؤل. لم أر مثل هذا اللون عميق الخضرة من قبل. هما المركز والمصدر. وجه لم يسفر عن مكنونه إلا بعد إزاحة النظارة. تفيضان برواء خصب، فى كل لحظة يبدو منهما بعث وميلاد جديدان.

ينتابنى حماس لأمور انقطع العهد بها. تفرق شأنى بين الرغبة فى النظر والخجل أيضًا هاتان العينان. الجميلتان. أفاضتا علىّ، تبدل أمرى كأنهما ترياق. أخصبتا حضورى، يندر لون العيون. أستعيد أنثى دير الجنادلة، لعينيها الدرجة نفسها من الخصوبة. أتأهب للنزول للمفارقة. أتملى غير عابئ. كأننى أرنو من كون آخر، لا أثر لى، لا أمثل أمامها. مستغرقة. متجاهلة روعى البادى تماما، تنهض بعدى، أبطئ الخطى حتى تلحق بى فأحتويها بالنظر على مهل، ألتفت. لم أجدها، أدرك تلاشيها. عندما قامت كانت ترتدى النظارة أم تمسكها بيديها. عدت خطوات، أيقنت اختفاءها. أبدأ صعود السلم متمهلاً، مثقلاً بأيامى وظروفى وذلك الحنين الذى أينعته تلك الخضرة!

رفـــة

في المسافة الواقعة بين قبة الغوري ومسجد مولانا الحسين أعرف طريقي إلى الموسيقى التركية، تحت القبة استمعت إلى الموسيقى العربية، فريق من الهواة يقودهم شاب يتقن صنعته، خرجت برفقة صاحب يتقدمني عمراً. قديم له دراية بشئون الحس. عيناه تطقان بالرغبة والنهم إلى ملذات الحياة. بعد رحيله جاءتني أرملته بصحبة ابنتها، ثمة مشكلة اعترضتهما ظنا منهما أنني قادر على حلها، لا أذكر تفاصيلها، لكنني أعي جيدا عينيها، نظراتها الشبقى كأنها ترديد لنظراته، كلها توق، حاولت تخيل لحظة انصهارهما تمازجهما وما بصيران إليه من زلزلة. رغم حضوره عندى إلا أنه يبدأ من هذه المسافة التي قطعناها منفردين، خلالها نبهني إلى الموسيقى التركية. دلني عليها، ما عليّ إلا أن أدير مؤشر المذياع ليلاً. في اليوم نفسه اجتهدت وضعت نفسي في مسار الموجات غير المرئية. ومنذ ذلك الوقت صرت مستمعًا، مستغرقًا، أحفظ أغنيات كاملة من لغة لا أفهمها، أوقن أن ما يصلني من معان لا يختلف كثيراً عما يمكن أن ألاقيه في الأصل، بعد يونيو عام سبعة وستين جاءت فرقة للموسيقى التركية الكلاسيكية، مضيت إلى قاعة الاستماع الوحيدة المجهزة للموسيقى.

أصغيت إلى سماعي من مقام الرصد لجميل بك الطنبوري. أحيانا تكون لي علاقة بالاسم، لا أصغي إلى موسيقاه إلا ويظهر أمامي، جالسا في مكان قريب من البوسفور، يتداخل معه صاحبي العجوز

الذى دلنى على الموسيقى التركية، دائما أستعيده، ما أنا إلا محصلة كثيرين، كل وجهة سعيت إليها نتاج إشارة من راحل أودعنى أثرًا مكتوبًا مطبوعا. أو شخص عرفته عن قرب فأرشدنى بنصح أو نطق عبارة. ولو مضيت أحصى كل من ترك عندى علامة لحدت عن القصد وفقدت السبيل.

فى هذا السماعى، تصاعد النغم متنقلا من حال إلى حال، مرة يصعد بى ومرة ينزل. فى كل الأحوال أمسك أنفاسى حتى لا يفلت منى شىء وحتى لا أضل. ما بين انتقال وآخر وقعت تلك الرفة، لا أعرف أهى تخريج لعازف الطنبور الماهر فى لحيظة انفعال. أم أنها جزء من السماعى. جزء لايتجزأ، رفة لمست منى مالم يطله نغم من قبل. نبهتنى إلى موضع دفين منى يشفشف الرقائق غير المدركة، غير المحددة، حفيف العزف يلون ما لا نراه. مالا ندرك كنهة، الزمن، مع السماعى من مقام الرصد أكاد أمسك بالوقت، سماعى الطنبورى أو سماعى القصبجى، كلاهما من المقام نفسه غير أن اللون الذى لم أعرفه، لم أستطع تحديده أو نسبته، ذلك الذى أشارت إليه تلك الرفة الهينة التى لا تكاد تبين، لم تستغرق إلا ثوانى معدودات لكنها أودعت عندى هفهفة ورقرقة. وعبير ريحان، وامتنانا لذلك الرجل الذى دلنى على تلك النعمة عند عبورنا يوما من قبة الغورى إلى مقام مولانا الإمام الشهيد.

من النافذة المستديرة للطائرة ألمح العربة الخاصة بكبار المسافرين. تتوقف أمام السلم. ربما وزير حالى أو مسئول سابق أو. . . ألمح رجل أعمال تنشر صوره فى الصحف، يدلى بآرائه فى البرامج الحوارية. متوسط القامة، مدكوك. عريض الصدر. راسخ الخطى. يتبعه ثلاثة. صافح أحدهما وتبعه الآخران عند بدء صعوده المتمهل، أتعرف إلى أحدهما، عقيد متقاعد عرفته زمن الحرب. كان برتبة نقيب فى وحدات الاستطلاع، جاءنى منذ سنوات مروجًا لدائرة المعارف البريطانية يعمل فى توكيل خاص. مرتبه عمولته، بقدر ما يبيع. بقدر ما يربح. مازلت أذكر خجله وتبريره القدوم إلىّ. فمن سيعرف الذين تلزمهم الموسوعة مثلى؟ لم يطلب منى الشراء مباشرة. كما أننى تجنبت الإشارة أو التلميح إلى انتفاء حاجتى إليها.

أتابعه أثناء صعوده يغيب عنى بعد دخوله من الباب الأمامى بعد لحيظات يظهر عند الباب الفاصل بين الدرجة الأولى والدرجة السياحية. المضيف يدله على مكانه، تلامحنا، تصافحنا وتعانقنا، أشار بما يعنى: بعد الإقلاع.

فوق البحر الأبيض. بعد اجتياز الطائرة للحد الفاصل بين البر والبحر عند الإسكندرية انتقلت إلى جواره. مقعد خال شغلته استعدنا أيامًا بعيدة ولحظات انطوت وتساءل كل منا عن أسماء. بعد

صمت قلت إننى تعرفت إليه بمجرد رؤيتى له. قال إنه يعمل مع «فلان بك. . » قلت إننى أعرفه بالاسم فهو أحد أسماء قليلة تتكرر كثيرا وتنشر صورهم مع أخبارهم أو عبر الإعلانات عن مشروعات أو عقد اتفاقيات.

قال إنه يعمل ضمن سكرتاريته مسئولا عن تلك الحقيبة. صغيرة من جلد طبيعى. شكل لم أعرفه من قبل، داخها أربعة أجهزة محمول، اثنان على الشبكتين المصريتين. الثالث متصل بشبكة أوروبية. والرابع بالقمر الصناعى. يمكن الحديث من خلاله إلى أى جهة فى العالم من أى موقع. حتى الصحراء الخالية. مسئول عن الرد. تدوين الأسماء. عرضها على سيادته. هو يقرر الرد على من يشاء، لا يطلب بنفسه، يتولى هو ذلك ثم يناوله الجهاز، عدا أسماء معينة بعضها مرموز له. إذا ظهرت على الشاشة لابد أن يعطيه لسيادته فوراً. إلى جانب ذلك يعتنى بالهواتف، عليه أن يبقى بطارياتها مشحونة دائمًا. لا يفترق عنها إلا عند نومه. لم أستفسر. لم أنطق أسئلة عديدة أثارها فضولى. خشيت إحراجه من حيث لا أقصد غير أننى فوجئت به يقول: وظيفة غريبة وجديدة. . حامل المحمول.

ابتسم. بعد لحظة صمت استعدته خلالها بزيه القتالى. وقفته. تحديقه إلى الجانب الآخر. جلوسه فى العربة إلى جوارى. الخروج المفاجئ لجندى من حفرة برميلية. إشارته إلى أعلى بما يعنى وجود طائرات فى السماء. عربة جيب تتحرك على الطريق المحاذى للقناة هدف واضح ومغر.

يقول إنها أفضل من البقاء بدون عمل. بعد التقاعد مرت به أيام

سوداء، أصعب شيء الالتحاق بعمل تلك الأيام، صاحب حميم رشحه لهذا العمل. أهم ما وصفه به عند تقديمه إلى سيادته، أمانته الشديدة وقدرته على الكتمان. .

على الشاطئ

تراقب الأم ابنتها الصغيرة. تلعب عند حافة البحر مع أطفال تعرفت إليهم هنا. أمواج متوسطة العنف تصطدم بالرمال ثم تنحسر لترتد فى حركة أبدية. تهدأ حينًا، تعنف أحيانا لكنها لا تتوقف. بين الحين والآخر تصيح منادية عليها. محذرة من التوغل فى الماء. تنبهها إلى شيء ما لتشعرها بقربها ثم تعود إلى استرخائها من جديد. على مهل تقترب طفلة منها، ترتدى ثوبًا قصيراً، جميلة الملامح. تضع يديها وراء ظهرها. تتطلع إلى الأم قليلاً قبل أن تسأل:

«كل دول ولادك. .»

تتطلع الأم إليها مفاجأة بوجودها:

« لا يا حبيبتى. .»

تشير إلى الطفلة:

« دى بنتك. .»

«أيوه. .»

« يابختها . . »

قامت الأم منهية الجلسة المسترخية . قالت الطفلة :

«يا بختها عشان أنت أمها . . »

تتدارك بسرعة :

«دلوقت أنا عندى أم جديدة . . »

تدقق الأم النظر . تبدو الطفلة وحيدة : من والدها؟ أين أسرتها؟

قالت : إن أباها ضابط شرطة . وأنهم يعيشون فى المدينة ، لكنهم يدخلون كافة الفنادق الحديثة على الشاطئ ، يصحبها والدها فى الصباح . يتركها تتجول فى الفندق . فى الحديقة . فى الملاعب :

«المدير صاحب بابا . . كل المديرين أصحابه . . »

تلتفت إلى الحد الفاصل بين البر والبحر :

«وانت دايما بتخرجى معاها . . »

تتطلع الأم إليها . تقول محاولة أن تبدأ حوارًا مختلفًا :

«وانت اسمك إيه؟ »

«ياسمين . . »

«رحت المدرسة؟ »

«فى الحضانة . . »

بسرعة تقول :

«يا بخت بنتك عشان انت دايمًا بتخرجى معاها . . »

ترفع إصبعها النحيلة :

«بس . . ماما الجديدة طيبة . . »

تخفض رأسها، تردد :

«آه . . والله العظيم طيبة، لما أقول لها عاوزه أشرب تجيب لى كباية المية . . »

تتطلع الأم بعينين حانيتين، يلوح منهما حزن، تؤكد الطفلة :

« آه والله . . بتجيب لى أشرب . . »

على الطريق

يجلس إلى مقود الحافلة الضخمة، لا أراه إلا هكذا. مقعده المفرد، خلفه حاجز زجاجى قاتم يعزله ليلاً عن الأضواء الداخلية الخافتة، يمكننى رؤية ملامحه عبر المرآة العاكسة، يتطلع إليها أيضًا، معلقة إلى منتصف الواجهة، يمكنه رؤية المقاعد كافة، باسم العينين يداعب الأطفال. يبتسم للركاب. تغيب عنى قسماته تمامًا. بل إن وضع جلوسه اختلط بآخر كان يقود حافلة تماثل تلك حجما على طريق ما، لكنه كان يرتدى معطفًا. يبدو لى الأول مرتديًا معطف الثانى، متدثرًا به. كثيرًا ما تأملت السائقين الذين يمضون ساعات

طويلة على الطرق الطوالى، بمفردهم، عندما نقلت إلى المنيا منتصف الستينيات، كنت أخرج بحرى البلدة، أشير إلى عربات النقل، أركب إلى جوار السائق مقابل مبلغ زهيد. أقل من نصف ثمن بطاقة الدرجة الثالثة فى القطار. غالبًا ما أنزل ليلاً حيث تتزايد حركة النقل وتمضى فى أسراب يتقدم كل منها عربة شرطة وأخرى تتبع، عرفت كثيرين، بقى منهم هذا العجوز مرتدى معطف الجيش الإنجليزى القديم، بعد شروعه فى الحركة، أخرج من جيبه الداخلى زجاجة براندى مبططة. غير مستديرة، رفعها تجاهى متسائلاً: «تشرب»، أومأت شاكرًا، عندئذ رفعها إلى فمه متجرعًا حسوات متتالية، بدأ قلقى، كأنه أدرك فقال ضاحكا: لاتخف، الطريق طويل ولازم نخفف منه. بعد قليل حكى لى عن النساء اللواتى يخرجن عند سماع نفير العربة، تزوج إحداهن وأنجب منها، عرف معها أجمل الأوقات، لكن الزواج على الطرق لايدوم. بعد لحظات فوجئت برأسه يميل، ينام على المقود ويرتفع شخيره، سرى عندى رعب، غير أن التباع الذى يتمدد فوق مقعد طويل خلفنا قال: لا تقلق، إنه يحفظ الطريق حتى فى نومه. رحت أرقب يده المحيطة بالمقود تتحرك مع الانحناءات بينما يتصاعد شخيره منغمًا.

سائقنا لا يشبهه، إنه حاد اليقظة، يتبادل الحديث مع الركاب الذين يتقدمون نحوه ويقدم إليه بعضهم علبة عصير أو كوب ماء أو شطيرة خبز، اعتذر عن كل سيجارة قدمت إليه. لايدخن، يجىء إذن ويعود اليوم نفسه. سبع ساعات من القاهرة إلى الغردقة. يصل القرية

السياحية فى الثانية والنصف ظهراً. يتناول الغداء، يتمدد فى حجرة صغيرة ملحقة بمكتب الاستقبال. ربما يغفو. قال لى إن المتعب عادة لاينام، لكنه يسترخى فقط ليريح جسده. يعد السيارة، يتأكد من ضبط المياه والبنزين والإطارات. فى الرابعة تماما يتحرك قاصداً القاهرة، سبع ساعات ونصف. وربما تبلغ الثمانى لأن الليل ينزل عليه قرب منحنيات الزعفرانة الخطرة والتى يجب أن يقطعها حذرا نهارا فى سرعة لاتتعدى الثلاثين كيلو متراً. طبعا فى الليل يلزم أكثر، فكرت طويلاً فى هذا الوقت الطويل الذى يمضيه وراء مقود العربة، يضحك، لهجته ودودة، حاضة على القربى.

ـ إلى أين تظننى سأمضى بعد الوصول بسلامة الله إلى مصر؟

بعد تطلعى متسائلاً، قال:

ـ إلى كفر الشيخ. .

جراج الأوتوبيس هناك، حيث مقر شركة وسط الدلتا التى تؤجره لإدارة القرية، أسرته مقيمة هناك.

ـ يعنى أنت فى الصباح تكون قادماً من كفر الشيخ؟

ـ نعم

ـ طبعاً ستنام غداً للراحة. .

تتسع ابتسامته:

ـ لأ. . عندى شغل.

إلى أين؟

ـ طالع مرسى مطروح.

قال إن المسافة إلى الغردقة عادية بالنسبة له، قاد العربة مسافة أطول، عندما ذهب إلى السعودية فى موسم الحج، ألفان وخمسمائة كيلو متر قطعها مرة واحدة، عدا بعض الوقفات القصيرة، قال إنه اشترى كيلو فول سودانى مملح من محل بجوار سيدى أحمد البدوى، ونصف كيلو ليمون بنزهير، إذا شعر بالتعب يمص ليمونة، يأكل بعض الفول لأن الملح يعوض عن العرق.

ـ والتعب؟

ـ المهم الطريق، أنت معاك أرواح لازم ترجع بها سليمة، شوف. إذا فكرت فى التعب تتعب، لكن إذا ركزت فى الطريق والناس المسئولين منك تصل..

حلم

أستعيد أدق التفاصيل، شأن الأحلام عند حافة اليقظة، المكان مكوناته من ميدان القلعة وأبنية استانبول وربما المدرسة المستنصرية فى بغداد وسوق صنعاء القديمة، تنتظرنى سيدة ذات ملامح مصرية عتيقة، لم يمسسها دم أجنبى، زوجة ثرى شهير، رأيتها بصحبته فى حفل دبلوماسى، قلت لنفسى: عرف كيف يختار!، هاهى تتطلع إلىّ غير أننى ألزم الحذر، إنه قوى النفوذ ويمكن أن يلحق بى الأذى،

أستمر فى صعودى الدرج المنحوت من الحجارة، غير أنها تسبقنى بحيث أظل متطلعًا إليها من أسفل إلى أعلى، وعند موضع معين تبدو فيه أسوار القلعة كاملة وبعض أبراجها أمر بجوارها تمامًا. ترتدى ثوبا قاتما، أسود، تولينى ظهرها فأشهد فتحة تصل إلى بداية مفرقها الأسفل، تميل كأنها تحضنى تدعونى. لكننى لا أمعن. لا أطيل النظر، أستمر فى سيرى، أنزل سلالم عريضة من حجر يميل إلى صفرة تنبت منه حشائش قصيرة، ألمح زهورا حمراء قانية عند الزوايا، أجتاز ساحة قصيرة، عربة سوداء مكشوفة فى انتظارى، تجلس فى مقعد القيادة، يفصل بينى وبينها رجل يرتدى ملابس وقبعة مثل البحارة البنادقة الذين يقودون الجندول، لايتحرك، أسمع صوت امرأة لا أعرف مصدره.

«يمكن أن أدبر لكما خلوة فى باريس..»

لا يجيب أحد، يبدأ اندفاع العربة. جدار يرتفع شيئًا فشيئًا، يوحى لى بالشارع المار خلف مسجد ومدرسة السلطان حسن. لكننى أرى شواهد قبور. أسماء أجهلها. رغم ضيق الممرات إلا أن العربة تتقدم أصيح محذرًا لكنها لا تلتفت إلىّ، لا تبدى أى غواية. تختفى هيئتها الداعية، تصبح صارمة القوام، لا تعبأ بشىء. بل إن ملامحها تغيب عنى، لا أدرى أهى الأنثى التى رأيتها واقفة عند السلم أم أنها أخرى لا تمت إليها بصلة، توغل بين الشواهد ولم تكن هناك أى مساحة يمكننا خلالها الاستدارة للرجوع...

نسيمة

كل النسيمات. كافة الأمواج على سفر، لكن من أين وإلى أين؟

من أين تنبع تلك الهبات الرقراقة التى تمسنى مسًا؟

أين تبدأ النسيمة الأولى؟

من أين يبدأ رحيل المويجة؟ عند أى نقطة تشرع الحركة الأولى؟

من يحرك من؟ الرياح أم الأمواج؟

لا أدرى أين قرأت، لا أدرى من أطلعنى على موعد هبوب رياح عنيفة، بالغة السرعة، محملة بالرمال تهب على سطح المريخ فتحجبه عن رؤية الراصدين، فيما بعد انتبهت إلى زمن الهبوب هناك. إنه الوقت عينه هنا. وقت الخماسين. أيهما المصدر أو ثمة مصدر خفى كامن فى موضع ما، زمن ما، فى عمق تلك الأكوان، هل ترحل تلك الرياح عبرها؟

من أين تجىء تلك النسيمة التى مست وجنتى عند عبورى ميدان مولانا الحسين لحظة اتجاهى لزيارة الضريح مهدهداً بالرضى والوثوق. متقبلاً كل مصير. ليتها تمضى بى بعد أن أثارت عندى تلك المودة مع الوجود، ذلك الرضى الأثير بكل ما ستصير إليه المقادير. لم تكن وجنتى إلا مجرد محطة فى مسار تلك النسيمة السارية. ملست علىّ وأودعتنى هذا التسليم بما كان وماسيكون. .

تساؤلات

لا يكف الطفل ابن الثلاثة أعوام أو أربعة عن التساؤلات، يقعد فوق حجر أمه أحيانا، يتطلع إلى أصابعه المتداخلة أحيانا إلى النافذة. لكنه لا يكف عن الحديث، الكل صامت عداه.

« شغلك بعيد ياماما . . »

«أيوه ياحبيبى . . »

«بعيد قوى؟

«أيوه»

«عشان كده مابتقعديش معايا؟»

تقول إنه من الضرورى ذهابها إلى الشغل. بعد لحيظات:

«مش انت بتحبينى؟»

«طبعًا . . »

«طيب له ما بتاخدنيش معاك الشغل . . »

تقول إنه لابد من الذهاب بمفردها إلى الشغل حتى تأتى له بالحاجات الحلوة التى يحبها. يعود إلى سكوته، هل اقتنع أم أنه يتظاهر؟

«القطر بيصفر ليه؟»

تقول: حتى يمكنه المشى. يلتفت إليها جاداً:

«لا. . دا بيصفر عشان الناس تنزل وتطلع. . »

ثم يتابع:

«هو القطر أسرع ولا الطيارة. . »

تقول الأم: إن الطيارة أسرع.

«الطيارة اللى خدت بابا. . »

تسكت الأم. لا تجيب:

«هو بابا بيقعد فى الطيارة كتير. . »

تقول الأم: إنه لا يقعد أكثر من ثلاث ساعات.

«أمّال بيغيب ليه؟»

تقول: إنه يركب الطيارة ليروح إلى شغله ويجيب حاجات حلوة.

«ياريت يقعد معانا. . ماما. . أنامش عاوز حاجة حلوة. . »

لا تجيب.

« القطر لو عطل صاحبه يزعل؟»

تصمت. يصيح فجأة:

« ياللا. . ياقطر امشى. . . »

«ماما . . هو الكوبرى فوق ليه؟»

تقول : إنه فوق حتى يعبر الناس عليه .

«طيب ليه ما يبقاش تحت . . »

تصمت الأم . يصمت الطفل فجأة :

«بابا حيركب الطيارة وهو جاى . . »

تؤكد الأم أنه سيركب الطائرة .

«حيغيب تانى؟»

تنحنى الأم ، تضمه .

«وبعدين . . . انت مش حتبطل غلبة؟»

رسـالة

أرى طابع البريد فأستبشر وأتوجس . إنه طابع الدولة التى تحمل جنسيتها . أختام المدينة التى تتنفس أنسامها . الخط لم يتغير كثيراً رغم انقضاء المدة . أتعرف إليه مباشرة . أتسلم أنفاسها المودعة فيه فوراً . كم من خطوط رأيتها ذكرتنى بها .

بحذر ، بتوق ، أفتح المظروف .

بطاقة تهنئة برأس السنة. تتذكرنى مع الانتقال من عام إلى عام ضمن ما تخلف، ماتبقى ماثلاً حتى فى الذاكرة، ذلك توقيعها، أراه فتمثل أمامى كاملة، مكملة، هذا اسمها، وللأسماء عندى المنزلة الأسمى والمعانى الأتم، أرى الاسم فأشهد صاحبه، أذكره فيسعى أمامى، بقاء الاسم يعنى استمرار وجود صاحبه فى اللاوجود، لهذا حرص الأجداد على حفر أسمائهم، إبقائها بعيدا عن العيون حتى يجىء من يطالعها فيمثل أصحابها فى خلق جديد.

هكذا يبدو حضورها مع رؤيتى توقيعها. تفد علىّ الابتسامات من الجهات الأربع الأصلية، والفرعية، تتغير الألوان والمرئيات، يتدفق الضوء إلى حناياى، إذن.. ماتزال تسعى تتنفس هواء الكون الذى يضمنا، ماتزال تبهج المتطلعين إليها، المحظوظين برؤياها، أقرأ الكلمات مرة أخرى، تتساءل عن أحوالى بعد عشرين سنة من الانقطاع، انبتات الصلة، بالطبع لا أعرف هيئتها الآن، أتعامل مع حضور قديم ولا أرغب الإضافة إليه.

تقوى علىّ من بعيد فتعبرنى خفقة، خفقة تخصها، لاتقع إلاعند ذكرها أو لحظة توقع هلاتها، إشراقاتها عند أفقى، أتمهل عند كلماتها، كافة تدوينها تساؤلات، عنوانى.. هل تغير؟، ماذا عن آمالى القديمة؟ ماذا عن صحتى؟ تريد الإلمام بأحوال من هام بها قدراً من الزمن وحالت الظروف دون اتصال الأسباب.

يتغير اليوم كله عندى، أصير أرقا، أبتسم لكل من أقابله. أمزح مع كل من يتصل، أحرض على المداعبة، كتبت ثلاث رسائل،

شيعت كل واحدة من مكان، لم أخاطب اسمها. إنما كنت أرسل إلى أيامى المنقضية، لعل أثراً يلوح، أو خبراً يواتى..

نقــوش

أجلس إلى الدكة الخشبية بدون مسند أمام النول، أتطلع إلى السجادة غير المكتملة حزينًا، مكموداً يسألنى الأستاذ سيد مدرس التدريب العملى:

«مالك؟»

أقول إننى وددت لو التحقت بقسم النسيج الميكانيكى، لكنهم وزعونى طبقًا لمجموعى فى الشهادة. حصلت على مائة وست وعشرين درجة، فرقت معى درجة ونصف، يتوقف عن قص الوبر وتسويته.

«انس مجموعك وماترتب عليه.. انظر إلى هذا الجمال..»

يقول: هل من المنطقى مقارنة تلك الألوان حمراء، زرقاء، صفراء، وغيرها بالماكينات وشحمها. هنا تتخلق الزخارف من بين الأصابع، تبنيها عقدة عقدة ثم تسويها، وقبل ذلك تصبغ الخيوط كما تشاء، تجيئك خالية تماما، بيضاء، ثم تمنحها أنت اللون، تحدد

درجته، أي جمال؟ انظر إلى الدائرة، كيف تتعانق مع الدائرة. أنت لا تنسج سجادة، إنما تنشئ دنيا، دنيا بحالها..

أتطلع إليه صامتًا. صوته حنون. يهدئ من ضيقى، يبتسم.

«انت غير مقتنع، لكنك ستعرف ما أقوله فيما بعد..»

أطرق ممعنًا فى صمتى، أستعيده الآن ممتنًا..

ميراج

عائد من عملى بجمعية خان الخليلى، ربع السلحدار، الثانية ظهرًا، الاثنين خامس يونيو، ساعات مشحونة، ننتظر كل بيان جديد بلهفة، تحفز، ترقب، سمعت البيان الأول فى البيت قبل خروجى، غارات جوية على مطارات الجمهورية، قتال بدأ على الحدود البرية، لحظات طال ترقبها، عبارات تتردد من الأيام المنقضية.

«قواتنا عبرت القناة بكفاءة شهد لها العدو قبل الصديق»

« العقبة فك رقبة..»

« نتوقع الضربة الأولى..»

تلا البيان الأول عدة بيانات أخرى تنبئ بإسقاط عشرات الطائرات، تُليت كلها بصوت أحمد سعيد الحماسى. تساءلنا عما

يجب أن نفعله. قال المهندس فخرى زكى مدير الجمعية إننا يجب أن نتبرع بالدم. لنذهب ولنصحب عم إسماعيل الساعى إلى أقرب مركز للتبرع، هذا أبسط ما يجب أن نقوم به. كان قصيرا. يفيض حيوية، مستطيل الوجه، عند الواحدة ظهرا مال إلىّ قائلا بحذر:

«تعرف ما يقلقنى أننى لم أسمع أى خبر عن تقدم قواتنا حتى الآن..».

ثم قال:

«قلبى غير مطمئن..»

جال عندى مانطق به أثناء عودتى إلى البيت أمام مدخل مسجد سيدى مرزوق، أصغيت إلى أزيز طائرة. طائرة، طائرة فى السماء، مقدمتها مستطيلة كالسهم، جناحاها إلى الوراء، ميراج، أعرف الشكل لكثرة مطالعتى أخبار الطائرات والطيران، لكن ما أذهلنى طيرانها عند ذلك الارتفاع المنخفض. وتلك النجمة على الجناحين وسط دائرة. نجمة داود. طائرة معادية فوق مسجد سيدى مرزوق. عند مدخل درب الطبلاوى، كيف وصلت إلى هنا ؟ كيف؟

سوف أستعيدها كثيرا فيما تلا ذلك. وضعها الانقضاضى. لونها الأصفر. سيخيل إلىّ أننى لمحت خوذة الطيار داخل القمرة الزجاجية. سأروى ذلك مرات بثقة ومرات بشك لكن المؤكد ذلك التساؤل المروع: كيف وصلت إلى هنا؟ كيف؟

مشى

تتوقف السيارة بالضبط ما بين ناصيتين. يستمر عبور الماشين. رجل بدين. قصير يمشى بميل إلى الجانب الأيمن. يبدو أن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى.

نحيل، خطاه سريعة. كأنه لن يتوقف أبدًا. ينظر من مرتفع طويل، عنقه طويل، ترقوتاه باديتان. امرأة متقدمة فى العمر. تتمايل وكأنها تحمل ثقلاً غير منظور. تتوقف عند بلوغها الرصيف، تتطلع إلى الوراء، فتاة. ينحسر قميصها عن البنطلون، تبدو مساحة من بطنها قرب السرّة، مؤخرة نحيلة، لا أثر فيها لأى استدارة، تتطلع إلى الأمام بتحدٍّ.

يرتدى حلة كاملة، يمسك حقيبة بيده، الياقة مفتوحة، ورباط العنق شبه محلول، يبدو أنه محام، ربما مأمور ضرائب، يسرع منحنيًا إلى الأمام.

قميص وبنطلون مرتفع، لحيته تحيط وجهه، مشيته منضبطة، له قوام الأفراد المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين. منذ أن عرفت عم أحمد الهجرسى جارنا الذى تردد على المعتقل مرارًا، منذ أن عرفت الكثيرين منهم، أكاد ألمح عناصر مشتركة تضفى عليهم هيئة ما، ربما مصدر ما أوشك أن أدركه شكل اللحى. هل يضفى الانتماء إلى حركة سياسية أو إلى اتجاه فكرى معين سمات معينة تتجسد مع الوقت فى ملامح جسدية، للماركسيين طريقة فى التعبير، حركات الأيدى،

ثمة شيء يدرك وأحيانا يستعصى. شاب يمشى متمهلاً. يضع يده فى جيب البنطلون، غير متعجل، يحملق إلى نقطة ما، امرأة أربعينية كما أقدر، متناسقة الجهات. تخطو بثقة، تثنى يدها، حقيبتها معلقة إليها، كأنها بمفردها فى الطريق. يبدو من يرتدى القميص فوق البنطلون، كأنه يترقب شيئا ما سيأتى من خلفه، يلتفت مرتين ما بين ظهوره واختفائه لكل ماش ملامح تخصه. كلٌ كأنه يخطو ولا أحد يسبقه أو يتبعه، إما ناظر إلى أمام أو مطرق قليلاً، لكنهم جميعًا غير متشابهين. لا فى المشى ولا فى الملامح، كل قائم بنفسه، ساع بذاته.

أوراق

أمقت كل ما يمت إلى الأوراق الرسمية. استمارة، مستخرج، إذن، شهادة، إيصال، أتعس لحظاتى عندما أضطر إلى التعامل مع جهة رسمية، شهر عقارى. محكمة، مصلحة ما، الوقوف فى الطوابير أمام تلك النوافذ الصغيرة التى يطل منها موظف منهك. متبرم بكل شيء، بعد زواجى كان لابد من تبديل بطاقتى الشخصية - مازلت أحفظ رقمها حتى الآن ٨١٦٦ الجمالية - بأخرى عائلية، تحرير الاستمارة. الأختام المقدسة. التوجه إلى السجل المدنى، المكاتب

المهملة، الجدران الرمادية، المعاملة الخشنة، الانتظار، كنت مضطراً لأننى سأتعامل بتلك البطاقة مع جهات عدة. اضطررت إلى استخراجها فى ديسمبر عام ستة وسبعين. أحمد ربى أننى لم أفقدها. كنت سأضطر إلى عمل بدل فاقد. أوراقها لم تتهرأ حتى الآن. تبدو صورتى الصغيرة الملصقة إليها كأنها تخص آخر غيرى، كلما سمعت عن مشروع الرقم القومى أحاول تجاهله. صحيح أن الإجراءات تتم بمعدات أحدث. لكن لابد من ملء استمارات والذهاب إلى جهة ما تتبع الداخلية، حتى الآن لا أعرف هويتها بالضبط، مصلحة الأحوال المدنية. أم قسم الشرطة الذى أتبعه؟ أم إدارة ثالثة؟ بعد استخراجى البطاقة العائلية لم يتبق إلا بطاقة التموين، تضمن حصة شهرية من الزيت والسكر والأرز. إنها ضرورية مع تردى الأحوال الاقتصادية وعسر الأوضاع، مضيت إلى المكتب المختص، فوجئت بالطابور. قررت الانصراف، ألا أعود أبدا. عللت الأمر لنفسى بوجود تلك المواد فى الجمعية التعاونية التابعة لنقابتنا، صحيح الأسعار أزيد. لكننى لا أطيق تلك الوقفة. ذلك الانتظار. عندما تحاصرنى الضرورة لتحرير استمارة، لاستخراج شهادة. لإنهاء معاملة، أتقصى عن وجود بعض الوسطاء الذين يقومون بالتخليص، منذ سنوات تسلمت إشعاراً بضرورة استلام طرد قادم من الخارج، علمت أنه يحوى كتبًا، مضيت إلى المطار، يومًا ثم يومًا تاليًا ثم ثالثًا. لم أستعن بمخلص محترف، ظننت إجراءات الكتب ستكون أيسر، غير أن ما يجب أن أقوم به لتسلم عربة فاخرة قادمة من الخارج أو تحفة نادرة مررت به حتى تم الإفراج عن الطرد. أخشى أن أتسلم إشعارا بضرورة تسلم

آخر، أتحسب لذلك اليوم. مع اقتراب تاريخ تقاعدى، بدأ الهم يتصاعد عندى. هذا العدد من الاستمارات والأوراق حتى تتم تسوية الوضع، أوراق صندوق الكفالة. الزمالة. التأمينات. أبديت قلقى لزميل حميم، ضحك قائلاً: إن كل شىء سيتم إنهاؤه بدون أن أبذل أى جهد، يعرف أحد العاملين بقسم الشئون الإدارية متخصص ولديه صلات وعنده قدرة، مقابل مكافأة يسيرة. سيأتى بالأوراق كلها إلى مكتبى. استوثقت منه، فزودنى باسمه ورقم هاتفه، ولم يستقر أمرى إلا بعد اتصالى به وإصغائى إلى تعجبه على قلقى فمازال أمامى عشرة شهور. حمْل وانزاح عنى، أما الشهادتان اللتان لم أفكر فيهما قط. فهما شهادةَ الميلاد. وشهادة الوفاة.

تساؤل

لماذا تستدعى الذاكرة لحظة بعينها دون الأخرى؟

لماذا يهب من العدم أريج لحظة عابرة، بينما تندمج بالفناء لحظات أيقنت يومًا أنها لن تضيع أبدًا؟

هل يمكن التأثير يومًا فنستدعى مانرغب ونقصى ما نكره؟

معصوب

لا أعرف هل صرت معصوبًا قبل رؤيتى لتلك القامة فوق سلم مبنى إدارة المباحث العامة أم بعدها؟، عبر المسار. وخلال نقرات الماضى المباغتة، تتبادل اللحيظات المستعادة الوافدة مواقعها. ما جرى قبلاً يحل بعدًا، رغم تشابه الوضع إلا أن الظرف اختلف. جرى ذلك أحد أيام النصف الثانى من أكتوبر عام ستة وستين. كنت رقمًا فى سجن القلعة. نزيل الزنزانة رقم سبعة وثلاثين. منحتنى ترتيبها، صار اسمى ونعتى ولقبى، فإذا طرقت الباب الداخلى طلبًا لشىء ضرورى. رفع الصوت مرفوض، ممنوع أصلاً، والجهر بالنداء من مصادر العقوبة، رغم ذلك كانت ترتفع الأصوات أحيانًا بالمناجاة أو الغناء، عندئذ يصيح الحارس الذى يرتدى ملابس مدنية آمرًا الرقم بالصمت.

« اسكت ياسبعة وثلاثين. . »

«لايمها واخرس يا أربعة وعشرين. . »

من الغناء ، أو الآهة أعرف صاحب الصوت. لكن الممنوع تمامًا، موجب لأسوأ درجات التكدير محاولة التواصل بالإشارة أو النطق، عزلة المعتقل، مطلوبة، ممهدة للتحقيق، لايترك لوحدته، إنما يتم تجريده من أى وسيلة تساعد على تمضية الوقت. أو درء جزء ولو يسير من الفراغ. الطعام يأتى من متعهد، لم يكن فى المعتقل فرن خاص به للخبيز وتسوية الطعام. المكان محدود السعة، ومن يأتى إليه يمر بالظروف الممهدة للتحقيق. ثم التحقيق نفسه. لا يتبع مصلحة

السجون، لذلك لا يوجد به ضباط وجنود السجون بملابسهم الرسمية، يتبع إدارة المباحث العامة المختصة بالشأن السياسى. بمختلف أطيافه. لذلك يعد مكانًا للتحقيق، معزولا. بعيداً. لكنه ملحق مباشرة بالإدارة، كل العاملين فيه يرتدون الملابس المدنية. لا أخشى الضابط أو الجندى واضح الرتبة فى الملابس الرسمية. لكن ضابطا فى ثياب عادية أو جندى فمما يبعث على التقية وإبداء الحذر خاصة إذا جرت المراسم العادية، كأن يحيى الأقل رتبة صاحب المقام الأرفع.

كان الطعام مصدره متعهد. يجىء من السوق، العشاء رغيف فينو، زيتون أسود، يجرى تسليم الحبات بالعدد، صباح اليوم التالى. أو عند منتصف الليل، أو الفجر، لا يتجزأ الزمن إلى نوبات عمل واضحة أو فترات لكل منها قسمات وعلامات تتداخل أقسام الوقت المتعارف عليها، الثوانى، الدقائق، الساعات، العصارى، الأصباح، الأصائل، يصبح الوقت بلا ملامح، لذلك يبدو للمقيد، المعتقل، الممنوع من الحركة، قصيراً. مما لاحظته بدهشة سرعة انقضاء الوقت فى الحبس الانفرادى، ما أن يشقشق الفجر ويتميز الأبيض من الأسود إلا ويبدأ مرور النهار مروراً سريعًا. يكاد لانطوائه المتوالى أن يُرى. حيرنى ذلك فى المبتدأ، غير أننى بالتأمل والفحص اللذين لم يكن بوسعى سواهما أدركت بعضًا من الأسباب، خاصة خلو الوقت من الحركة والانتقال من موضع إلى آخر، وانتفاء قضاء الأشغال. فقط الرحيل إلى الداخل. الإبحار فى الذات. يبدو أنهم يدركون ذلك فيسعون إلى تكثيف الإحساس به، المتوقع حدوثه نهارا يجرى

ليلاً. فى الأوقات غير المتوقعة تكون المباغتة، كأن يتم فتح الزنزانة فجأة عند الفجر ويجرى الاستدعاء إلى التحقيق. أو المطالبة برد حبات الزيتون إذا كان ماتم تسليمه عشرا فلابد من عشر بذور يحصيها الحارس بعناية. يمكن للمسجون لو احتفظ بواحدة يوميًا أن يكوّن لعبة يسلى بها نفسه. المطلوب تجريده من كافة ما يساعده على قضاء الوقت. الهدف تجريده من الوقت ذاته. بكافة ما يمت إلى تمييز أجزائه أو مراحله مع إحداث الصدمة لخلخلة القوى الحافظة، والتمهيد للحظة الباترة المستهدفة من المكث هنا.

حدث فى اليوم الثانى أو الثالث لوصولى الزنزانة رقم سبعة وثلاثين، ربما اليوم الرابع. لافرق، أن نفذت إلى صميمى فجأة صرخة ثاقبة، مرت كسن موسى مرهف حاد عبر شرايينى، أرجفت كينونتى، زعقة صبى، ربما فى الثالثة عشرة، الرابعة عشرة، نتيجة تماس صعب مع قوة غاطسة، مهلكة، ربما تيار كهربائى جرى توجيهه إلى عضو حساس من جسده، (توالت نفراته، ثم طالت، مع المدة تستنفد القدرة على تلقى الألم والتعبير عنه، الألم يحتاج إلى طاقة لتحمله والتعبير عنه، مع استمراره تنفد القدرة، يتحول الجعير إلى أنين مسموع ثم يخفت إلى مراحل متقطعة، يجض جضاً، من الحبس أدركت أن سماع الألم أوعر من وقوع الألم على الذات، عندما يلحق بنا، يوجه ضدنا، يصبح جزءاً منا، يندمج بكينونتنا فيختفى قدر منه، كما أن المخفف منه وقوعه، فماذا يمكن أن يحدث بعد الصفع والركل والضرب بالعصى والسياط، الألم الحقيقى فى الانتظار، فى الإصغاء إلى تعرض الآخرين له.

بعد انتهاء المرحلة الأولى من التحقيق معى، دفع بى إلى الزنزانة رقم أربعة وثلاثين، تغير اسمى من سبعة إلى أربعة وثلاثين، ترتيب لا أدرى سببه، فى منتصف ليلة أصغيت إلى حركة غير عادية، غير مألوفة، وأى صوت غير مألوف، طارئ على المكان فى الحبس الانفرادى، أى مدة يمضيها الإنسان فى موضع ما تكفل له التعرف على الأصوات الخاصة، لكل مكان أصواته وسماته، أدركت أن نزلاء جددا وصلوا، يجرى تسكينهم، بعد يوم أو يومين من وصولهم انفجرت زعقة الصبى، لم أكن فى حاجة إلى مرور مجرد ثوان لأدرك أنه الألم نفسه.

إنه تسجيل إذن، أدركت ذلك لأن مدة طالت، ربما أغراهم صغر سنى نسبياً بإطالة أمدى وتكثيف إيلامى، لعل وعسى، هذا أمر فصلته مطولاً فى كتاب التجليات، ما يعنينى تلك اللحيظة التى فُتح فيها بابا الزنزانة، الخارجى من حديد والداخلى من خشب مغطى بمعدن، فى فراغه وقف أحدهم كأنه على وشك النزال. خلفه يقف اثنان بيد كل منهما عصا غليظة.

«قم ياسبعة وثلاثين»

تقدم منى. أحاط عينىَّ بعصابة سوداء حجبت عنى سائر الموجودات. تماماً مثل تلك التى رأيتها حول القامة المتحفزة. لا أدرى كيف كان صار وضعى. إذ يختلف ما جرى معى عما رأيته.

أمر بالجرى. اصطدام بجدار، بدرجة سلم، العصى تهوى على جسدى، لا أدرى من أين ستأتى الضربة. ماذا سأواجه فى الخطوة التالية. مع عصب العينين يتركز البصر والحس والشم واللمس وسائر

ما يصل الكينونة بالواقع الخارجى عبر الأذنين، يصير سمعًا كله، تندمج الجهات، يصعب التفريق بين الفوق والتحت. يندمج الخارج والداخل.

وجهة

أول سعيى إلى مرقد أبو الفيض ذى النون الأخميمى. أعرف من المراجع مراقده. لكن صاحبى المطلع رجح ذلك الكائن فى قرافة سيدى عقبة. بعد زيارة مثوى والدتى سعيت إليه. أمام ضريح سيدى الليث. تحت شجرة عتيقة، غامقة الجذور يجلس رجل أشيب اللحية. يبدو مغمض العينين. لكن عند اقترابى أكتشف تطلعه إلى أسفل يتطلع إلىّ بعد إلقاء السلام. أستفسر عن الطريق إلى سيدنا ذى النون. يقول:

«وجه روحك وستصل إليه بإذن الله..»

يقول:

«اقرأ سورة يس والفاتحة وتوكّل على الله ستصل إليه..»

يقول:

«عندما تتوجه إلى الصالحين، تمعن.. سيجىء المدد..»

يقول:

«عندما أقصد زيارة مولانا أحمد البدوى أقرأ الفاتحة فألقى دراويش المحبة يساعدوننى على جانبى الطريق حتى وصولى . . »

يقول :

«إذا لم توجه روحك فلن تصل أبدًا، حتى لو وصلت . . »

كدت أهم بالاستمرار فى طلب التوضيح ومزيد من الإفصاح . لكنه أشار بحزم :

«وَجِّه روحك . . ».

بقرش أبيض

رمضان، أثناء الإفطار يعمق الصمت فى الدرب . الكل حول موائد الإفطار، غير أنهم يختارون هذا التوقيت بالذات، عندئذ أسرع إلى النافذة، أطل، ينهرنى أبى كى أتمم أكلى .

لا يقل عددهم عن سبعة، رجال أشداء طوال القامة، جلابيبهم بيضاء، أحدهم ينقر دربكة، والثانى يعزف على عود، والثالث على كمان، والثالث ينفخ نايًا . أما الباقون فيتمايلون فى رقص منغم، مثير للدهشة والعجب، الجميع ينشد .

«عشرين كعكة بقرش أبيض . . »

كعك متشابك . مربع . متصل ببعضه، مربعات، نوافذ، نوافذ،

لو أحصيتها عددها عشرون، قرش أبيض أى تعريفة، أى خمسة مليمات. المليم لم يعد له وجود وقت هذا التدوين، مايثير دهشتى حتى الآن ضخامة الرجال، وكثرة العدد، جوق متكامل يحيط بعربة صغيرة الحجم. يمكن لأى منهم أن يحملها بيد واحدة لو شاء، مساحتها أصغر من المنضدة النحاسية المستديرة التى يوضع فوقها فنجان الشاى أو القهوة فى المقاهى، لغرابة ما أبصرت يختلط الأمر عندى الآن. يتداخل ما رأيته مع ما سمعت عنه، أو ما تخيلت أنه ممكن أن يكون. أستعيده على أنه كان بالفعل. الموسيقى والغناء المتضمن للنداء أثق منه، مازال فى مسمعى، لكن عدد الرجال، الآلات الموسيقية، الرقص، حجم العربة. هذا ما أشك فيه، لذلك أمعن البصر الحديد، علّى أرى.

شــاى

شتاء عميق تفيض به الغرفة المطلة على فراغ، المبانى المرتفعة عند الأفق، تجلس إلى المقعد الوثير. تطالعنى بعينين تفيضان أسينة، ملامحها أرق مما يتوقع المرء حتى لأخشى ارتفاع درجة صوتى حتى لا أمسها بأذى، أما شفتاها فهلاليتان، ملمس حضورها مثير للشجى.

تزوجت فى السادسة والعشرين. كان هو فى الثالثة والأربعين،

فنان تشكيلى موهوب، كثير الأسفار. أنانى فى كل شىء! تقول إنها تفانت معه لأنها أعجبت بفنه وأحبت شخصه. كل الأمور الشاقة تحملتها برغبة، بترحاب لأنها تحبه وتقدره، لم يفهم ذلك! تتوقف. لا تفصح، لا تقول أكثر مما قالت، وأكتفى بجمال الإصغاء، لا أستفسر ولا أنقص.

منذ عام اثنين وثمانين تعيش وحيدة، تعمل فى دار للنشر، تسكن ضاحية المعادى الهادئة، أحيانًا تقضى فى البيت أربعة أو خمسة أيام بدون أن يسأل عنها أحد. أو يتصل بها أحد، عدا أمها العجوز التى قد تستفسر عنها بين الحين والآخر.

تطرق، تتبلل حواف عينيها بقطرات دمع. تبدو أشد حزنًا، أتناول كوب الشاى أسقيها متمهلاً. يغزر دمعها، تهمس متحشرجة.

«منذ طفولتى لم يمد أحد يده إلىّ بكوب الشاى هكذا. . ».

خبر

يطل علىّ من اللاهناك، يفاجئنى بنظرته الجانبية الهادئة، التى تبدو محايدة، لامبالية. مهونة من أى صعب. أحيانا أراه يمشى إلى جوارى، سواء كنت قاعدا فى مقهى أو مكتب، أو عابرًا لطريق، قامته الطويلة وانحناءته إلى الأمام قليلاً. لم أره إلا مرتديًا الجينز الأزرق، قميصًا ذا جيبين أماميين، وبنطلونا. يده الصناعية ثابتة.

فقد اليمنى أثناء تدريبه عددا من المتطوعين للأعمال الفدائية سنة أربعة وخمسين. درب نفسه على التعامل مع أعقد الأمور باليسرى، عندما انتقل إلى إدارة الشئون المعنوية احترف التصوير وبرع فيه، يقوم بتركيب الفيلم، معالجة الآلة، ضبطها، تركيبها فى الوضع المناسب، عرف بدقته ومهارته فى التقاط اللحظة المناسبة المعبرة عن الشخصية من خلال ملامح الوجه.

كان مقربًا من المشير عبد الحكيم عامر. صاغ له خطبه، خاصة فى احتفالات الثورة كل عام، أشار إلى صدره بيده الصناعية، قال إنه هو صاحب الجمل الشهيرة مثل: «أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط». «أول غواصة عربية بأيد مصرية». بعد هزيمة يونيو وتطور الصراع مع المشير ثم انتحاره اعتقلَ لمدة سنة، قال إنه فى ذروة اقترابه اعتاد أن ينزل من بيته ليركب عربة أجرة عادية ويمضى بها إلى المكتب. ألا يستخدم العربة المخصصة له ليوم واحد أسبوعيا لأنه كان يعلم بمجيء يوم لن يجدها فيه وهذا ما كان بعد خروجه من المعتقل احترف التصوير وأصبح مشهوراً، معروفا بمهارته فى تصوير الشخصيات.

تزوج بعد أن تجاوز الخمسين، قريبة له أحبها فى شبابه، تزوجت وطلقت وشاء قدرهما أن يلتقيا، كانت ملامحه سعيدة، رأيتهما معا. يجلس إلى جوارها يملس بأصابع يده اليسرى على شعرها، يتطلع مفتونًا بها. دكتورة هى. أنجبا ابنة، عندما قابلته صباح ذلك اليوم عند ناصية شارع الصحافة لابد أنها كانت فى الثالثة، كان مغرما بتصويرها وتدليلها وقضاء أوقات طويلة فى اللعب معها.

أراه أمــامى . أمــد الخطى لألحق به ، أطلب منه أن يصــحـبنى للجلوس بالمقهى المواجه ، اعتدت قضاء بعض الوقت فيه ، أدخن المعسل قبل صعودى إلى المكتب ، يقول ببساطة :

«طيب . . حاقعد معاك . . »

لم أتبين أمرًا خاصا فى لهجته التى كانت تبدو لى دائما محايدة ، لامبالية ، تهون من عسر كل شىء وصعوبة كل وضع ، غير أننى رصدت ما استعصى على تفسيرى . إما أنه يعانى فراغا أو يخفى أمرًا .

«مالك . . »

يقول إنه ذهب إلى الطبيب بعد أن توالت عليه آلام حادة ظن مصدرها المعدة . اكتشف أنه ضيق شديد بالشريان التاجى ، راح يصف الأدوية التى أمره الطبيب باستخدامها لمدة شهر مع المشى ، عندئذ تعاد الفحوص من جديد ، عندئذ قد يضطر إلى إجراء توسيع بالبالون . راح يصف بتأن كيفية دخول البالون من خلال الوريد إلى صميم القلب . ثم كيفيةٌ النفخ إلى درجة تسمح بالتوسيع المطلوب . نوع جديد من العمليات فى ذلك الوقت . يقول إن الطبيب يستبعد الجراحة ، هدوؤه محايد ، يطيل النظر إلى نقطة غير محددة . أقول إنه لابد من إنقاص الوزن ، يوافقنى ، بهز رأسه ، يبدو لا مباليا ، يبسط راحة يده اليسرى متعجبا ، متسائلا عن التوقيت الذى أنجب فيه ابنته . وصلت متأخرة . يقول إنها لا تزال صغيرة .

أنطق ما ينبغى قوله فى مثل هذه الظروف . يقوم فجأة ملوحا بيده

السليمة، لا ينظر إلىّ، بعد أيام أسافر إلى المكسيك. من بلدة اسمها موريليا أجرى اتصالاً، يحدثنى ابنى عن أمور شتى ثم ينبئنى بخبر وفاته. يقول إن أزمة قلبية فاجأته أثناء نومه. يقول إن كل شيء انتهى بسرعة، وأنه سوف يصحبنى بعد عودتى لتقديم العزاء. أصغى صامتًا، أراه موليا تجاه المبنى بعد انصرافه من المقهى. أنتبه إلى إطراقته الطارئة، لم تكن من سماته، أتطلع إلى الساعة. فى موريليا الآن الرابعة بعد الظهر. فى القاهرة الآن الثانية عشرة ليلاً. يتساءل ابنى عما إذا كان قد أخطأ لأنه أنبأنى، أقول إنه كان لابد أن يخبرنى..

عــذراء

يسافر معى إلى عُمان، رأيته فى الطائرة، يبدل مقعده، يجيء إلى جوارى، عرفته على المقهى فى الستينيات، سافر إلى لندن. كان السفر محدودًا فى ذلك الوقت، ثم إلى أمريكا، عاد يحمل لقب دكتور. لا يدرى أحد فى أى فرع، أى علم، أى موضوع تخصص فيه، رأيته فى برنامج تليفزيونى، يقدم على أنه محاضر فى جامعات انجلترا. أستدعى صاحبًا لى هاجر فى السبعينيات إلى لندن، عمل مراسلاً لصحف عربية، استأجر مكتبًا فى مبنى جريدة الصنداى تايمز كان يقدم نفسه على أنه يعمل فى الصنداى تايمز، يطلب منى إذا سألنى أحد عنه أن أخبر بعنوانه فى الصنداى تايمز. طبع بطاقات

تتضمن أرقام الهواتف وعنوان الصنداى تايمز، أتطلع إلى الدكتور المسافر معى، يبدو هادئًا، يلوح منه انكسار ما، أسأله مجاملاً عن أحواله، يحدثنى عن زوجته الأمريكية، يؤكد أنها كانت عذراء بعكس الفتيات فى أمريكا، هى بدينة ولم يطلبها أحد، كان هذا أحد أهم أسباب ارتباطه بها، لم يقربها أحد، يسافر مددًا طويلة وهى باقية فى لندن مطمئن، راضٍ، يكرر مرة أخرى أنه تزوجها عذراء، مقفولة تماما، لم تمس . .

أى حاجة

أفاجأ بها، بنت مصرية جميلة، ممشوقة، تعمل فى بار ليلى، تروح وتجىء بنشاط، تتكلم بحواجبها ونظراتها، تومئ لهذا وتبتسم لذاك، عندما سمعت لهجتى. قالت «بلدياتى؟» أبدى لها الود وعندما أسألها عن أحوالها فى هذه المدينة البعيدة عن الأهل، تقول: ماذا يمكن تصور حدوثه للمرأة التى سعت إلى الاغتراب والعيش بمفردها بعيدًا عن الأهل والبلد، أى شىء يمكن تصوره، كل ما يمكن تخيله، أى حاجة تطرأ على البال حصلت. بعد أن راحت وجاءت قالت إنها مرتبطة بشاب سافر إلى بلجيكا، وعدها أنه سيرسل إليها بمجرد استقراره لتلحق به، أرى الآن قوامها الفاره، تغيب ملامحها عنى تمامًا، رغم أننى أشهد لون الزجاج الأزرق للنوافذ والباب ودرجة الضوء الهادئ، أين هى الآن؟

مؤطرة، يسندها حامل مائل، جزء من الإطار، أتطلع إلىّ، هذا أنا، لا تزال الملامح الأساسية لم تتبدل. أحاول أن أتذكر اللحظة التى التقطت فيها. أنظر إلى أعلى، أتقن المكان، أتردد عليه بانتظام، مسجد ومدرسة السلطان حسن، أجلس إلى عتبة المنبر، مكانى المفضل لتأمل الإيوان الشرقى من داخل وصحن المسجد من جهة طلوع الشمس قبل بلوغها منتصف السماء، فى مواجهة الإيوان الغربى، أصغر. أقل مساحة، يخلو تقريبًا من الزخارف التى تعمر الشرقى. باب المنبر خلفى، زخارف من نحاس تغطى مصراعى الخشب. الجدار الغربى لا أراه فى الصورة، لكننى أطالعه من خلال نظرتى تلك، أفكر فى تلك المساحة الهائلة الخالية تمامًا من أى خط أو إشارة، يبرز فراغها تلك الدائرة فى الثلث العلوى من الزخارف الجصية الدقيقة، توجد حالة من التضاد، تبرز الفضاء، ويقويها الفراغ المعلقة داخله، الدائرة دائما فى اتجاه الشرق والغرب، بين يدى مجلة أسبوعية، ما يبدو كلمة من عنوان، أما تاريخ الإصدار تحته فلا يمكن قراءته. وضعته مرة تحت عدسة مكبرة. لكن لم يلح لى شىء كان ممكنا أن أخمن اليوم بالتقريب، كذلك السنة. فى مواجهتى يقف محمد عبد الرحمن مستغرقًا تمامًا. يقوم بتركيب العدسات الدقيقة والفيلم مرتفع الحساسية، يسند الآلة بذراعه الصناعية، يقوم بكل

شيء بيد واحدة، حساس جداً إذا عرضت عليه أى مساعدة، يستنفر الضابط القديم داخله، تبدو لهجته عسكرية باترة لا تحتمل التأويل. سألت عن مصير أفلامه فى قسم التصوير لكن لم يدلنى أحد.

لا أنظر إلى تلك الصورة إلا وأراه. خاصة بعد رحيله المباغت، غير أننى اليوم أطيل التحديق. مختلف تطلعى هذه المرة، كأنى أراها بعينيه هو، من اللامكان، من اللاهناك، ليس بصره هو الذى أبصر به، نظر أى آخر يمكنه التطلع إلىّ بعد انتفاء إمكانية سعيى فى هذه الحياة الدنيا. بعد أن يتبقى منى بضعة صور أحدق عبر الصمت إلى من يرقبنى، هذا إذا بقى اهتمام لمن تتاح له فرصة النظر إلى تلك الصورة المنشورة فى أعداد قديمة من بعض الصحف والمجلات. المحفوظ منها نسخة فى أرشيف الجريدة. لم أسأل عنها منذ سنوات. ربما تكون اختفت مع صور أخرى عديدة بيعت إلى صحف عربية، ثمة مسافة غير مرئية قامت بينى وبينى، من خلالها أنظر إلى الصورة وما من صلة تربطنى بى، فى مواجهتى أنا آخر، أستعيد لحظة وعرة، عندما كنت أعبر ميدان باب اللوق سنة ثمانية وسبعين، فجأة توقفت، انغمست فى حال كان مفتتحا ومدخلاً إلى ظروف صعبة وليال تأهبت فيها للخروج الكلى، رأيت الترام والمبانى والمارة بعينى من سيجيئون بعدى، من سيسعون فى زمن يخلو منى، أكون فيه مجرد ذكرى عند نفر قليل. وقد لا أكون عند أى أحد بالمرة، فى تلك اللحظة البعيدة توقفت مداهماً بشدة الوعى بانتفاء وجودى، إننى لا أمت إلىّ، بصرى لغيرى، أظن أن تلك اللحظة كانت بداية احتضارى الطويل المستمر حتى الآن، يعنف أحيانا ويخبو أخرى لكنه

مستمر، باق، ماذا يكون إذن هذا الحال الذى فصل بينى وبين صورتى تلك، بينى وبينى.

نـــار

يسأل ابنى:

«هما الصهاينة حيدخلوا النار..»

«طبعا..»

«عشان اللى عملوه فى الفلسطينيين..»

«أيوه..»

«طيب.. وهما فاكرين إيه؟..»

«ازاى؟»

«يعنى هما فاكرين إنهم حيدخلوا النار..»

مكالمة

أصباح بعيدة، عطلة. تبدو ابنتى سعيدة عند اجتماعنا، عندما يسرى بيننا مرح. عندما أشاركها وأخاها لعبهما.

فى الشرفة. فى الشمس، تهوى ابنتى تقمص الأدوار، تفترض أننا فى مطعم. أنها زبونة، تطلب منى أن أكون الجرسون، أن أسألها عما تريد أن تأكل، ابنى يقدم الطعام، تتخيل أنها مذيعة، تمسك أوراقا تتلو رسائل الأصدقاء، ترغب فى إقامة علاقات، أن يكون لها أصدقاء، تتحدث عن نهى، عن هند، تمسك بسماعة الهاتف، تجرى اتصالات وهمية، هند ونهى التقت بهما مرة واحدة فى النادى، تقول إن إحدى صاحباتها ستتصل بها، ثم تقول: لو اتصلت بى قولوا لى، حتى الظهيرة لم يتصل أحد، تقول بضيق إن دينا وعدتها بالاتصال، تتابع ردنا على المكالمات، أمها، شقيقها الأكبر. أحيانا تمسك بالسماعة تدير رقما وهميا، تبدأ فى الحديث، إذ أطلب منها وضع السماعة. تقول محتجة: باكلم واحدة صاحبتى، ذات صباح رن الهاتف، جاءنى صوت طفلة: أنا صاحبة ماجى. فى البداية لم تصدق عندما أخبرتها بجدية: مكالمة عشانك. تناولت السماعة، تطلعت إلىّ والسرور يفط من عينيها، راحت تتخذ أوضاعًا مختلفة أثناء حديثها إلى صاحبتها.

علم

تطلب زوجتى من ابنى أن ينقل لها أرقام الهواتف، ابنتى تجلس إلى جواره، تمسك بأقلام وأوراق تطلب أن تنقل هى أيضا (اشمعنى ميدو؟)، تبدأ تحريك القلم فى أشكال دائرية غير مفهومة، تخبط

المنضدة ، إنها تريد أن تكتب أيضًا . تجيء إليّ تمسك ، بورق ، تقول إن معها ورقًا كثيراً لكنها لاتعرف كيف تكتب ، ثم تقول إنها تريد أن تكتب مثل ميدو ، تلامس خصرها بيدها ، تتمهل ضاغطة الحروف :

«علمنى . . »

سما

أمشى فى طريق . تصحبنى ابنتى

«هو عبد المنعم مات؟»

«نعم»

«اشمعنى؟»

«ربنا عاوز كده»

«اشمعنى كل الناس عايشين؟»

«فيه ناس عايشين يا حبيبتى وناس ماتوا»

«هو ربنا شايفنا كلنا . . »

«واحنا كمان شايفينه؟»

«شايفينه إزاى يا ماجى؟»

«مش لما بنقول يارب بنبص للسما؟؟»

عجز

تقول ابنتى :

«بابا مش عاوزه أعجز . . »

«إزاى . . كل إنسان لازم يعجز . . »

«أصلى التعجيز وحش . . »

ثم تقول :

«هو الإنسان بيعجز لما بيعمل حاجة وحشة . . »

«لا طبعا . . هو جدو وستو عملوا حاجة وحشه؟»

ثم قلت :

«الواحد لما بيكبر بيعجز . . »

«طيب . . أنا حبطل آكل عشان ما اكبرش . . »

دائما نقول لها لابد من الأكل حتى تكبر .

«لا طبعا . . الواحد لازم ياكل عشان يبقى حلو . . »

«طيب يا سيدى حاكل وماتزعلش . . »

صلح

تتحدث ابنتى عن زميلاتها، أحيانا تقلد صوت المدرسة، تنادى على الأسماء، تفتح كراستها متباهية بالنجوم الحمراء، تقول إنها نصحت زميلتها ألا تجلس فى المقاعد الأمامية بالعربة لكنها قعدت فاصطدمت بالحافة.

تتصل بزميلتها لطفية، تقول إن صاحبتها زعلانة، تقول إنها على حق.

تقول لطفية إنها ستتصل بزميلتها لتسمع منها.

تعود لطفية لتتصل بماجى.

تتصل الزميلة بماجى.

أخيراً، تم الصلح.

لعب

نتناول الإفطار بنادى المهندسين المطل على النيل، شم النسيم، الأطفال كثيرون، ابنى يجلس صامتاً، ينأى عن أقرانه، يقول إنه لا يعرفهم، مستغرق، لا يلعب مع شقيقته، راغبة فى اللعب، لا تعرف أحداً، تجرى فى الحديقة، تتطلع إلى أطفال أكبر منها سناً يلعبون الكرة، تلتفت إلينا:

« أنا رايحة ألعب وجاية بسرعة . . »

تقترب منهم . .

« ممكن ألعب معاكم؟ »

لايلتفتون إليها، تقول :

أنتم زعلانين منى؟

لايجيبها أحد، كأنهم لم يلحظوها حتى، تقول :

« طيب . . أنا رايحة وجاية بسرعة . . »

تجرى وترجع، تخاطبهم :

« أنا جيت . . »

أحدهم يقترب منها، يحملها، يخطو بها عدة خطوات، ينزلها ويعود، تسرع إلىَّ . .

« الولد شالنى وبعدنى . . مش عارفة ليه؟ »

تضع أصبعها بين شفتيها، تلمح أطفالاً يقاربونها عمراً، تجرى إليهم، تحاول مشاركتهم، لكنهم لا يهتمون بها، تلمح طفلة تحبو، تجرى إليها، تحاول أن تقوم بدور أم، تحنو عليها، الطفلة تخاف، يرتفع صوتها بالبكاء، تقف ماجى صامتة .

أصدقاء

ماجى إلى جوار أمها بالمطبخ، تحكى حواديت عن رجل طويل، أنفه طويل، وأذناه طويلتان. تسأل عن «محمد حبيبى». تعيد تشكيل عالمه، تحيله إليها. أصحابه أصحابها. كل من يذكرهم أمامها، تقول فجأة:

« أنا رايحة لصاحبتى. . »

تلتفت إلى أمها:

«قولى لى ماتتأخريش. . »

«ما تتأخريش يا ماجى. . »

تنطلق تجرى، تمسك بالسماعة. تتحدث إلى أصدقائها المتخيلين.

صورة

لماذا مضيت إليه؟

لا أدرى الظروف التى قادتنى إلى هذا الطابق الأول من تلك العمارة بالضاحية، بالتأكيد كنت فى حاجة إلى صور لتقديمها مع استمارة أو وثيقة ما، غير أن اللحظة الأولى فاجأتنى بما لم أتصور رؤيتى له.

على امتداد الجدار، صورة ضخمة من الخطوط الطولية فى مواضع اللحام أدركت أنها تتكون من عدة أجزاء، موصولة بدقة، قبل أن أبدى طلبى أشرت إليها متسائلاً:

«من التقطها؟»

يقول الرجل هادئ الحضور المشرف على الخمسين كما قدرت:

«أبى.. رحمه الله..»

«إذن.. كان يقف هناك..»

ميدان الجمهورية - عابدين - مازال محتفظًا بمعالمه كما عاينتها فى ذلك اليوم، إلى الشرق مبنى القصر، يتقدمه سور حديدى يفصله عن الميدان، إلى الشمال مبان كانت مخصصة للإدارة والمطبخ والحرس الملكى، تحتلها محافظة القاهرة حاليًا، وقت الالتقاط كانت هيئة التحرير تتخذها مقرًا. فى الناحية المقابلة قاعدة تمثال خالية، كانت مخصصة لتمثال من المفروض أنه للملك فؤاد. لكنها بقيت إلى أن أزيلت، تماما كقاعدة تمثال ميدان التحرير، الكعكة الحريرية الشهيرة.

الشاعر الراحل أمل دنقل، فى البدء تقرر وضع تمثال للخديو إسماعيل، غير أن ثورة يوليو قامت وتردد أنه سيوضع تمثال لأحمد عرابى لكنها بقيت خالية حتى وفاة جمال عبد الناصر، وعشية رحيله تحمس القوم، ودعا توفيق الحكيم إلى اكتتاب الشعب المصرى لإقامة تمثال له كما حدث فى الثلاثينيات مع نهضة مصر لمختار، لم تمض شهور إلا وهوجم عبد الناصر والفترة كلها، ومع تصاعد حدة النقد

والهجوم على المرحلة الناصرية توارت فكرة التمثال وبقيت القاعدة خالية . بعد مقتل السادات طالب البعض بنحت تمثال له يوضع على القاعدة . لكنها هذه المرة أزيلت ، اختفت من الميدان ، شغلني أمرها ، علمت أنها ملقاة في فناء قديم بالقلعة .

الآن لا أذكر قاعدة عابدين ، وسطه حديقة تدور حولها العربات ، في مكانها أقيمت السرادقات الرمضانية في العهدين الملكي والجمهوري ، كان يتلى فيها القرآن الكريم وتوزع المشروبات ، مكانها وقفنا ، والد المصور وقف في شرفة مكتب الملك ، لم يستخدم زمن عبد الناصر . منها ، من تلك الزاوية يمكن الإحاطة بالميدان وبالجمع كله ، كان والده مجنداً في البوليس الحربي ، معاراً إلى إدارة الشئون العامة لإتقانه حرفة التصوير ، تعلمها على يدي مصور أرمني قديم ، الصورة مكونة من خمس لقطات متوالية ، لهذا جاء هذا المشهد الشامل للميدان ، لتلك اللحظة النادرة ، أميل محدقًا ، متأملاً .

«أين أنا؟»

يمكنني تحديد مكان وقوفي ، كنا هنا ، بالضبط هنا ، طلبة مدرسة الحسين الإعدادية ، كنت في الصف الثالث . عندما خرجنا بداية اليوم الدراسي ، أذكر بهجتنا ، خروجنا فيه كسر للمألوف ، يعني أننا لن نلزم مقاعد الدراسة ، مشينا صفوفًا ، عند وصولنا إلى الميدان رأيته مزدحما ، يفيض بمن فيه ، أستعيدهم في مجموعهم ، لا أحتفظ بملامح محددة ، فقط . . ملابس أفرنجية ، أخرى بلدية . نساء ، طالبات ، أعلام .

أمعن فأرى علم مدرستنا ، المثلث ، مكتوب عليه بخط جميل اسم

المدرسة. إذن . . أنا قريب من هنا. أنا واحد من هؤلاء، لكن من ؟ لا أرى إلا نقاطًا، إشارات صغيرة، ضئيلة، أرى نفسى ولا أرانى.

أقف هنا. أصغيت إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر. كان شابًا وقتئذ فى الثامنة والثلاثين، من أين لى أن أعرف ماتبقى له وقتئذ؟ اثنا عشر عامًا، كان صعبا رؤية ملامحه من موضعنا فى مؤخرة الميدان، شاهدته فى مجمله. عاينت حضوره من بعيد، كان قويًا، منه هيبة وله بريق.

ها هو فى الصورة يرفع كلتا ذراعيه، من الصعب تمييز الواقفين جواره، بالتأكيد بينهم شكرى القوتلى، طيب الملامح، من تنازل طوعا، أطلقوا عليه اسم «المواطن الأول»، يتدلى من الشرفة علم كبير، الألوان الثلاثة، نجمتان لونهما أخضر.

هل التقطت قبل أن يعلن الزعيم الراحل الوحدة مع سوريا أم بعدها؟

لا أدرى.

يمكننى تحديد اليوم، هذه الصورة تمت إلى الثانى والعشرين من فبراير عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين، ما اسم اليوم؟ لا أعرف. ذكرت اليوم لارتباطه بالحدث، ولولاه لما عرفت ترقيمه أو شهره، لو بذلت الجهد سأعرف اسمه، لكننى آليت على نفسى فى هذا التدوين ألا يكون عمادى إلا ما أعيه، فهذا حالى بدون معونة أوراق أو مراجع من أى جنس.

ينتهى الخطاب، يضج الميدان. يتقدم الموسيقار محمد عبد

الوهاب، يغنى للوحدة مع سوريا، لعلها المرة الأخيرة التى يغنى فيها لجمهور عام بعد حفلة نادى الضباط عام أربعة وخمسين والتى شدا خلالها بأغنيته «كل دا كان ليه . . »

هل اللقطة قبل الغناء أم بعده؟

تجول نظرتى فوق الميدان، أدقق، أين أنا؟ كم عدد هؤلاء؟ من مات منهم؟ من بقى؟ من فارق الديار إلى المهاجر؟ من سافر ومن عاد؟ من أصبح أبًا فجدًا؟ ومن انقطع استمراره؟

لا أرى الحشد مفصلاً. إنه مندغم. كتلة واحدة يصعب إبراز تفاصيلها، هكذا تتحد الصورة المواجهة لى مع الصورة عندى. داخلى. فى كلا البعدين مطموسة، أحدق أمامى فلا أرانى، أمعن عندى فلا أتبين شيئا عبثًا أحاول اكتشافى، خارجى وداخلى، لست إلا علامة فى حشد، ما أنا إلا إشارة لا تبين، فكأنى أرى اندثارى خلال حضورى . .

حاضر وغائب

أدخل إلى المكتبة التى لا أعرفها إلا نادراً. فقط عندما أجىء إلى هذا الحى، توجد فيها كتب متجددة باستمرار عن الفن المصرى القديم، صاحبها ما زال خلف المكتب، قدم صناعية، يتحرك بصعوبة سيدة شابة غامقة السمرة، قوية الملامح والجسد لم أرها إلا واقفة أمام الأرفف، تقوم بعمل شىء ما، لم أعرفها ساكنة قط. بعد تبادل

التحية والسؤال عن الجديد والتفاته إلى السيدة أو إشارته إلى رف معين. يستفسر منى عن صاحبنا المشترك فتح الله. الحق أن صلتى به عارضة تماما، عرفته زمن تدخينى النرجيلة فى مقهى الندوة الثقافية ناحية باب اللوق، هو صحفى متقاعد، لم أره يدخن إلا مغمض العينين، ممطوط الشفتين، يحيط مبسم الشيشة إحاطة كاملة كأنه يشفطه شفطا، أمضى حياته محرراً فنيا ولم يكن فريد الأطرش يثق إلا به. لا أعرف إن كان مازال يسعى أم أنه رحل عن دنيانا، لكن فى كل مرة قبل أن أتجه إلى العناوين يسألنى:

«أخبار فتح الله..»

أقول إنه بخير، ثم يقول العبارة نفسها تقريبا:

«لم نعرف محرراً فنيا فى مثل كفاءته..»

أجيبه ربما بعين الرد:

«الجيل كله لا يعوض..»

«أى والله»

بعد أن أنتهى، أثناء استعدادى للخروج:

«والنبى لو شفته سلم لى عليه..»

«طبعا.. طبعًا..»

مع اثنين لا تربطهما معرفة وثيقة، أو عندما يلتقى طرفان علاقتهما عابرة، أو يملان بعضهما عندئذ تتم الإحالة إلى طرف ثالث، غائب، يكون الحوار عن الذين لم نلتق بهم منذ أعوام، من نجهل شئونهم

وأخبارهم أكثر من الحوار عنا ، أحيانا يكون المستدعى ليس شخصا بعينه، ربما مكان، أو تاريخ معين، أو علامة ما، عندما يلتقى اثنان فى قطار، يبدأ أحدهما الحديث إلى الآخر، تكون فاتحة الحوار ونقطة الاتصال سؤالا فى الأغلب الأعم عن المكان.

«انت من أى بلد؟»

ذكر الموضع يؤدى إلى استدعاء إنسان ما.

«تعرف فلان؟»

ربما تجئ الإجابة بسرعة «نعم». ربما تبدأ محاولة التعرف باستدعاء أسماء أخرى بالاستفسار عنها، عندئذ يقوى حضور الغائب، يتجاوز الماثلين، المتحدثين، الشاخص كل منهما إلى الآخر المتوسلين بمن ينأى وجودهم وقد ينعدم.

أيام

أضفيت على الأيام سمتى.

لا أدرى متى بدأ ذلك، ربما منذ الصبا المبكر عندما بدأت الفوارق تتحدد بين أمس وغد، ربما أولها الجمعة لأنه الأجازة. لأنه الذى تكتمل فيه اللمة، أصحو على إفطار مميز، لا نعرفه فى الأيام الأخرى خاصة عند اكتمال الصفو بين أمى وأبى. الزلابية، الفطائر الصغيرة المقلية فى السمن مخبوزة فى البيت، شاى بلبن المالكى، فول أبو

حجر. الأهرام، المصرى، اكتمالنا، ذهابى إلى صلاة الجمعة، مسجد الحسين، الأزهر، يوم العطلة، بعد دخولى المدرسة أصبح له بعد آخر، إنه اليوم الذى يمكننى النوم فيه صباحا، لا أرتبط بموعد أضطر فيه إلى الاستيقاظ عند حد معين، هادئ، تكتسى فيه الطرقات خلوا شبحيا، خاصة بعد الظهر، ما بين العصر والمغرب، كثير من المتاجر تغلق أبوابها، عطلة المصالح الحكومية تؤثر على الحركة خاصة وسط المدينة، نصفه الأول باعث على الراحة، نصفه الأخير ما بعد الظهر مصدر للشجى الخفى، خاصة عند خروجى إلى الطرق المؤدية، الخالية، تطلعى إلى سماء خريفية، أو شتوية عندما تصبح أكثر قربا من الأرض، دانية قطوفها. للجمعة ملامح تجمع ما بين الذكورة والأنوثة، ملامح امرأة وقوام رجل، مقطبة الجبين. أرجع هذا التكوين الغريب إلى أسباب وصنوف شتى. ربما التاء المربوطة نهاية الاسم، الصفة الجامعة للاسم، ذلك المسرى الحزين الخفى الذى لا يبين، عوامل أخرى عديدة خفية.

الخميس متصل بالجمعة، مؤد إليها، إنه نهاية أيام الدراسة والعمل. بعد فراغى وعودتى إلى البيت سواء زمن صباى أو كهولتى، دراستى أو عملى، فكأننى فرغت من معركة. آوى إلى وقت يعصمنى من الضجيج، زمن المدرسة نخرج مبكرين عن الموعد المعتاد. رغم ذلك فلا يصلنى به ود، ربما يرجع ذلك إلى خميس مبيض النحاس، كان عاملاً فى محل بياض يقع عند مفتتح الدرب على قصر الشوق، إذ أمضى إليه بالأوعية النحاسية، حلل الطبيخ، الصوانى، يحدق إلىّ بعينيه الواسعتين، المستطيلتين إلى أعلى وأسفل، يشبه شخصية كاريكاتيرية طالعتها فى إحدى الصحف،

أبوحلموس، كان خميس يرتدى قطعة قماش تحيط بنصفه الأسفل، يقف داخل الأوانى الكبيرة، يدير جسده يمنة ويسرة مستخدما قدميه للتبييض، نفور عندى تجاهه. هل لذلك صلة بيوم الخميس؟

ربما.

يوم آخر نخرج فيه مبكرين، يتوسط الأسبوع. يثير اسمه عندى بهجة، الاثنين، وجه وضاء، له إشراق، منه ضوء، أتوقع قدومه يومى السبت والأحد، وأتحسر على فواته الثلاثاء والأربعاء، يطل علىّ من اللامكان، فسيح العينين، مرتديًا متوردًا، باعثا على الرضى.

الأحد غامض، لا أقدر على تحديد ملامح محددة له، لكنه فى مكان ما جهة الغرب، ربما تكون ملامحه أجنبية، أوروبية، هل لعطلة البنوك ومعظم المتاجر التى امتلكها خواجات؟ لا أعرف، لا يمكننى القطع لكن ما بينى وبينه مسافة يصعب اجتيازها لتدقيق الملامح والائتناس بالهوية.

السبت نحيل، يمضى مسرعًا، يحمل حقيبة فارغة، ما مصدر ذلك؟ لاأعرف ولا يمكننى التفسير.

الأربعاء متجهم، جاد، متقدم فى العمر، ربما لأن بلوغه يلى قطع شوط طويل من العمل لايفصلنى عن الأجازة إلا يوم واحد، الخميس، لم يغير من الأمر شيئا، اطلاعى فى وقت متقدم على حقيقة أنه اليوم الذى وُلدت فيه، كان ذلك فجرًا، وعاصفة هبوب تقلع من موضع خفى لتهز النخيل الرواسخ، لم تتغير صورته عندى.

لا أفكر فى اجتماع الأيام، العبوس مع الباعث على الراحة، كل

منها لا يلتقى بالآخر حتى الذين يقع بينهم التماس والمجاورة، تبدو لى الأيام أشد وحدة من أعمدة التلغراف، من النخيل المزروع فى بيئة مغايرة، منى . .

تساؤل

هل يمكن تعيين الحدود فى الزمان؟ تماما كما يتم تحديدها فى المكان؟ هل يمكن الإشارة إلى نقطة ما فى العالم المحسوس، ونقول: تلك لحظة فاصلة بين عامين. أو قرنين. أو عصرين؟ أو لحظة بين لحظتين؟ .

فى طائرة

على المقعد المجاور أستاذ جامعى مشهور بتعدد أسفاره، يظهر كثيراً فى التليفزيون. قبل الإقلاع ضغط الزر. طلب من المضيفة كوب عصير. بعد استقرار الطائرة فى المسار بدأ توزيع وجبة الغداء، راح يأكل بصوت مرتفع، بنهم، مرت المضيفة بسلة الخبز ليستزيد من يرغب، مد يده متناولا ثلاثة. ثم طلب كوبا من الماء. لم يترك لفافة إلا فضها، الملح، الفلفل، اللبن المجفف، سلاكة الأسنان، بعد أن تم

جمع الأطباق قام إلى دورة المياه وعندما عاد كانت تفوح منه رائحة عطر حادة، استنتجت أنه سكب ما فى الزجاجة المفتوحة لاستخدام الركاب.

تقلب فى المقعد، استكشف إمكانياته من إمالة وثنى وإدخال السماعة لسماع القنوات المختلفة، لمح بطانية فوق الرف، ضغط الزر، عندما جاءت المضيفة أشار إليها فأتت بها إليه، فردها بسطها فوق جسده مع أن النهار مازال فى بدايته ودرجة الحرارة معتدلة داخل الطائرة، أغمض عينيه مستخدمًا الغطاء حاجب الضوء، ألمح أنبوبة أوكسجين فوق الرف، أردت تنبيهه إليها، ثمة شىء لم يستخدمه بعد.

مَيْل

مقهى أبو رواش. السويس زمن الحرب، بشر قلائل، شوارع خالية، بيوت مدمرة، أحتسى الشاى الذى قدمه لى عم خليل، تجاوز الثمانين، بقى ولم يهاجر، وحيد، فردانى، لايعبأ بالانفجارات، بالقصف المتصل، ينام بالمقهى ليلاً، يفتح ليرش الأرض بالماء، يكنسها، يحضر العدة، ويوقد الجمرات.

إلى جوارى جاء جندى مطافئ، فوق الخمسين، ملامحه ريفية،

على ذقنه آثار وشم أخضر، تبادلنا التحية رغم خلو المقهى إلا أنه جلس إلى المقعد المجاور لى. لا تفصلنى عنه إلا منضدة مستطيلة. ربما بدافع الاستئناس أو الرغبة فى الحديث. غير أنه لم يلفظ حرفًا.

يدوى انفجار بعيد، لايبدو أنه سمعه، أرهف إصغائى، مع ترددى وامتداد إقامتى أصبحت قادراً على التمييز بين أنواع القذائف، بل ومعرفة اتجاهاتها.

فجأة يميل جندى المطافئ، ميلاً بطيئاً، ثقيلاً، كأن يدا خفية تدفعه وأخرى تحوشه، لكن عند درجة معينة، لحظة بالتحديد، انهار ليستقر فوق الأرض، وقوع ثقيل، أتطلع إليه، يهرع عم خليل واثنان لا أتمكن من ملامحهما.

وجه الجندى هادئ، لكنه تجمد عند لحظة محددة، لحظة توقف عندها، فى عينيه سكينة وما يشبه دهشة، ينحنى عم خليل.

« سبحان الله . . السر الإلهى طلع . . »

يحاول النفخ فى فمه لكن عبثاً، كيف جرى ذلك، أهى نوبة قلبية؟ غير أن عم خليل الذى اعتاد التعامل مع الموت يشير إلى ماخلف الأذن.

سرسوب نحيل، رفيع جداً، بدأ متمهلاً ثم تزايد منحدراً حتى العنق، تجاوزه إلى الملابس، الى الأرض، شظية فى حجم رأس الدبوس، مندفعة من جهة ما، بقايا قذيفة منفجرة، ربما، بل بالتأكيد تمت إلى هذا الصوت الذى أصغيت إليه وحاولت تحديد مصدره

ونوعيته، مجرد ذرة من معدن هائم نفذت إلى الصميم، إلى ذلك المكان الذى جاء إليه تاركاً مكان المقهى، إلى المقعد نفسه الذى كدت أشرع فى الجلوس إليه . .

عصر

أخشى دخولى هذا الوقت، فى هذا المكان.

بالتحديد مع بدء الزوال، رغم وعيى الأتم فإننى أسعى أحيانا إليه، بالضبط ميدان القلعة، مابين مسجدى السلطان حسن والرفاعى. يتكامل البنيان رغم قدومه من عصور مختلفة ليحاصر الأوقات المنقضية، العتاقة تكون أحياناً مجلبة للشجوة، بمجرد خطوى، أسرع إلى مدخل السلطان حسن، كأننى ألوذ من البناء بالبناء، بالوقت من الوقت، رغم أن كافة العناصر ماثلة عندى بوضوح، بكثافة، مسجد محمد على المهيمن المتجهم بمآذنه العثمانية الحادة، مسجد الجو كندار مسجد المحمودية، القباب. وحدة المآذن السامقة، المداخل، الكتابة المتوحدة بالحجر، المراقد الأبدية، تلاقى الظلال بالظلال.

أسارع بالانغماس فى الظل بعبور المدخل الشاهق فأعتزل، أعبر الدهليز، أنتهى إلى الصحن فيبدأ سعيى، أتوحد مع ذاتى، أصير إلى تلاش، إلى حضور، شهاقة الجدران ترفعنى وميل الوقت إلى انحسار يلاشينى أما الأصوات الوافدة فتنأى بروحى، بما لا يمكن إدراكه منى

سواء صدرت عن فرخ يمام أو عربة عابرة أو صياح مكلوم أو هزار عابث، أصداء حيوات عبرت، خطى راح أصحابها. يهتز داخلى لصوصوة عصفور مهاجر. فى مثل هذا الوقت يقل القوم وأحيانا يتلاشون. أصير مفردًا تماما، كأنى أسيح فى برية لا يحدها حد ولا يحوشنى عائق، تتماهى الحدود، بين اللحظة واللحظة. بين القادم والمولى، الأول والآخر. يترقرق عندى دمع قديم أذرفه إلى داخلى يكتمل معنى العصر، أخشع مرتلاً محاولا تجاوز أفقى الضام.

«والعصر إن الإنسان لفى خسر..»

نظرة

كأنى أرى نفسى فى حلم. من خارج، بعينى آخر لا أعرفه، لا وجود له عندى، أقترب من شاطئ ما. أمشى بميل إلى الأمام. يداى خلف ظهرى متلامستان، ممدود بصرى إلى أقصى ما يمكن أن أبلغه، كأنى أتسلق الفراغ أجتاز بالمخيلة ما لا أقدر على عبوره أثناء وقفتى تلك. فى عينى حنين وتوسل بمن لا أقدر على تحديده ورسالة غامضة تنتظر الفض وشروع فى قطع مسافة، ورغبة فى وصل الطريق عبر الفراغ الممتد بمبنى يقيم على الضفة الأخرى من اليم. البحر ممتد حتى الأفق. يتجاوز كل حد، تتحد زرقته بصفو السماء هناك، غير أن هذا المدى مهما طال لابد أن يليه شىء نقطة ما، ضفة أخرى شاطئ أجهله.

أقف عند أقصى حد من البر، رمال تمتزج بصخور، الأمواج المتدفقة من بعيد، المتراجعة إلى حيث لا أدرى تطال أطرافى، رذاذها الخفيف يمسنى، اللحظة ماثلة عندى، لكننى أجهل المكان، لا أقدر على الإمساك به، نقطة من التقاء اليابسة بالبحر، لكن أى بحر؟ أى بلد؟ وقفت عند مواضع مختلفة، فى الشاطئ المصرى، الأبيض، الأحمر، تأملت الغروب فى المحيط من المغرب، البرتغال، بحر الشمال، المحيط الهندى، بحر العرب، بحر قزوين، البحر الأسود الأدرياتيكى، أين بالضبط؟

للأسف لا أقدر على التحديد، كل ما أستوعبه طلتى تلك، زمة شفتى، تدقيقى فيما لا أبصره، تقطيبة الجبين، كأننى أمثل أمامى، لكننى أعجز تماما عن تسمية المكان، نقطة ما من البر، متصلة بالبحر، البحر المطلق، ليست الأسماء إلا أموراً نسبية. هذا متوسط وذاك هندى وثالث هادى، لكن الماء واحد. انبساطه ومستواه واحد. لايزيد هنا ولا يقل هناك. سطح واحد، أساس للقياس، للمقارنة، بحر واحد ممتد، وقوفى عند نقطة منه تعنى إشرافى عليه كله، ليس البر إلا استثناء فى مداه، جزر منعزلة مهما اتسعت المساحة. لكن البحر مستمر سار. يدركنى عند هذا الوضع الذى لا يمكننى التعرف إليه عند استدعائهً ويتجاوز أيضا، مصدر تلك النظرة، بواعثها. أسبابها. حالة ظهورها. لكننى أعرف أنه لا يمكن الإحاطة بوجهتها تمامًا كما لا يمكننى تعيين ذلك الموضع، عند هذا الجسر..

صـورة

قالت : لكنك لا تحتفظ بصورة لى .

قلت : هذا أفضل .

قالت : أمرك عجيب . . كيف؟

قلت : الصورة تلغي الذاكرة . تحددها ، عند التطلع إليها سأرى إشـارة إليك ، وليس الحقـيقـة . دعى ذاكـرتى تحتفظ بملامـحك . أستدعيها على البعد ، أراك كما أشاء . . كما أرغب . .

قالت : لن ترى إلا الوهم .

قلت : أحيانا يكون الوهم أكثر حضوراً . .

ساد صمت ، طال أكثر مما يجب ، وعندما قلت اللفظ الذى ينبه ويصل فقرات السكوت خلال أحاديث الهاتف .

« آلو . . »

لم يأتنى جواب .

وحـدة

ليست أعمدة التلغراف فقط ، الكواكب فى مداراتها أشد وحدة ،

لو جرى لقاء بينها لكانت النهاية، حتى ما يبدو لنا متصلاً فإنه الأشد وحدة، مثل المياه رغم اتصالها. فى العمق الذى لا يمكن إدراكه، فى الينابيع المتدفقة عند السهول والمرتفعات، فى توالى قطر المطر. كل واحدة منقطعة الصلة بما يليها أو ما يسبقها، أقسى الوحدة ما كانت مع اتصال..

أسرتى

سرير معدنى، قوائمه سوداء اللون محلاة بقطع من نحاس، مرتفع، أتمدد فوقه مريضًا بالحصبة، ماأشهده يمت إلى المرحلة الأخيرة منها، حرارة مرتفعة دغدغة تجتاحنى تدفع بى إلى الهرش، جلباب أحمر يغطينى، إنه السرير الأقدم عندى.

عند سفرنا صيفًا إلى جهينة، طوال شهور الصيف أتمدد فوق أسرّة كانت جزءاً من العمارة، المصاطب، فى النهار للجلوس وفى الليل للنوم. أمر على أسرّة من جريد النخل ـ العنقريب ـ فى القرنة، فى أسوان، يصعب تسلق العقارب لقوائمها، أسرة نحيلة لا تكفى إلاى أخرى عريضة، وثيرة كأنها عرش. أسرة عبرتها لسويعات، أخرى اتصلت بها الأسباب، أسرّة تمددت فوقها مرغمًا متصلا بأسلاك وأجهزة، أضغط زرا فتتحرك أجزاؤه لتجعلنى قاعدا أو متمددًا، أسرّة ضيقة تعلو أخرى فى سفن حربية وغواصات.

فى الأسرّة أتحد بذاتى أرتد كما ولدتنى أمى، فرداً، مفرداً، لا أحد يصحب صديقه أو رفيقه فى نومه. تماما مثل الموت. يخرج المرء من الدنيا مفرداً كما جاء إليها. فى السرير أتحد بذاتى. أجول عبرها، أفكر فيما كان، فيما سيكون، فى مطلع فتوتى أخطط وأتحين الآتى، الآن أستعيد مامضى، أجتهد لاسترجاع مايفلت. أتوقف عند تلك اللحظة أو الأخرى، أستعرض مشاريعى، ماتم منها ومالم يتم، أستدعى وجوه من أحببت فى الزمن القصى ومن عبرن بصرى مؤخراً، أجنح إلى أقصى قدر من الحرية. أجرد هذه وأضاجع تلك، ما عرفته بالمخيلة يتجاوز بكثير ما عاينته فى الواقع، كلما دنوت من النوم تبرز لى وجوه منسية. لحظات مولية، أنغام خفية، أنطق مالم أقله فى اليقظة، أرحل إلى حيث يستحيل بلوغى، أطوف المجرات، أتنقل بين الأزمنة، أتحسب للغد، أتوجس، أقاسى الأرق، أعرف السرير الذى أمضيت طفولتى فوقه. لكننى أجهل ذاك الذى سأغمض عينى فوقه إلى أبد آبدين..

ليمـــون

نوبية، شابة، نسق فى تكوينها. نحتها بيّن، ما لا يأفل منها صدرها الأشم، وردفاها المكتملان المتناسقان، أما أخمص بطنها فمنه سحبة تكون هذا الخط الوهمى، غير المنظور ما بين أمامها وخلفها.

تقف عارية وسط حجرة فى ضاحية. تجيء كأنها قادمة إلى نوبة عمل. تذكر بالميعاد الذى يجب أن تنصرف فيه، ضرورة وصولها إلى البيت قبل رجوع الولد والبنت من المدرسة. بعد الظهر تعمل فى عيادة طبيب بحى شعبى، تبدو قلقة، لكنها بمجرد تمددها وإغماض عينيها، تنغمس تماما، تتحرك بتلقائية، كل ما ينتمى إليها يسهم فى تجسيد المتعة. حتى ضمة شفتيها وانفراجهما لثوان، أستعيدها فتأخذنى رعدة رغم انقضاء الأزمنة. أحيانا أبتسم، تمدّ يدها لتبطئ اندفاعى تطلب الانتظار، تخشى الحمل، تتناول ليمونة بنزهير، لونها ما بين الصفرة والخضرة، تشقها بأسنانها، تقسمها إلى نصفين، ترقد على ظهرها، تقربها ما بين فخذيها، تعصرها بقوة متلقية الحمض، تتأكد من إيغاله بتحريك نصفها الأسفل إلى الأمام إلى الخلف، إلى يسار. يمين. أرقبها دهشا. لم أعرف ذلك إلا منها. .

غمـوق

ضوء لا ريب فيه. صاف. مرقرق. صباح الجمعة اعتدت بعد إفطارى أن أنفض الغبار عن أرفف المكتبة عن الكتب. أحرص على القيام بذلك. عبر أيام الأسبوع يتراكم غبار ناعم كالدقيق. أنفضه بفرشاة رقيقة. على مهل، أصغى إلى الكتب المتراصة، إلى المجلدات، إلى الضوء النهارى، ضوء يوم الجمعة الصباحى، يوم الأجازة، حيث لا استيقاظ مبكرًا. لا ذهاب اضطراريا إلى المدرسة،

إلى العمل. أتحرك على مهل، أشعر بملمس الضوء الوافد، المروض عبر زجاج النافذة والستارة الشفيفة.

فجأة، يخيل لى أننى لمحت ضوءاً غامقا، ليس ضوءاً بالضبط. لكنه لون، أحمر، غامق، حاولت التقصى فى الفراغ، إلا أن يقينًا لم يواتنى غير أننى بعد لحظات رأيت ما يشبه ذرات دقيقة جدا. تتزايد على مهل.

لم أعرف مثل هذا من قبل، ليس لدىّ مرجعية تمكننى من مقارنة تلك الذرات، خاصة لونها، وسط بين الأحمر القانى والسواد القاتم، لون لم أعرفه من قبل، رغم تتبعى للألوان ودرجاتها، اطلاعى على العديد منها، أكثر ما يثير القلق ما لا أعرف له مثيلاً أو مقابلا أو مرجعية.

على مهل تتدفق تلك الذرات الدقيقة جدا، الناعمة جدًا، يتحول تدفقها إلى انسيال هادئ ناعم، مجهول المصدر، يتراجع ضوء النهار، يهن فى مواجهة تلك العتمة الغامضة، اتجهت إلى الشرفة، خرجت إلى الفراغ الذى اكتسى بهذا اللون الغريب. الوافد من المجهول البنايات، المواجهة، المجاورة تذوب الحدود، الفواصل ما بينها كأنها تنصهر فى الأتون اللونى، المتدفق فى صمت، فى نعومة، أعود إلى المكتبة مستطيلة الفراغ.

كثافة اللون تحجب الرؤية، الفواصل ملغاة تمامًا، عندما تتلاشى الألوان، ينتهى التمييز، تتداخل الموجودات، ترحل إلى اللاموجود، يختفى سائر ما يمكن إدراكه، تتعطل حاسة إدراك الألوان لانتفاء حضورها، مثولها.

لم أعد قادراً على رؤية الكتب، الأرفف، الجدران صمت المساحات، لانوافذ، لا شرفات، لا يد، لا ذراع، يتلاشى الجسد، يندمج بما حوله، مرغما اضطر إلى الوقوف، لم يعد خارج وداخل، تكتمل العتمة التى يداخلها لون أحمر قاتم، لم يعد ماثلا عندى صرت جزءاً منه لم أعد قائماً إلا بوعيى، إدراكى أن الوجود كله صار لوناً. أو عنصراً لا يمكننى تسميته أو تعريفه، فلا اسم له عندى ولا مقابل، لم أعد أدرى هل حالى واقف أم متحرك؟ تداخل يمينى بيسارى. لا فوق ولا تحت، يختلف الأمر عن تلك الليلة التى أمضيتها فى الهرم. اخترت العتمة كنت أعرف المكان والتوقيت المحدد لانفرادى داخل غرفة الدفن، ظلام مختلف، مغاير لما أدركنى ذلك الصباح صرت إلى عناصرى الأولى، ذرات الغبار الناعم الدقيقة تلك المستعصية على البصر بعد تدفقها السريع المتواتر الذى ألغى الحدود وضيع الفوارق.

لا أعرف كم استمر ذلك. شيئًا فشيئًا بدأت العتمة فى التراجع خلال عودتى صار ممكنًا لى رصد مويجات طويلية، تتفرق عن بعضها. تسرى هنا وهناك من خلال الفراغات يفد الضوء مرة أخرى.

بمفردى أتطلع إلى الوجود الذى يعود مرة أخرى، أرى وقوفى أرفف المكتبة، تراص المجلدات، غير أن ثمة ضوءاً مغايراً يشبه ذلك المنبعث من أفق مافى حلم خاطف.

لم أشأ إيقاظ زوجتى وابنى وابنتى. إنه اليوم الوحيد الذى يمكن لهم النوم إلى ساعة متأخرة بعد أيام من الكد والإرهاق. كيف

أستفسر منهم وهم فى سبات؟ خرجت إلى الشرفة. الحركة فى الطريق عادية. العربات تروح وتجىء، مارة قلائل، شارع فى ضاحية. صباح يوم أجازة. لاشىء يلفت النظر، غير أن ثمة أثرًا ما فى الضوء، هل يخيل إلىّ أم أننى أرى أثرًا ما لذلك اللون الغريب؟ أدرت قرص الهاتف. شروع فى استفسار، غير أننى لم أتم المكالمة، وقفت محدقًا إلى الضوء شاكا فيما عندى!

حلم

تدخل المحبوبة التى همت بها قدرًا غير يسير من الزمان. الصالة لبيتى ولكنها فى بيت آخر، تبدو منكسرة، حزينة، تحمل هدايا ملفوفة، توزعها هنا وهناك. تسلمها لأشخاص لايبدون لى، غير ظاهرين، تبتسم أمام صورة أحد معارفى، تسألنى عن أبى. أقول لها إن أبى مفارق، تقعد فى ركن بفناء قصر قديم زرته بالبرتغال، تبكى.

تساؤل

آلهة القدماء الغاربة.

أوزير الفراعنة، كم من الزمن استغرقت عبادته؟

نعرف بعضًا من إجابة، ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح على الأقل، أى مايتجاوز المدة التى تفصلنا عن الميلاد، وضعف المدة التى تقصينا عن بدء هجرة حبيبنا وسيدنا محمد.

هل كان المصريون القدماء أقل إيمانا بآلهتهم من إيماننا نحن؟

معصوب

مكتب فسيح، يمكن النظر من واجهة زجاجية بعرض الجدار الموازى إلى جبل قاسيون المشرف على دمشق، أول ما طالعنى غير مألوف لى. فى الطريق من المطار إلى المدينة فوجئت بالتدرج، البيوت من أعلى إلى أسفل، من أسفل إلى أعلى. عندما ننظر إلى مرتفع نتطلع إلى الذروة أولا قبل أن نتدرج هبوطا بالنظر، دائمًا يتجه فضولنا إلى غير ما اعتدناه. ما يتجاوزنا ارتفاعًا أو قدرة، أما السفوح فدانية فى المتناول.

فى القاهرة تتقارب الأرض، لا نتوء إلا فى الشرق، ولأننا لم نر الجبال الأعلى. الشاهقة، اعتبرنا المقطم أقصاها. إلى أن أتيح لى المقارنة فأدركت أنه مجرد مرتفعات صخرية.

قاسيون أعلى، لكنه ليس شاهقًا، ربما مالفت نظرى أيضا البيوت المتوالية مع تدرجه. كان لابد أن يمضى وقت حتى أعلم أن مولانا

الشيخ الأكبر محيى الدين يرقد عند سفحه جهة الصالحية وأنه يفيض على المكان كله .

من النافذة العريضة لمكتب مدير إدارة التوجيه السياسى . لا أذكر اسمه الأول ، العقيد إدريس هكذا بقى معى . لا أدرى إدريس اسمه الأول أم الثانى؟ عادة لا يلتقى بكل الصحفيين الذين يطلبون زيارة الجبهة ، لكنه آثرنى بأكثر من لقاء بعد اتصالات من أصدقاء لتسهيل مهمتى . منهم الدكتورة نجاح العطار ، المسئولة بوزارة الثقافة وقتئذ ، لم تكن قد تولتها بعد ، وحسين العويدات مدير مكتب رئيس الوزراء فى ذلك الحين . خصص العقيد إدريس أديبين لمرافقتى . كانا يقضيان الخدمة العسكرية . الشاعر ممدوح عدوان ، والأديب رياض عصمت ، الأول سافر بصحبتى جنوبًا حتى محافظة درعا ، تجولنا فى الخطوط الأمامية ، أما رياض فاتجه معى شمالاً ، إلى اللاذقية . عبر حمص التى وصلنا إليها فجراً . قرأت الفاتحة على روح خالد بن الوليد نزيلها إلى الأبد . وعلق من المدينة عندى ناصية ، ومعرض حلويات كان مفتوحًا ، مرسلاً أضواءه فى عمق الليل اسمه الناطور .

الناطور . الناطور . بعد ثلاثين عاما مررت بحمص للمرة الثانية فى طريقى إلى اللاذقية أيضا . زرت مرقد الصحابى الجليل الذى لم يخلُ موضع فى جسده من أثر طعنة أو بقايا جرح عبر المعارك التى خاضها . ثم لفظ أنفاسه على فراشه كأى إنسان عادى . مما دعاه إلى أن يطلق صرخته : فلا نامت أعين الجبناء!

نقشت هذه العبارة فوق نصب يجمع بين هيئتى الشراع والمسلة أمام المسجد عثمانى الطراز . أديت صلاة المغرب ، قرأت الفاتحة أمام

الضريح. كأنى أقدم على ذلك لأول مرة كأنى لم أطأ المكان قبل ذلك، لم أعرفه، غير أن الوصول إلى معرض الحلويات شغلنى، أن أقف أمام المحل عينه الذى بلغته قبل ثلاثة عقود، فقط أقف، فلم أعد أقبل على الحلوى بكافة أنواعها، ليس اختياراً ولكن قسرا (قال مرافقى إن الناطور كان محلاً واحداً عندما زرت حمص زمن الحرب، لكنه توسع ومن ربحه افتتح معارض شتى. فى المدينة عشرات النواطير، فهل يمكننى تحديد موضع المحل؟)..

قلت لمرافقى الغريب عن المدينة إن ذلك صعب، هكذا اتجهنا إلى المخرج المؤدى إلى الطريق السريع متسائلا عن الأثر الخفى الذى تركه عبورى الأول، وعما إذا كان عبورى هذا سيخلف أثرا آخر؟ وهل سأبلغ المدينة مرة أخرى، فى كل مرة أعى حقيقة كأننى أدركها لأول مرة. أستوعبها وأنسى، مامن موضع أعود إليه وألقاه كما جئته أول مرة.

العقيد إدريس. المكتب الفسيح المواجه لقاسيون. ضوء أكتوبرى ناعم. أحد الأيام الأخيرة من الشهر الذى يسمونه هنا تشرين. البرد بدأ مبكرًا، ما بين حمص واللاذقية هبت عاصفة ثلجية، رأيت خلالها الندف البيضاء أول مرة. كأن أيدى هائلة خفية تُلقى بها فى اتجاه العربة التى كانت تمضى عكس الريح.

العقيد يقرأ أوراقا، فجأة يُفتح الباب، يدخل جندى. يؤدى التحية. يتبعه معصوب العينين قطعة قماش سوداء يبدو أنها معدة لذلك. يرتدى حلة عسكرية لا تخصه، متهدلة على كتفيه.

تساءل العقيد عن السبب الذى جاء بهذا الأسير إلى هنا.

يقف فى الفراغ جامداً، متطلعًا إلى اللاشىء، وجهه ناحية جبل قاسيون، لكنه لايراه، ينتظر الخطوة التالية من مرافقه، فى البدء تطلعت إليه بفضول، أضيق برؤية المعصوب قسرًا. لا أعرف اسمه أو ما جرى له أو ما سيجرى له. لم يعن شيئًا بالنسبة لى أنه إسرائيلى. أو منتم لأى عرق أو ملة. أرقبه بحيدة ظاهرة وعكمة خفية تترك عندى ظلا من شحوب مازال قرين الاستعادة، كلما تراءى لى، عبر المسافة وانقضاء المدة..

عشماوى

منذ ظهوره فى المقهى أختلس النظر إليه، أدقق ملامحه، لم أتعجل الجلوس إلى جواره، لم يكن نادل المقهى يخاطبه بالاسم الشائع لكل من يتولى مهمته ويشغل تلك المهنة، كانوا يخاطبونه «حاج إبراهيم..»، أحيل إلى التقاعد، لذلك بدأ يتردد بانتظام، مرة فى الصباح وأخرى فى المساء، يجلس وحيداً. يكتفى بشرب الشاى خالى السكر والنرجيلة، المقهى لا يقدم إلا التنباك يقصده محامون وقضاة وضباط متقاعدون وتجار كبار، بينى وبين نفسى أسميهم حزب التنباك، بعضهم يجىء من مصر الجديدة وآخرون من المعادى، آخر من توقعت انضمامه عشماوى، المقترن اسمه بالموت، بالقتل

الشرعى، عندما يكون المقهى مزدحمًا، فإن الفرادى مثلى ومثله يمكن أن يتجاوروا، ترتيب يعرفه العاملون القدامى الذين يعرفون عادات ومزاج الزبائن. يكفى أن يتعاملوا مرة أو مرتين مع الشخص. من تجاورنا بدأ حوار مقتضب أحيانًا، مسهب أحيانًا أخرى.

«تصدق وتآمن بالله؟»

«لا إله إلا الله ياحاج إبراهيم..»

قال إنه كان يتمنى انتهاء الخدمة حتى يعود إلى المقهى، إلى تدخين التنباك. لم يكن ذلك ممكنًا أثناء عمله، من الصعب جلوسه بالزى الرسمى، والأوقات المتاحة للراحة، كانت قليلة، محدودة، التفت إلىّ بنظرة جانبية، كنت أتأمل أصابعه الغليظة، الطويلة الممسكة بحافة المنضدة عندما قال فجأة:

«اوعى تكون فاكر إنه الشغل اللى بالك فيه كان واخد وقتى كله..»

قال إن مهامه كانت متعددة، أحدها فقط هذا النوع من العمل، إعدام المحكوم عليهم تنفيذ قضاء الله وقصاصه. انتقل فجأة إلى الحديث عن تنباك زمان، أنواعه الفاخرة من عجمى وأزميرلى ولاذقانى وعدنى، بعض المقاهى كان يقصدها السيدات خاصة اللبنانيات والسوريات، الشوام يعنى، لم يكن يجرؤ على دخولها يكتفى بالمرور أمامها والفرجة. آخر حده كان فى مقهى الفيشاوى. تنباك زمان اختفى. رائحته كانت تعبق المكان، تعطر الشارع أمام المقهى الذى يقدمه لم يعد إلا هذا المقهى الملتزم بالأصول، المحافظ

على مستوى الدخان والمشروب، أصحابه صنايعيّة بحق وحقيق، صمت فجأة، اعتدت سكوته. عندما يلزم يصعب استئناف الحوار معه. بل كدت أثق أنه يتحدث من طرف واحد. لكنه يوهم جليسه أنه يتبادل الحوار، لا ينطق إلا بما يريد قوله خلال أيام عدة علمت منه أموراً عن عشماوى الأول، لم يخلفه من يحمل اسمه، لكن أول من شغل المهمة منح اسمه إلى كل من خلفه، عشماوى الأول يبدو لكل من جاء بعده كأسطورة كان متزوجًا من أربع، أنجب ذرية كثيفة حتى إنه كان يقابل بعض أحفاده فى الحارة فلا يعرفهم إلا إذا أخبروه، كان شفيقًا على المحكوم عليهم، يتمتم فى آذانهم بأدعية. أما يده فيضرب بها المثل فى الخفة والمهارة، خفة فى إلباس المحكوم عليه الطاقية، مساعدته على طلوع الدرجات ثم شد الذراع المتصلة بالطبلية، يقولون إن نبض من قضى فى زمنه لم يستمر عند أى منهم إلا ثوانى معدودات. قال إن نبض البعض يستمر لأكثر من خمس دقائق، بمجرد همودِه تمامًا يقرر الطبيب الملازم التمام. لكن مع عشماوى الأول لم يطل الأمر إلا لثوان كيف؟ هذا مالم يفصح عنه لأحد. سر الصنعة!

إذ يبتسم يبدو مكان الناب الأيسر المخلوع، هكذا تبدو ابتسامته فجأة، وقد تغيب بدون أن ينطق، وأحيانا يفسر. مرة قال أثناء نظره إلى الأمام كأنه يخاطب خفيًا لا يبدو لى:

غريب أمر هذه السيدة. شابة، جميلة، أرق من قماش رمش العين محررة حوادث فى جريدة مشهورة، كانت حريصة على حضور العمليات كلها. تسأل قبلها وتتأكد من المواعيد التى تبقى

سرية دائمًا. لها صلات قوية مع إدارة تنفيذ الأحكام، وجميع ضباط السجن، لو التنفيذ فى الثالثة فجرًا تجدها فى كامل الأبهة. حاضرة كانت تحرص على شيئين: الأول، مصاحبتها للجنة عند ذهابها مكتملة إلى زنزانة المحكوم عليه. لا يمكن إخباره بالموعد. هذا من الأصول المرعية المستوفية، لا يمكن الإخلال بها أبدًا، تحرص على حضور فتح الزنزانة. ورؤية المحكوم عليه عند إدراكه حلول الوقت. أما حرصها الثانى فكان على النزول إلى البئر تحت المنصة وقياس النبض، سبحان الله، ما أغرب خلقه. سمعت من يشنع بها ويقول إنها لم تتزوج، تربى القطط لتخنقها، لكن علم ذلك عند ربى!

أصغيت صامتًا متطلعًا إلى الجهة نفسها التى يسدد إليها البصر، نطقت باستفسارى المؤجل بدون أن أتطلع إليه، أى الحالات التى لا يمكنه أن ينساها؟

لم يبدل وضعه بدرجة الصوت نفسها أجاب:

الأولى لشاب لم يكمل الثلاثين. صحة، طول بعرض، قتل أمه، سمعت كلامًا كثيرًا لكن أستغفر الله العظيم، بعدما سمع السؤال: نفسك فى إيه؟ طلب سيجارة، المأمور جاب له واحدة بلمونت، ولعها له بنفسه، شد نفسًا واحدًا، نفسا واحدًا خلص به على السيجارة، طلع من مناخيره ومن فمه، وبعد ما خلّص بص ناحيتى أنا، قال لى:

«شوف شغلك، أنا أخذت نصيبى من الدنيا خلاص..»

الثانية: مأمور ضرائب، هادئ، محترم، وباين عليه ابن ناس.

بهدوء أملى وصيته، أوصى ببيع الكليتين والكبد والقلب وقرنيتى العينين، طبعاً كتب رسالة قبل ذلك لأن الأطباء كانوا جاهزين لنقل الجثمان إلى مستشفى السجن للحصول على الأعضاء، المهم أنه كرر الوصية ليسمع أعضاء اللجنة، الحقيقة كان أغرب ماسمعته، خاصة السبب.

ما السبب ياترى؟

قال: ليكمل شوار ابنته، كانت تستعد للزواج، وما سابش أى حاجة وراه..

بعد لحظات قال: أما الثالثة فكانت شابة إنما إيه؟ مفتخرة، شعرها ناعم، طويل، نازل على ظهرها سيسبان، مخروطة خرط، صدر إيه، خصر إيه، سبحان من صور، آهى دى اللى ينطبق عليها بحق، تحل من على حبل المشنقة، لبستها الطاقية وأنا باتحسر، ولولا الملامة كنت بكيت وأنا بألف رقبتها بالحبل، ياسلام سلم، لما نزلت أشوف النبض كانت بتنفض زى الحمامة، شلتها هامدة، وأنا طالع الدرج حسيت باللى ما حسيتش به مع الصاحيين!

تطلعت إليه، يعض شفته السفلى، مغمضا عينيه، متحدا تماما مع تلك التى غابت هناك، والتى ما تزال حرارة جسمها تسرى إليه كما قال.

خـــوف

مرة أخرى يباغتنى هذا الخوف الغامض، لا وقت محدد لا مكان بعينه، ثمة شيء مجهول، كامن حيث لا يمكن التحديد أو التعيين، يدفعنى إلى الوقوف إن كنت ماشيًا أو الجلوس إن كنت واقفا، أشحذ حواسى لو موشك على إغفاءة، خوف متجدد، فى كل مرة يتخذ مسارب مغايرة وأوجها مختلفة، كأنه يدركنى أول مرة، رهيفًا. حادًا كالنصل، غامضا كالنبوءة. .

تساؤل

الإلكترون يدور حول الذرة، الذرة تدور حول الإلكترون، القمر يدور حـول الأرض، الأرض تدور حـول الشـمس، الشـمس حـول المجرة، المجرة حول مجرات، الدوران أصل فى الكون، حـول ماذا يدورالكون؟ الكل يدور، حول ماذا؟

تعريف

الآن . .

الآن، عين الوقت، الحاضر .

عند أهل العلم باللغة العربية الأصل أوان، حذفت الألف الأولى وقلبت الواو بالألف فصار «آن» ولم يجئ استعماله بدون الألف واللام بمعنى الوقت الحاضر .

عند الحكماء هو نهاية الماضى وبداية المستقبل، به ينفصل أحدهما عن الآخر، فهو فاصل بينهما بهذا الاعتبار، وواصل باعتبار أنه حد مشترك بين الماضى والمستقبل، به يتصل أحدهما بالآخر فنسبة الآن إلى الزمان كنسبة النقطة إلى الخط غير المتناهى من الجانبين، فكما أنه لا نقطة فيه عندهم إلا بالغرض، فكذلك لا آن فى الزمان إلا بالفرض، وإلا . . يلزم الجزء الذى لا يتجزأ ولا وجود له فى الخارج، وإلا لكان فى الحركة جزءا لا يتجزأ، بهذا لا يمكن تعيين الآن . فلو قلنا : الآن، بمجرد النطق يلحق بالماضى وتستمر الصيرورة، لا يمكن التعيين بين ما ولّى وما سيأتى إلا بالوعى، والإدراك متصل بوجود، لذلك أقول، أنا الآن والآن أنا .

تساؤل

شيد المصريون القدماء الأهرام، رفعوا الأعمدة الهائلة، من جرانيت الجنوب، انتزعوا المسلات، وجلبوا الجلاميد الثقال، لكن.. رغم التصدى لكل هذا البناء لم يشيدوا جسوراً فوق النيل؟ لماذا لم يقدموا رغم ثقتى أنهم كانوا قادرين؟

تساؤل

تدفن الحبة فى التراب، فتنمو منها الحياة وتبزغ الخضرة. يدفن الإنسان فى التراب فيتحلل إلى عناصره الأولى، يندمج به، هل سيمثل بعضى يومًا فى زهرة؟ فى نبتة؟ فى مولود من حيوان أو إنسان لا حضور له ولا سعى الآن.

حلم

أنتظر فوق رصيف ما فى مدينة ما، قاصداً مطاراً لا أعرف اسمه، لأستقل طائرة متجهة إلى جهة غير محددة، غير واضحة، بجوارى مجموعة حقائب تخصنى، تقف حافلة عليها كتابة بحروف أجهلها،

تنتابنى خشية أن أتأخر، أن تفوتنى الطائرة المتجهة إلى اللاوجهة، أسرع بين آخرين لا أتبين ملامحهم بحمل حقائبى، حقيبة حقيبة إلى مخزن الحافلة الذى فتحت أبوابه تلقائياً، بدأت بالحقيبة الأولى، زرقاء مما يمكن حمله إلى الكتف، اكتشفت أنها مفتوحة، بداخلها أشياء لم أستطع تحديد نوعيتها، عدت لأحمل الثانية، الثالثة، كنت أظن أننى أحمل سبع حقائب، ولكن كلما عدت إلى الرصيف أجد الحقائب فى ازدياد وكلها تخصنى، بدأت أخاف عدم اللحاق بالحافلة، أى بالطائرة، زدت من سرعتى، لكن الوقت لم يكف، أغلقت أبواب الحافلة تلقائياً، وبدأ تحركها، وكانت الحقائب فوق الرصيف أكثر عدداً مما جئت به، وكلها تخصنى!

سلام!

النظرة نفسها..

رصدتها فى عينىّ هذه المرة، طالة، ساعية، لها وجودها المنفصل عنى، بدت جلية، واضحة، لم أفزع لذلك، إنما تلقيته بهدوء يتسق مع ذلك الهدوء المنسال من عينى عند تطلعى إلى الآخرين، عند مخاطبة كل منهم على حدة أثناء النقاش.

نظرة اكتشفتها منذ حوالى ربع قرن، عند استعادتها بعد رحيل

أبى، آخر مرة تطلعت خلالها عيناه صوبى، كنت على سفر، من عادتى أن أزور الوالدين قبل أى رحيل للسلام والاستئناس، فى ذلك الصباح بدا الوالد هادئاً، وديعاً، على وفاق مع كافة ما يحيط به وما يتراءى له، مع ما يبطنه وما يظهره، لم أعرف وجهه بهذا السلام من قبل، يبدو دائماً حزيناً، وقد يضحك فجأة لأمر يخطر له فجأة فتدمع عيناه، هذا ورثته عنه، سألنى عن البلاد التى أقصدها، فذكرت له محطاتى المتوقعة، روما، باريس، لندن، ردد: ما شاء الله، ما شاء الله.

لم تطرف عيناه، لم تتموج نظراته، إنما ظلت معلقة فى اتجاهى، هادئة وادعة، متلمسة، عندما لجأت إلى ما تبقى من لحيظات لا سند لها إلا تجسدها فى ذاكرتى، ثابتة، مشطوفة، لا صلة لها بما قبلها أو بعدها، بقيت نظرته تلك، ليس لأنها علامة عند حد معين، والحدود بقدر ما تكون فاصلة، بقدر ما تكون واضحة. كاشفة.

قصدت أمى ليلة سفرى مصطحباً أسرتى الصغيرة، فى اليوم التالى كان مقدراً لى أن أقصد جزيرة مالطة مع عدد من صحبى وزملائى، عند الفجر رن جرس الهاتف وكان نذيرا، ما بين زيارتى لها ورحيلها المفاجئ بضع سويعات، غير أننى هذه المرة لم أكن بحاجة إلى التعرف على نظرتها، خاصة إلى حفيديها، ابنى وابنتى، لفتت نظرى بإسنادها وجنتها إلى راحة يدها، والطلة المتمهلة، الهادئة إلى ابنتى خاصة، رغم إدراكى لها، وقدرتى على تلقيها إلا أننى لم أرجعها قط إلى نظرة أبى الهادئة. المنسابة منه إلىّ حتى بعد غيابه، عندما دخلت لأتوقف أمام رقدتها الأخيرة، أمام ملامح

معاناتها، ازرقاق بعض مواضع وجهها، رؤيتى لمشيبها المكتمل، دائما كنت أراها مرتدية عصابتها، استعدت هذه الطلة، وأيقنت أن ثمة أمراً . .

هذا ما رصدته عندى . .

كأنها امتداد، وصل لما انقطع بغيابهما، لم أكن بحاجة إلى بذل الجهد أو تفحص المدة، تلك نظرتى، نظرتهما، منى إلى من أتطلع إليه تساؤل وطرح لغوامض تستعصى علىّ، ملت إلى الأمام محدقاً، مدققاً، لا . . ليس إرهاقى، ليس نصبى، إنما هذا شىء آخر، عندما دعيت إلى تلك الندوة أبديت خشيتى لصاحبى، إننى مرهق، متعب، لكنه ألح، قال إنه أخبر بقدومى، سوف يبدى الحضور ترحيباً وراحه لمثولى، على أى حال، الجمعية أشبه بأسرتى فمتى أرغب، يمكننى الذهاب.

منذ ست سنوات وبضعة شهور. قال طبيبى المجرب محذراً:

«لا تجامل، عندما تشعر بالتعب لا تستمر . . »

غير أننى جبلت على خجل قديم، بعد فوات الأوان أدرك أن كثيرا مما كبدنى المشاق وأثقلنى عبر فترات متباعدة، وسبب عثرات الفهم وحيدة القصد، ذلك الخجل، ليس فقط فى التفاصيل، إنما طال كليات فاصلة، وأمورا أساسية.

خلال مثولى ومشاركتى لم ينل منى التعب، لم يباغتنى ما أسميه «السحبة» عندما تتميع الموجودات ويتحلل ما انتسب إليه، أوشك على الصياح سعيا لمن يوقف انزلاقى إلى «الهو»، لكننى فى معظم

الأحيان أتحامل، الدفعة لم تأتني من خارج، إنما تبدأ مني.

لم يقع لي شيء من هذا. لا أثناء حديثي ولا عند إصغائي، كنت هادئاً، غير أن تمهلاً أدرك حركتي، قدرت أنه الإيقاع، كل فعل أو شروع يصاحبه إيقاع ما، هادئ أو متوتر أو حذر، أوصافه تجل عن الحصر، يتحدد وفقاً لشروط يبدو بعضها ويصعب إدراك معظمها، لكن بدا الأمر مغايراً، ماضياً صوب وجهة أخرى عندما بدأت أستعيد الندوة من خلال الشريط المسجل، خاصة عند الحديث إلى الآخرين.

لا أتطلع، إنما أتواصل بالنظر عبر هدوء سيال، ساع، يلوح مني تودد، وسلام، ورغبة في الإفصاح عما لا يمكن إدراكه أو استيعابه، للمرة الثالثة أدركها، لكن في هذه المرة مني وإليّ!

كونتيسة

يسكن جان فرانسوا بيتاً عتيقاً، سلالمه حلزونية، خشبية، لوطئها صرير، ننزل بصحبته، تتقدمنا زوجتي، نجتاز الباب الداخلي إلى الخارجي إلى الشارع الجانبي المتفرع من السان دوني، منطقة الدعارة في باريس، إحدى المناطق، بعض الفنانين والمثقفين يقيمون هنا منذ سبعينيات القرن، بل إن الإيجارات مرتفعة، لا يقدر عليها إلا من لهم حيثية، نواصٍ، أرصفة من حجر، مداخل صغيرة، نساء من

أجناس مختلفة، شرقيات، غربيات، يقفن منتظرات، مرة أثناء اتجاهى إلى بيت جان فرانسوا فتحت إحداهن معطف الفراء، عريها تام، لون جسدها ينعكس عليه ضوء المصباح الشاحب، عتيق الطراز، كنت بمفردى، شعرت بالخوف، اللامألوف يثير الخشية، قال جان فرانسوا إن المنطقة تعد آمنة والحوادث نادرة، القوادون أشداء، مهمتهم تأمين الزبائن الذين يحتاجون إلى الهدوء والأمن، فلا يكون الجنس إلا مع الطمأنينة. كذلك يتولون حراسة النساء اللواتى قد يتعرضن لعنف تختلف أنواعه، بعضه يكون مفاجئاً، عندما زرت جان فرانسوا بصحبة زوجتى نبهتها إلى ما ستراه، مثل ذلك لا يوجد فى قاهرتنا إلا سراً، مضى زمن العلانية عام تسعة وأربعين، عندما نجح النائب سيد جلال عن دائرة باب الشعرية، وكان عصامياً له شأن، بدأ بسيطاً وأفنى عمره فى خدمة الناس، وثقوا به فانتخبوه بلا منافسة تذكر، هو صاحب قانون وقف الدعارة المنظمة، وكانت تتركز فى درب طياب المتفرع من شارع كلوت بك وسط المدينة بالقرب من محطة مصر، المنطلق والمنتهى لخطوط السكك الحديدية. كانت العاهرات يحصلن على الرخصة بمزاولة عملهن من مستشفى تخصص فى الأمراض الجنسية قرب ضريح أم هاشم، السيدة زينب، اسمه الحوض المرصود، ويبدو أن الاسم لحوض حجرى أو رخامى أحاطت به الأساطير، المرصود يعنى المطلسم، من يقوم على حمايته الجن أو أرواح الأسلاف القدامى.

مشينا عبر الدروب الضيقة التى تستدعى على الفور ظلال وأزقة القاهرة القديمة، الحفاظ عليها متقن مُراعى، قال جان فرانسوا إنه سيختار مطعما يقدم أطباق الجنوب، ذا خصوصية مما يطلق عليه،

مطاعم الحى، أى مطعم يخص أبناء منطقة معينة، معظم رواده من أبناء المكان، لا يأتيه من بعيد إلا القاصد، المستهدف، ذكرنى هذا بالمقاهى القاهرية، أجودها ما يخص منطقة بعينها، الزبائن يعرفون بعضهم، إذا غاب أحدهم يرسلون فى الاستفسار عنه، الغريب مفضوح أمره، أمزجة الزبائن محفوظة، يظهر أحدهم فيعلو صوت النادل منبها إلى إعداد المشروب الخاص به، هذا بعكس المقاهى النقالى، أى تلك التى تقع على الطرق السريعة، زبون الظهيرة قد لا يعود غداً، وزبون اليوم ربما لن يعود أبداً، لذلك تقل العناية بإعداد المشاريب. قال جان فرانسوا إن هذا المطعم من أجود المطاعم بالناحية.

واجهة رمادية، عتيقة، الإقدام عموماً على ولوج مكان الأكل مع صحبة من مستثيرات الألفة والبهجة، فى القاهرة يندر ترددنا على المطاعم، يرتبط الأمر دائماً بمناسبة ما، بدعوة صاحب أو عزيز، غير أن الأمر فى باريس خاصة وفرنسا عموماً مختلف، المطعم جزء من الحياة اليومية، الذهاب إليه ظهراً يتخلل يوم عمل طويل، وفى المساء مصدر للصحبة والبهجة، خاصة مع الخمر، ربما تقل الألفة فى مطاعمنا لندرة الشرب فى معظمها، لا أدرى.. الحديث عن الطعام طويل، فلأقصر حتى لا أحيد، لكن قبل ولوج المكان، أقول إن موضعه راح منى، مستحيل إدراكه، لم أعرف عند الذهاب إليه تلك العادة التى بدأت فيما تلى ذلك، أن أحتفظ بعناوين الأماكن التى أعبرها وتدع عندى أثراً، لعلى أبلغها مرة أخرى، فندقاً كان أو مطعماً أو متجراً ما..

صالة وثيرة الضوء، أرى الآن وقت تدوينى هذا مصادره، تلك المصابيح العتيقة، المعلقة إلى السقف، يلتف حول كل منها نبات ظل، فيما عدا ذلك لا أرى عبر تحديقى إلى اللحظة التى انقضى على مثولها حوالى ثلاثة وعشرين عاماً سواها، حضورها أفنى ما عداها.

خطوها نحونا إذ نتوقف عند المدخل، كينونتها ترحيبية، خُلقت لترحب، لتستقبل، لتبث الدعة والراحة والطمأنينة والوثارة فى رَوح القادم، المقبل، غريباً كان أو قريباً منها، من المكان.

رؤيتها أخذتنى، كيف يمكن لأوينوثة أن ترق وأن تشف إلى هذا الحد الرهيف، فكأنها مصاغة من نسيج التُلى أو رمش العين الهفهاف الموغر بالدعة، ابتسامتها قادمة، آتية، وليست ساعية أو مقيمة، دائما فى حركة، أما خطوها فكأنه لمس ظل الضوء لسطح الماء.

قميصها رمادى، بنطالها رمادى، حذاء أسود، شعرها ناعم مؤطر لملامح لا أوقن منها ولا أقدر على الإمساك بها أو التدقيق فيها، لم يتبق منها عندى إلا حضورها، وإشارات دالة، فما هى إلا إشارة، وما الإشارة إلا علامة، وليست العلامة إلا رمزاً وإيماءة إلى شىء، قد يكون ماثلاً، متحققا أو غائبا قصيًا.

لحظة دخولها مجال بصرى، تمنيت لو أحصيت السنين المؤدية إليها، وتلك التى ستمضى بعدها، أتمنى خلالها استعادتها، أو بلوغها مرة أخرى، أما استعادتها فهذا ممكن بفضل التذكر، تلك النغمة القصوى، والإمكانية الأسمى.

لم أخف انبهارى، لا عن جان فرانسوا، ولا عن زوجتى، ولا

عن سائر المخلوقات الساعية، المعروف منها والمجهول، الذى لم يُعرف بعد، بعد أن تقدمتنا متأودة، متثنية، موحية بالمسرات كافة إلى المكان الذى سنتناول فيه طعامنا، منضدة، مجرد منضدة، لكنها مرصد ومرقب ومحل، لم أخف انبهارى. قلت لزوجتى، لجان فرانسوا إنها كونتيسة، لم أعرف بالضبط ما يدل عليه لقب الكونتيسة، ماذا يعنى بالضبط، لكننى لم أجد غيره فى ثنايا وعيى، قادم، مستجلب من قراءات أولى لروايات مترجمة تدور حول النبلاء، منهم حامل للقب الدوق والكونتيس، كذلك الدوقة والكونتيسة، إنما أردت أن أرفعها مقاماً يانعًا.

خطرها، خطوها، قادمة، آيبة، تمشى على أطراف أصابعها، خصرها مدار، مؤخرتها مثل يحتذى، صدرها مطل، هادئ، مبين، رمادى، ما يرتبط بها اللون الرمادى، تلك الليلة احتوت ما عداها، كلما أصغيت إلى موسيقى من مقام راست طفت نحوها، ولا أعرف ولا أقدر على تفسير الصلة، لا منطق يسرى. ولا وصلات تفسر. ولا مرتفعًا يوضح، ولا وادى خصبا أو أجرد، ذا زرع، أو غير ذى زرع يفسر، ظلت هناك، هناك فى الموضع، فى المكان الذى أستدل عليه، لن أبلغه قط، لن أعرفه مهما أوتيت، جان فرانسوا الذى أخبرنى أن هذا المطعم تديره أسرة، هى ورجلها لا غير وطباخ يعد الأطباق فى الداخل، لا يراه أحد، أحيانا يخرج لتحية الزبائن آخر الليل، كثرة الزبائن ودقة الخدمة وأصولية الترحيب، لم يعد لدىّ أى شاردة، إلا الخطوط المجسدة لحضورها، فقط ظل هيئتها، هش، لا قوام له، لا ملامح تدركه، لكن مجرد هفوه عندى فجأة يلزمنى الصمت لو كنت فى جمع، ويحفزنى على الحركة لو كنت جالساً،

قاعداً، ينبئنى بإمكانية تفريجى كُربى العظام، وإيجاد المهرب من ضيقى ومضايقى!

خطى

غاب عنى اسم المدينة.

تقع عند الطرف الآخر من بحيرة البالاتون التى تتوسط المجر، غادرت محطة القطار، بيوت متساوية الارتفاع، من طابقين، سلافية الواجهات، اللون السائد أصفر ممسوس بأحمر غامق بعيد، النوافذ تؤطرها زخارف جصية، نباتية، أبواب موصدة، نوافذ زجاجية ستائرها مسدلة، نقوش ترشح الضوء، عند المفرق أبدأ الطريق الصاعد، ألزم الرصيف المبلط بحجارة عتيقة، تفرق الركاب الذين غادروا معى، أصعد الشارع بمفردى.

تخرج من باب أخضر اللون، تستدير لتبدأ الخطو، لم أحط بملامح وجهها، تتقدمنى بمقدار خطوتين، أبطأت حتى لا يظن من يرانى عن قرب أو بعد أننى أتعقبها، أقتفى أثرها، حال قديم عندى بدأ من القاهرة القديمة، ألا أبدو مقتفيا أنثى، بتأثير خجل ما.

تك، تك.. تك، تك..

خطى منتظمة، واثقة، تطلعت صوب الحذاء، كعب، نحيل،

مرتفع، أسود، تنبثق من فردتيه ساقان، لحظة إحاطتى بهما خطر لى ما نصه «نحت متقن . .»، تعلق بصرى بهما. لم أر ما عداهما، تبادلهما، تقدمهما، ما يبدأ أساسه هكذا متيناً، متماسكاً، متناسقاً فلا يؤدى إلا غيره، لم أعلق بأردافها الواثقة، لكن ثمة شيئا فى ساقيها أمسك كينونتى، حاولت تثبيتهما فى عينى، فى ذاكرتى، أسرعت حتى لم يعد يفصلنى عنها إلا خطوتان قصيرتان غير عابئ بما يمكن أن يلحظه آخر، أو ما يخطر لها، لابد أنها لمحتنى عند خروجى، تعرف أننى وراءها، أمشى قبل ظهورها، جئت إلى الطريق، إلى الرصيف قبل بزوغها.

تك، تك . . تك، تك . .

لم يتبق من تلك الرحلة التى استغرقت يوماً واندثر من ذاكرتى هدفها، ربما متحف ما، أو معلم لا أعى منه شيئاً الآن، لكن تتردد عندى تلك الخطى، وتلوح ساقاها فى مواضع لم تبلغها ولا تعرفها ولن أتواجد بها مرة أخرى، تباغتنى فى سكونى، فى رقادى، خلال اللحيظات الفاصلة بين اليقظة والوسن فأنتبه، فى ضجيج صاخب، يلغى ظهورها داخلى كل ما عداها خارجى . . تلك الخطى التى ولت عند ذلك المنحنى . .

ملاكم

يجلس إلى جوارى، متين البنية، طيب الطلة، رغم برودة الجو، يرتدى قميصاً بنصف كم، يُبرز عضلاته المتكاملة، أتطلع إليه، غليظ الرقبة، بارز الفكين، أفطس الأنف.

«من أى بلد؟»

سؤالنا المتكرر مع الأغراب، ربما يعقبه استفسار عن شخصٍ ما، لا وجود له، المهم سلسلة الحديث.

«كينيا..»

«نيروبى إذن..»

«لا.. مدينة صغيرة فى الجنوب..»

«ما عملك؟»

«ملاكم..»

«هل هناك مباريات فى تونس؟»

«نعم.. تصفيات العالم للدورة الأوليمبية..»

يفيض وداً، ابتسامة خفية أثناء نطقه.

«هل تونس أرخص أم مصر؟»

«المستوى متقارب..»

«يعنى، هل أجد ما يناسب الأطفال بأسعار معقولة..»

«فى القاهرة أشياء جميلة ورخيصة..»

«للأسف سأعود عن طريق روما، أمضيت ليلة هنا، لم أر الأهرام . . »

«إذن . . لا بد من عودة . . »

«أنا لا أسافر كثيراً . . تلك رحلتى الثانية، الأولى إلى أديس أبابا . . »

يقول إن زوجته مدرسة، إنه ملاكم محترف، يكسب بعض المال من المباريات المحلية، ليس لديه وظيفة أخرى، يسألنى عما إذا كنت أباً؟

«محمد فى الهندسة، وماجدة فى الثانوية»

«اثنان فقط . . »

الحمد لله . . وأنت؟ »

«أربعة . . »

يبسط أصابعه ويثنيها، ابن خمسة عشر، ابنة ثلاثة عشر، ابن سبعة، ابن عامين فقط .

«رائع . أليس هذا كافيا؟ »

«نعم . . »

«أنت زوج لأربع . . »

«لا . . واحدة فقط . . »

«يكفينى ذلك . . »

يضحك بصوت مرتفع رافعاً ذراعيه إلى أعلى، كأنه يتأهب لصد لكمة، ضحكة صافية، مرفرفة، فيها طفولة، رغم التكوين الجسدى

الهائل، سمعتها مرة أخرى عندما قلت إننى أحب الملاكمة، إنها الرياضة الوحيدة التى تدفع بى للجلوس أمام التليفزيون، مرة واحدة صعدت إلى الحلبة فى المدرسة الإعدادية، تلقيت لكمة أطاحت بى إلى نجوم كثيرة فى عز الظهر، على الفور لزمت مقاعد المتفرجين، بعد صمت يسألنى :

«كم يبلغ سعر فستان طفلة فى تونس مثلاً . . »

«حسب . . لكن لنقل عشرة دولارات، المهم الفصال، إذا قيل لك عشرة قل خمسة بدون تردد . . طبعاً أنت بالذات لن تخشى شيئاً . . »

يضحك . . يضحك . .

«كم يبلغ المهر عندكم؟»

«يختلف . . لكن الزواج عموماً مكلف . . وأنتم؟ »

«المهر عندنا بالبقرة، دفعت فى زوجتى أربع بقرات . . »

يقول إنه يحب زوجته جداً، إنها جميلة جدا، جدا، يجلس يومياً إلى أطفاله، لم يعرف امرأة اخرى خلال زواجه، ليس خوفاً من الإيدز المنتشر فى كينيا. لكنه يحبها وتحبه، ترضيه ويرضيها. بعضهن يرسلن إليه الزهور، لكنه فى السفر يغلق الباب جيداً، كادت أمهرية جميلة جداً أن تغتصبه فى أديس أبابا. يسأل :

«صحيح البنت عندكم لازم تكون عذراء عند الزواج . . »

«طبعا . . وعندكم . . »

يبتسم هازاً رأسه نفياً، تعود ملامحه جادة إذ يسأل :

«طبعا مطار روما لا يمكن أن أجد فيه أشياء رخيصة للأولاد . . »

طىّ

أول ما أراه جلسته المتحفزة، كأنه على وشك الانقضاض، كأنه معلق فى فراغ، لا يستند إلى شىء، لا يقف فوق سطح ثابت، لا يجلس إلى مقعد أو جذع شجرة أو حافة ما، ينتمى هذا الوضع إلى أول لقاء به بعد استشهاد قائد المجموعة تسعة وثلاثين قتال، العميد إبراهيم الرفاعى، إثر معركة عنيفة يوم الجمعة التاسع عشر من أكتوبر جنوب الاسماعيلية، رغم أننى رأيته عند لقاءاتى بإبراهيم الرفاعى إلا أن ملامحه عندى تنتمى إلى تلك الزيارة، المكان يمكننى تحديده إجمالا، شمال القاهرة، ربما فى الزيتون أو مصر الجديدة، عندما التقيت به مفرداً، فى زمن وعر، إذ توقفت الحرب، وفقدت المجموعة قائدها ومؤسسها، الجميع ينتظرون ما سيتقرر بالنسبة إليهم، كل الدلائل تشير إلى أن استمرار وجودها لم يعد له الضرورة والأسباب، إضافة إلى عدم رغبة بعض المتنفذين، ربما لهذا كله بدا عالى نصر قلقاً، متوتراً، حاداً، غير متحفظ فى الحديث، جريئا لا يخشى.

كنت أنطق اسمه «على» فيصححه لى صاحب حميم على صلة

بهم «عالى». بدا لى الاسم متفرداً، غريباً غير مألوف، قبل أن أراه سمعت عنه، بمجرد عودته إلى القوات البحرية من الولايات المتحدة وقعت هزيمة يونيو، كان موفداً لدراسة طب الأعماق، كان فى الأصل طبيباً ثم التحق بالكلية البحرية ليتخصص فى هذا الفرع النادر، غير أن وقع الهزيمة كان ثقيلاً عليه، كذلك الحال على كل من عاش تلك الحقبة وأنا منهم. سعى كل منا للتكيف أو سلك درباً للحفاظ على التوازن، فى تلك الفترة بدأ إبراهيم الرفاعى فى تكوين المجموعة القتالية وإعدادها لمهام دقيقة. خاصة، تتسم بجرأة عالية واستثنائية، كان القوم فى حاجة إلى هذه النوعية من العمليات لبث الثقة واسترداد الزمام.

كيف اهتدى كل منهما إلى الآخر؟ هذا مما يطول الحديث فيه، صارا إلى صلة، منذ لقائهما الأول بداية عام سبعة وستين، وحتى عودة عالى نصر بجثمان إبراهيم من جنوب الإسماعيلية، كما توقعت صدر القرار بحل المجموعة، صرت أتقصى أحوال الرجال الذين لم ألتق بهم شخصياً أو لم أتوقف عند كل منهم أثناء زياراتى لهم، ومشاركتى لهم طوابير المشى التى يخرجون إليها، والتدريبات تأهبا لمصاحبتهم فى دوريات القتال وهذا ما لم يقدر لى.

يقف إبراهيم الرفاعى فى مكتب بسيط، يلامس خصره بيديه، وقفة خاصة به، وضع لم يرتبط بغيره عندى، على المنضدة شريط طويل من صور متتالية لمواقع العدو، لم أنظر ولم أتمعن، يجلس إلى المقعد ضابط يولينى ظهره، ربما كان عالى نصر، ربما كان وسام، ربما كان خليفة جودت، لا أرى إلا إبراهيم، لا يتردد عندى إلا ماقاله.

«إننا لا نمشى كثيراً أثناء العمليات، لكن نحتاج إلى تركيز عالٍ جداًحتى نكون مؤثرين . . »

بعد الحرب، بعد رحيله رحت أطوف بمن صحبوه، بمن حاربوا معه، أتقصى وأدون لعلى أفعل شيئاً ضد الطى، ضد النسيان الناتج عن تغير الأحوال، فى الإسكندرية أصعد إلى طابق ثالث فى بناية غاب عنى موقعها الآن، يخرج ضابط بحرى من مساعدى إبراهيم، يطلب منى أن أخلع الحذاء، أخطو فوق السجاد مرتدياً الجورب، بدا متحفظاً، عيناه تتطلعان إلىّ، يداه تلامسان حافة المقعد.

فى بحرى، الحى الشعبى، يمسك أبو اليزيد بمقود كلب ضخم، يقول إنه سيرجع غطاساً على الشاطئ، أى شاطئ؟ لا أعرف.

كيف علمت أن عالى نصر سافر إلى فرنسا؟ إنه يعمل فى الجنوب مدرب غطس، كيف علمت أنه لم يوفق، أنه عاد إلى مصر وأنه بدون عمل، يمضى وقته فى النادى؟ لا أعرف ولا يمكننى التحديد، غير أن الاهتمام بإنسان ما يأتى بأخباره، قد تنقطع الصلات المباشرة، يتفرق الزمان، الأصحاب، يتبدد المعارف، لكن يتسرب خبر أثناء لقاء عابر، يلتقط أحدهم تفصيلة ما، تتكامل صورة عن إنسان لم نلتق به إلا عابراً، وتتحد تفاصيل هائمة.

عالى نصر يزورنى فى مكتبى، شتان بين انحناءة وأخرى، فى الأولى تحفز وترقب، سخط مضمر، توتر حاد، فى الثانية انكسارة بادية ونوء تحت ثقل، قال إنه يعانى آثار جلطة فى الساق، أدوية السيولة ترهقه.

لا أذكر الآن السياق الذى قدمت خلاله عنوان خياط تعاملت معه زمناً، يقع محله بالقرب من الجامع الأزهر!

يتطلع إلىّ من خلال السطور التى كتبها زميل عرفه عن قرب، هكذا عرفت نبأ رحيله من الصحف، مرة مرتدياً الملابس العسكرية فى تلك الجلسة التى غاب عنى مكانها، ومرة من خلال زيارته الأخيرة، تتبادل المواضع، تتداخل، تنقطع مصادر الأخبار، المعروفة والخفية.

حلم

مدعو إلى استلام جائزة ما فى لندن، سماء ضبابية، مبنى من طابقين للإقامة، أتفقد الحجرة الفسيحة، مغربية، المبنى من لندن، لكن الغرفة فى مراكش، رغم اتساعها وترامى أركانها حتى لتكاد الجدران تبدو نائية عن بعضها، أتعجب لأنها لن تتسع لى.

تساؤل

القطار يعبر الليل، أضواء المدن واهنة، من يعبر الآخر؟

آنيت

تقعد فوق المقعد المستطيل تحت المظلة الزجاجية التى تحمى المنتظرين من سقوط المطر، أو الرياح الباردة، الحادة، ترتدى «جاكت» أبيض من الجلد، تحته بلوفر من الصوف مرتفع الياقة، لم أرها من قبل فى شبيه له، بنطلونها أزرق فاتح، دائماً شهدتها فى الجاكت والبنطلون، بالتحديد ما كانت تظهر به فى المطعم، فى الصباح الباكر قبل موعد الغداء، أو قبل العشاء وأثناءه، تقوم باستقبال الزبائن، أفضت فى وصف ظهورها الوثير، وسعيها الهادئ، فليراجعه من يرغب فى الدفتر الثالث المخصص لرشحات الحمراء، فليست آنيت إلا رشحة بعيدة، عابرة من توابعها.

كنت أقف داخل الحافلة التى تقطع شارع السان جرمان وتنتهى أمام معهد العالم العربى، أقصده للفرجة والمشاهدة، ثمة معرض للخيول فى التصوير الإسلامى، فرصتى المواتية لأرى منمنمات شاهنامه طهماسب الأصلية، رأيتها من قبل فى المتحف البريطانى بين مجموعة الأمير صدر الدين خان، رغم أننى أحتفظ بعدة كتب جيدة الطبع كثيراً ما تأملت ألوانها ودقائقها، لكن . . ما من شىء مثل رؤية

الأصل، تقصى أنفاس الفنانين الذين انحنوا وأبدعوا منذ مئات السنين، تركوا أثراً ما بين السطور وفى خبايا الألوان.

رؤية آنيت، إلى جوارها ابنها الوحيد، كتفاهما متقاربتان، متلامستان، لا أعرف أى حديث يتبادلان؟ ، لن يمضى وقت طويل ويغادران باريس، يفارقان البيت الذى يقع به المطعم، الطابق الذى يقيمان به جزء من ملكية المطعم، حدقت صوبها، وعندما تحركت الحافلة ملت أتابعها حتى خرجت من نطاق بصرى مستوثقاً أننى لن أراها مرة أخرى، إلا عبر وفادتها على ذاكرتى، لحظة من اللحظات، شظية من الشظايا الهائمة فى أفق الروح.

عندما جئت هذه المرة إلى باريس، بعد أن رتبت حاجاتى فى الغرفة العتيقة، نزلت مستهلاً إقامتى بما اعتدته أن أقصد المطعم المجاور والذى أطلقت عليه تجاوزاً «البلجيكى»، لوجود أنواع من البيرة البلجيكية المفضلة والتى لا تتوافر فى أى مطعم أو مقهى، كنت أركن إلى فراغه الحميم والمرايا العتيقة، والبار العامر العريض، اعتدت الجلوس إلى منضدة تواجهه، جاء شاب لم أره من قبل، غزير الشعر، أسوده، أدركت أنه تونسى الأصل، تذكرت صاحبى جمال جزائرى الأب، الذى أطلق عليه اسم جمال عبد الناصر، كان يجتهد ليتحدث بالعربية، بمجرد ظهورى طوال السنوات الماضية يقبل مرحباً، يبدى العناية، ويأتينى بما أفضله دون نطق منى، رغم تقارب الفترات بين مرات ترددى إلا أننى لا أجد ما اعتدته، لا بد من تغير ما، دائما يفاجئنى تبدل الأحوال، مع أننى عرفت تغيرات فى الأشخاص والأماكن والأحوال كفيلة بإفقادى الدهشة، لكننى أحمد

الله أننى مازلت قادراً على إبداء العجب، وعدم القدرة على استيعاب المتغيرات، انتظرت بشوق آنيت، ظهورها المفاجئ قادمة من الطابق العلوى أو من الداخل، حتى الآن لا أعرف مقرها بالضبط، ليس قوامها فقط ونصاعة نظراتها ما جعلها رشحة للحمراء إنما ظهورها المفاجئ الناعم من حيث لا أدرى.

لم أر إلا وجوهاً غريبة، لم أر أيا منها، لا أحد منهم يعرفنى، لم يظهر سيمون زوج آنيت، صاحب المطعم ومديره، كان يرتدى مريلة بيضاء، ظننته فى البداية أحد العاملين، كان أبسطهم مظهراً وأكثرهم نشاطاً لا يكف عن الحركة، من مكان إلى آخر، ربما يقضيان أجازة فى جهة ما، لما طال علىّ الوقت قمت خاوياً، عندى قتامة وخلل فى البداية، بعض ما ألفته لم أجده.

عند عودتى بعد تناول الطعام فى مطعم آخر يقع فى شارع الأمير المتعامد على شارع راسين، لقيت ريشار كاتب الفندق الليلى، يدرس نهاراً بالجامعة ويعمل ليلاً هنا، يقعد وراء المكتب ممسكاً بكتاب دائماً، واسع الاطلاع، قرأ ما ترجم لى وناقشنى مبدياً الملاحظات، كما استفسر عن بعض ما جاء فى روايات نجيب محفوظ الذى أضمر له إعجاباً.

سألته عن سيمون، عن المطعم، عن الوجوه الجديدة، ماذا جرى؟

أتى بيده حركة سريعة إلى أسفل، قال كلمة بالإنجليزية تعنى انهياراً، إنه اضطر إلى بيع المطعم، جرى ذلك منذ أسبوع فقط، المالك الجديد تسلم الإدارة، صباح اليوم التالى عند خروجى مبكراً من الفندق فوجئت بسيمون أمام البيت المجاور، بعد ثوان لحقت به

آنيت تمسك بمقود كلب ضخم لم أره قط من قبل، أمام هذا الباب قابلتها ذات مساء منذ عامين بصحبة ابنها، ترتدى معطفاً أنيقاً، قوى الحبكة والالتصاق بجسدها، لم أرها مشرعة، ممشوقة، باسقة الطلع مثل تلك الليلة، لم أكن أعرف أنهم يقيمون فوق المطعم، وأن المسكن وحيد، فقط للمدير وأسرته. فى تلك الليلة أهديتها زجاجة من زيت العنبر العطرى، اعتدت حملها فى جيبى، أمس تحت أنفى مساً خفيفاً على امتداد ساعات اليوم، خاصة قبل نومى، العطور من نعم الحياة وأسرارها، عرفت خلال الحوار السريع المتبادل أنهم يقيمون فوق، وأن المبنى كله وحدة واحدة، هكذا منذ أن تم بناؤه فى القرن الثامن عشر، لكم بدت لطيفة فى يوم أجازتها تلك بصحبة ابنها، كنت أتطلع إليها قامعاً كل ما ينم عن جذبتى وإسرائى إليها، صوبها، تاركاً أمرى كله لتلك المشاعر الخفية، غير متطلع إلى شىء عدا الأنس بالرؤية والدعة عند الاستعادة.

سألت سيمون عما جرى؟

قال إنه صفى أعماله تمهيداً للانتقال إلى سان مالو، هناك سيبدأ مشروعاً جديداً، لم يقل لى إنه أفلس، إنه واجه أوضاعاً صعبة اضطرته إلى بيع المطعم الفسيح، وإلى قرب مغادرته البيت، عند حديثه إلىّ كان يقف متماساً معاً، كلاهما يواجهانى بالنظرة نفسها، أما الابن فظل صامتاً، كان إلى جوارهما، ليس فى مواجهتى، إنما فى مواجهة الحياة والظرف الصعب، قلت إننى أتمنى رؤيتهما مرة أخرى، فى فرنسا، فى مصر، قلت إننى سأترك لهما بطاقتى وبها كافة عناوينى.

تساءلت أين؟

أشرت إلى المطعم، رفع سيمون يده رافضاً، مردداً: لا . . لا . .

قلت إننى سأتركها مع ريشار، قلت إن الأماكن بناسها، وإننى لن أستطيع دخول المطعم بدونهما، واجهانى بملامح جامدة، لم أدر وقع كلماتى عليهما، على الابن الصامت، لم أدر كيف سيذكرنى فى الأوقات القادمة.

جاكت أبيض احتواها، بلوفر صوف مرتفع الياقة، بنطلون جينز أزرق، حوار لا أعرف عنه شيئاً بينها وبين ابنها، قعدة انتظار لحافلة تقلهما إلى جهة ما، كيف كانا سيبدوان لو أننى لا أعرفهما، لم ألتق بها، ولم أتوقع ظهورها السلسال، وإخفائى نشوتى بطلتها وابتسامها، إلى أين ستسعى، وإلى أين سأمضى؟، وعندما يقضى كل منا فى موضع ناء عن الآخر، هل سيدرى كائن من يكون بما جال عندى، وما حفلت به تلك اللحظة الأخيرة، أثق أنها الأخيرة، ذات صباح خريفى باكر، عند تلك المحطة، طلّتى من داخل الحافلة وانتظارها وحديثها الحميم.

على باشا مدرسة

فى ذلك الوقت كنت أدخن النرجيلة، ولأن استانبول مصدر من

مصادرها، شغلنى بلوغ مقهى أركن إليه، أنفث دخان التنباك الأصيل، كان الفندق المخصص لإقامتنا فى حى أوربى الطابع، قريب من البوسفور، جبلى التضاريس، ترتفع شوارعه وتنحدر، تتفاوت الارتفاعات. يتشابه المبنى مع فنادق عديدة، عمارة حديثة، محددة الخطوط، متساوية النوافذ والشرفات، أما الغرفات فى الداخل فيمكن أن تكون فى أى مكان، كانت استانبول العتيقة فى الناحية الأخرى من البحر، مازلت أذكر نزولى أول مرة قادماً من فارنا المصيف البلغارى مع زوجتى وابنى محمد، كان عمره عامين فى ذلك الحين فقد تاه لوهلة بصره، لا أرغب ذكر ذلك، بعد ليلة عاصفة وصلنا فى الصباح الباكر، لم أعرف النوم، غير أننى أمضيت اليوم كله فى التجوال بأسواقها وأزقتها، لا أذكر أننى لمحت مقهى، أو من يدخن النرجيلة أمام متجر أو محل بعينه، لكننى احتفظت بإجابة رجل تركى فى السوق المصرى، اشتريت منه لباناً عطر الرائحة، اسمه «راحة حلقوم»، قال إن المقاهى التى تقدم النرجيلة محدودة جداً، من يقبل على تدخينها العجائز.

لأننى سأمضى أسبوعا كاملاً قررت محاولة الوصول إلى إحداها، رحت أستفسر، أتقصى، الآن بعد مضى حوالى خمسة عشر عاماً لا أتذكر من دلّنى على المقهى، رغم أننى دونت يومياتى من قبل، لكننى ألزمت نفسى فى هذا التدوين أن أسجل ما يرد على ذاكرتى مباشرة وبدون الاستعانة بأى أوراق أو تسجيلات صوتية أو مرئية، ليس عن كسل، إنما لرغبة فى تدوين الأويقات وما تخلف عنها كما تبدو خلال ذلك النثار الذى يهمى علىّ، يباغتنى حيث لا أتوقع، ويرد علىّ فى

لحيظات غامضة، لا تفسير عندى للبواعث، أو القوة المحركة لهذا النثار!

«على باشا مدرسة»

فى البداية لم أفهم، تطلعت إلى محدثى، لا أذكر ملامحه الآن، ولا بأى لغة تحاورنا، لكنه لم يكن مصرياً بالتأكيد، نُطقه للفظ مدرسة فيه تفخيم، كأن الميم أوسع استدارة ويعقبها حرف ألف، قال إنه مكان مشهور، يكفى أن أذكر الاسم لأى سائق تاكسى.

توقفت العربة أمام سور رمادى، يتخلله باب ضيق، شارع ممتد، بناياته غامضة، رمادية اللون، شأن معظم مبانى استانبول القديمة التى تلى كوبرى جلطة، ثمة مرجعية أخرى، قباب ومآذن مسجد محمد على فى قلعة الجبل بالقاهرة، رغم أن استانبول وعمائرها تعد أصل عمارة المسجد، لكنه عندى ركن ركين، إذ رأيته أولا واعتدته فأصبح قياسى على الفرع وليس الأصل، ذلك أن مرورى به عابر، أما الفرع فعنده إقامتى. الآن، أكاد أوقن أننى لن أبلغ هذا المقهى مرة أخرى، وربما استانبول أيضا، لكل مدينة لون غالب، متصل بها، والرمادى مناسب لفضاءات عاصمة الخلافة العثمانية المندثرة، تطلعت إلى الباب، لم ينبئنى بأى إشارة دالة على وجود مقهى.

ممر طويل ضيق، فوجئت بشواهد رخامية مزروعة فى الأرض، تحيطنى من الجانبين، بعضها مستقيم، بعضها مائل، يتماس مع آخر، أو يتقاطع معه كأنهما فى مبارزة، الأعمدة من رخام، على كل منها آية قرآنية بالعربية، وكتابة بالتركية مقترنة بسنة هجرية، أعداد واضحة كتلك المستخدمة فى المشرق، هندية الأصل كما يقول البعض، عربية

عند آخرين، لأنني غريب يمكن لي أن أخشى، في الترحال أكون دائماً على حذر، متوقعاً الأذى، مترصداً المباغتة، الغريب دائما ضعيف حتى لو كان في جمع، غير أن ما آنسني رائحة التنباك، قوية. نافذة رغم الفراغ، مؤصلة، أفضل رائحة الدخان، خاصة تنباك النرجيلة العدني واللاذقاني والعجمي. طبعاً.. بطُل ذلك الآن، بل صرت إلى نفور من أي تنسم، لكن في ذلك الغسق ائتنست به، مع كل خطوة تقربني من مركز المكان.

سور صغير آخر، إلى يمينه ما يشبه قبة صغيرة مرفوعة على أعمدة، ربما يرقد تحتها شيخ يحيط به المريدون، المتطلعون عبر الصمت من خلال تلك الشواهد، ربما هو علي باشا نفسه وتلك مدرسة. يمكن للاسم أن ينطق هكذا. مدرسة علي باشا، بدلاً من علي باشا مدرسة، في رقدة الأبدية تراتبية أيضاً، في القرنة غرب الأقصر، وادي الملوك، على مقربة وادي الملكات، المرتفع المجاور مراقد النبلاء والوزراء ورجال البلاط، في واد صغير متوار مقابر الفنانين والعمال الذين نحتوا ورسموا ولوّنوا، في مراكش، وقفت على مقابر السعديين، الملوك في الوسط، والوزراء، كبار رجال الدولة، رجال الحاشية، كلما قلت المرتبة ابتعدت المراقد.

عند القبة توقفت، تطلعت دهشا.

ساحة مستطيلة على الجانبين ما يشبه الإيوانات، مقاعد حجرية مفروشة بسجاد عرف نقوشه جيداً، ألوان صريحة، أحمر، أزرق، أصفر، أبيض، أسود، الأخضر أخضر والياقوتي ياقوتي، كل منها ليس شيئاً آخر.

فى المواجهة مقصورة مغطاة بزجاج يكشف الجالسين داخلها، فى الركن منها مكان إعداد المشروبات، أما النرجيلات فتجىء من موضع متوار، لم أتبينه جيداً، بينما يلف رجل حاورته فيما بعد، يرتدى قميصاً فضفاضاً وسروالاً واسعاً، كردى من ديار بكر، يعرف بعض الألفاظ العربية، الشاى يقدم فى أكواب نحيلة الخصر، صغيرة الحجم، لم أر مثلها إلا فى مقهى الفيشاوى القاهرى القديم، يُقدم فيها الشاى الأحمر والأخضر، ثم عرفتها فى العراق، كافة المقاهى هناك تقدم الشاى فى تلك الأكواب، اسمها «أستكان» ولم أدقق اللفظ.

النرجيلة فى المقهى كاملة الأوصاف، سهلة الحضور، لطيفة التكوين، متناسقة الأجزاء، بدءاً من الوعاء الزجاجى الملىء بالماء، والخصر المعدنى، إلى الرأس الفخارى الذى يوضع فوقه التنباك المبلل، بطىء الاشتعال، زكى الرائحة، دافئ الطعم، أما «اللّى» فمحاط بقماش من صوف، كأنه سجاد قديم بدون وبر، ملون.

رسوت فى المقهى، يومياً بعد انتهاء الندوات والمناقشات، فى الخامسة، أركب عربة الأجرة من أمام الفندق، أقطع الطرق من المناطق الحديثة إلى القديمة، أجتاز الممر، وأحيى الشواهد باللمس أو النظر، لم يكن حدها بداية الساحة، إنما كانت تنتشر موزعة، خلال الإيوانات، وراء المقصورة، ولأننى أقصد المكان عينه الذى عرفته أول مرة، تصادف أن شاهداً أسطوانى الشكل، محفوفاً بكتابة، ينتهى بعمامة من حجر هناك، باستمرار كأنه يتطلع إلىّ، ثمة حوار جرى، لكن لا يمكن تحديده، أو ذكر تفاصيله، مجرياته، أستعيد وقتى

فيتردد عندى يقين أن حواراً جرى، منى تجاه الحجر، أو بقايا الراقد تحته، تشير إليه تلك الحروف الملتفة، فى اليوم التالى خشيت أن يكون موضعى مشغولاً، لكننى وجدته شاغراً، لزمته حتى يوم سفرى.

عادتى أن ألزم مكاناً بعينه، فإذا تغير يداخلنى قلق، بدءاً من بيتى ومكتبى إلى مقهاى المفضل فى القاهرة القديمة، إذا وجدت من يجلس مكانى أدور مرة أو مرتين، أقطع الوقت حتى يذهب من شغله، أحياناً يتدخل القوم بالهمس والإشارة فيفارق الزبائن منتقلين إلى موضع آخر، لكننى أقبل ذلك بصعوبة، لا أحب إزعاج الآخرين، وطبعاً لخجل متأصل. هذا حالى فى مدينة إقامتى ومقرى، لكننى إذا نزلت موضعاً لفترة قصيرة أو لمدة لها ابتداء وانتهاء، فلا تتوثق الصلة به إلا إذا ركنت إلى موضع يمكننى منه النظر والتطلع، ومتابعة القوم، كذلك الخلوة بالذات أو بمن أحب، إذا آنست من المكان ألفة وصار إلىّ وصرت إليه. بل إننى أدعو بعضا من صحبى وكأننى أدعوهم إلى بيتى. يكتمل الأمر مع توثق الصلة ببعض ممن لهم تمكن، سواء كان الموضع فندقاً أو مقهى أو مطعما، وهكذا صار لى معارف فى بلاد ومدن أتردد عليها، أحياناً أغيب مقدار سنة أو أكثر فألقى من الحميمية والترحاب ما ألاقيه من أهلى عندما أزور مسقط رأسى.

دعوت بعضا من الصحب المشاركين فى الندوة إلى المكان، بدا الكردى لطيفاً، راغباً فى تفخيمى أمامهم، مع أن معرفتى به تسبق مجيئهم بثلاثة أيام، لكننى عرفت عنه وعرف عنى، خاصة بعد أن أخبرته بإصغائى إلى إذاعة التقطت اسم بلده منها، ديار بكر (مع كسر

الكاف)، ذكرت له أننى زرت كردستان العراق، وأن جبالها وقراها من أجمل ما رأت عيناى. عندما رأى صحبى أصرّ أن يأتى بالشاى والقهوة من المقصورة مع أن عمله تقديم الجمرات إلى مدخنى النرجيلة، صار يجىء على فترات متقاربة ويسأل بالعربية: «تحتاجون شيئاً؟»

قال صديق جاء معى من مصر:

«تجلس فى مقبرة؟»

أشار إلى الشواهد المطلة، تطالعنى الآن عبر تلك السنوات الفاصلة، الرؤوس المستديرة التى تنتهى بها، نسيت كل الزبائن الذين تطلعت إليهم، بادلتهم النظر، حتى ذلك الاسكتلندى المرافق لصاحبته الجميلة، المتعلقة به، طلب منى أن أعلمه تدخين النرجيلة لأن دواراً لحقه بعد أول نفس، نصحته بالتمهل، بشفط أنفاس قصيرة، متباعدة، رغم أنه بدا مبهوراً بالاكتشاف، لا أقدر على استدعاء ملامحهما، فقط مجرد هيئة جلسته، حتى الكردى الذى بادلته الود، اندثرت ملامحه، فقط مشيه، تقديمه الفخم، تسوية وضعه فوق التنباك، هيئته يمكن أن يشغلها أى إنسان آخر، بأى اسم، أما تلك الشواهد فكأنها تطالعنى عن البعد، بأوضاعها، بتجاورها، بتقاطعاتها، بما حملت من آيات بينات وأسماء مجهولة، وسنوات غياب، وإشارات إلى حيوات سعت، أجهلها تماماً!

انفجار

مدينة أوروبية، ربما روما، أو بودابست، المؤكد أنه طريق عريض يقع به المقر الرئاسى، الطريق مزدحم، عربات متوالية، الفواصل بينها ضيقة، يمرق فجأة شاب يرتدى خوذة وسترة جلدية، ينحنى فوق دراجة بخارية ضخمة، يروغ بين العربات، أمامنا سيارة سوداء، أباغت بنصوع توقفها، نزول شابة ترتدى ثوباً أسود، جرى ذلك عند التوقف قرب إشارة المرور الحمراء، تبدو فى حال ما، يغلب عليها نشوة، ربما ليديها المرفوعتين صوب الأعالى، إليها يتجه وجهها أيضا، حافية القدمين، بسرعة تفك أزرار الثوب القاتم، بحركة سريعة تلقيه أرضاً، ينفجر جسدها ضاويا ممرمراً الفراغ، تكوين أنثوى، مصدر مكتمل، ألق الحضور، استدارات الردفين المشهرين عبر تقببهما المكتمل، أما النهدان فمرفرفان فوق العُلا المرتجى، أراها من شتى جهاتها، من الأمام، من الوراء، كأنى محلق حولها، لم تظهر إنما انبثقت، لم يدم ذلك إلا ثوانى، تمتد أيد، أيد فقط، تجذبها إلى الداخل، تقاوم، مع المقاومة يتخذ الجسد المحكم، المنفلت أوضاعًا تلحق بى الدوخة، يكتمل اختفاؤها، تواريها داخل العربة، لا أدرى هل امتدت يد لتلتقط الثوب الذى افترش جزءاً من الطريق، ما أعرفه أنها صارت عندى علامة، ضوءاً ساريا فى ما لا يمكن تعيينه . .

نسمة

إنه المساء، حر، رطوبة، رغم ضيقى بما يُسفر عنه الحال من عرق، من أرق، إلا أننى أصغى إلى الفراغ، أرقب الإيقاع، حتى يحين هبوبها، نسيمة لها دلالة، أهميتها من ندرتها، من فرادتها، أرقبها، أقيم لها الأمكنة والمراصد، أتساءل عن النقطة التى بدأت عندها الرحيل صوبى، عن مجريها ومرساها، ليست نسيمة بالضبط، إنها بشارة بالنسيمات التى ستهل مع لواح الخريف، وتمهيد للشتاء، تسرى إلىّ، تلمسنى، تنبهنى إلى استمرارية الدورة، قرب أفول القيظ، إنها همسة كونية لمن يفطن وينتبه..

شتاء

إنه الشتاء. أصغى إلى دنوه، إلى حلوله، إنه الضوء الرمادى، إنه ذلك الصمت القادم من تعاقب سحيق البعد، إنه إدراك الفراغ القديم، وعى بدورة الأفلاك، بالطَّيْ الحتمى وبترحالها الذى يدفعنا رويداً، رويداً إلى النسيان، إلى اللاشىء، إلى الغياب، تتخطانا إلى غيرنا، ليس مثل اقتراب الفصول مثير للانتباه إلى التغير، إلى التبدل، إلى الانتقال، إلى الرسو، إلى التمام، ذلك الهدوء الصقيل، يدركنى سريانه الهميس، لعل وعسى!

دعاء

حديقة نورهام، منسقة، مريحة، خصبة، درجات اللون الأخضر كافة، يمر بها نهير سريع، متدفق، أجرع الهواء النقى، رجل وامرأة يرتديان الملابس الرياضية، يعدوان، صناديق للقمامة على الجانبين.

بغتة..

تدركنى موجة شجن عفية، تشملنى، ابنتى تلوح ساعية فى لحظة ما، مكان ما، وحيدة، حائرة، أخشى عليها المجهول، أن يهاجر شقيقها، أن تسعى وحيدة، أستدعى الآخرين الذين أصبحوا بمفردهم بعد تفرق ذوى القربى وأبناء الرحم الواحد، لا تجمع الحياة إلا لتفرق، رثيت لها من بُعدى مع أنى أسعى، أشفقت عليها من اغترابى الأبدى عنها رغم أنى ماثل، فى هذا المكان النائى عن موضع إقامتها دعوت الله أن يظلا على مقربة، ألا يتفرقا..

قول

قبل ركوبى القطار فائق السرعة، بزغ قول سمعته يوماً، لا أدرى من قاله على مسمع منى، ربما قرأته، لا يمكننى الجزم لكنه ماثل عندى، جلى:

«لكى تسافر، لابد أن تلقى بنفسك إلى الطريق كى تضيع.

لن يكتمل سفرك إلا بفقدك . . »

رسالة

إنها لحيظات ما بين الفجر والشروق، مستيقظ، متطلع إلى استئناف النوم، لكننى أفيض بتوقع وصول رسالة ما، رسالة غامضة المضمون من مجهول، غير واثق من تسلمى لها، لا أعرف الوسيلة التى ستصل بها، رسالة منى إلىّ، لا أعرف لكن هذا التوقع المبهم يدور حول شىء ما، كُنه غامض عند نقطة ما، يتخذ طريقه صوبى، لا أدرى كم سأبقى فى حالة التوقع تلك، وصولها ينهيها لكنها لا تلوح، يخيل إلىّ أننى الراسل والمستلم، جاهل بما بعثت، مبهم ما يمكن أن أتسلمه، بتلك اللحظة التى يقع عندها الفض والإحاطة.

رسالة

أقول لشقيقتى إننى سأمر عليها غداً، تقول إنها تنتظرنى، لن تخرج إنما ستبقى فى البيت، لم أعد أطيل المكث، لا يمكننى القول إننى أقوم بزيارات، إنما هى طلات سريعة تتم خلال مرورى أو

قصدى حيث تقيم، صباح الغد ثمة موعد فى جامعة عين شمس، سأكون على مقربة من مدينة نصر، هذا مناسب.

قبل أن أستفسر عن أحوال شقيقىّ بادرتنى، إذ عثرت على رسالة قديمة إلى أبى.

«منى أنا؟»

قالت إنها كانت تقلب الأوراق التى تحتفظ بها عندما فوجئت بهذا الخطاب، مضى على إرساله ثمانية وعشرون عاماً، إنه مؤثر جداً، بعد انتهاء المهاتفة رحت أمعن فى الزمن المنقضى، أى رسالة؟

ومن أين؟ لماذا؟.

أبى ـ رحمه الله ـ لم يكن يتقن القراءة، لم تتح له الظروف فرصة إتمام تعليمه الذى تاق إليه وادخر له المال، هذا ما فصلته فى «كتاب التجليات» فليراجعه من يرغب، لا أذكر أننى خصصته بخطاب، أننى جلست إلى طاولة وكتبت بخطى موجها إليه الحديث، كيف أكتب إليه وهو غير قادر على جلو الحرف من الحرف إلا بصعوبة.

متى فرغت إلى نفسى وتوجهت بالخطاب إلى أبى؟

لم أكن قادراً على التحديد أو التعيين، إنها المرة الأولى التى أفاجأ فيها بكتابة رسالة إلى أبى، رسالة لا أعرف عنها أى شىء، وما من مستثيرات قادرة على تحفيز خلايا ذاكرتى لاستعادة لحظة ماضية، منقضية، لا يحيطنى منها شىء.

متى؟ أين؟

شقيقتى حددت المدة الفاصلة بثمانية وعشرين عاماً، أى كان ذلك فى منتصف السبعينيات، أعى الآن إدراكى للمحو التام الذى لحق لحظات مررت بها، ومواقف عاينتها وعانيت منها، أوقات مرت بى، مررت بها، لكن لم يعد لها وجود من قريب أو بعيد فى ذاكرتى، كأنها تخص غيرى ولذلك لا تستثير عندى أمراً، بدأ الأمر منذ سنوات بنسيان أسماء أشخاص، أحيانا ألتقى بهم، أعرف الملامح، لكننى لا أقدر على استعادة الاسم، أحياناً يسألنى البعض: هل تتذكرنى؟ ، أقول من باب الحقيقة والمجاملة، نعم، بالطبع أملاً فى انقضاء الموقف، لكن بعضهم يتبع تساؤله باستفسار آخر: من أنا؟ فى بداية ظهور هذا الحال كنت أراوغ، لكن مع التكرار صرت لا أخجل من التصريح، وطلب الإيضاح: هل لك أن تذكرنى لأننى نسيت؟

أن يطال المحو اسما ما ، فهذا طبيعى مع تقدم الإنسان، وتراكم اللحيظات، لكن أن يلحق برسالة كُتبت فى ظرف خاص ، فهذا ما يبدو غريباً، كيف أكتب لأبى وأنا موقن أنه لن يقرأ، هل اعتمدت على قراءة الآخرين للرسالة؟ تماما كما كانت تصله خطابات خالى من البلدة المملاة على من يتقن الكتابة، كان خالى يفك الخط، يمكنه أن يخط بضع كلمات، كان ولْد حميد يعرف القراءة والكتابة، يملى عليه القوم رسائلهم مقابلَ حفنة بلح أو نصف قدح ذرة أو قمح أو قمع سكر أبيض أو أحمر أو بيضتين، حسب التساهيل، نهاية الرسائل ذات صيغة متشابهة لم تتغير:

«أما بعد، الجميع من عندنا يسلمون عليكم ولا ينقصهم إلا رؤياكم، والسلام ختام»

لا تكون الرسالة إلا من بعيد، لابد أن دافعاً قوياً جعلنى أكتب، لكننى غير قادر على استعادة تلك اللحيظات، أو الظروف التى دونت فيها كلماتى، أو الدافع، غير قادر، أرجأت الأمر إلى زيارتى، أو مرورى غداً على شقيقتى.

عادت من حجرتها ممسكة بالمظروف، قالت إنها كانت ترتب أغراضها عندما وجدت هذا المظروف، لم أستطع تحديد مشاعرها بدقة، كانت مبتسمة ولكن ثمة حزنا شفيفا، ربما بتأثير الحنين، إنها الآن تقترب من الثالثة والخمسين وحيدة، بعد أن حاد الحظ ومال البخت، هذا أمر دقيق فلأرجئ الحديث عنه.

المظروف مفتوح من الطرف الأيسر، بالقياس إلى بدء الكتابة وموضع الطابع، عراقى، صادر بمناسبة عيد الثورة، لكن من غير الواضح أى عيد، فى أى عام بالتحديد، السعر خمسة عشر فلساً، خاتم مكتب البريد.

صادر من السليمانية.

شمال العراق، إذن.. العام خمسة وسبعون من القرن الماضى، لكننى لم أدخل السليمانية، إنما مررت بالقرب منها، بالتأكيد لم أدخل المدينة، كنت أرافق الوحدات العسكرية وقتئذ فى الجبال القريبة لأعد تحقيقات صحفية عما يدور فى الشمال الكردى، كنت أتنقل عبر الجبال وأنزل مواضع ربما لم يطأها بشر منذ بداية التكوين عند قمم الجبال، جبال بكر، وخضرة غزيرة وقمم مكسوة بالثلوج طوال شهور السنة.

عللت ختم المدينة البريدى بأننى ربما طلبت من أحد المرافقين إلقاء الخطاب فى أى صندوق بريد بالمدينة، بالتأكيد ليس لدىّ أى إشارة، لا من قريب أو بعيد، تومئ أو تنبئ بمثل ذلك، ثم من ذلك الشخص الذى يمكن أن أكون قد وثقت به؟

لا أذكر إلا ضابطا مرافقا من إدارة التوجيه السياسى، تقابل إدارة الشئون المعنوية فى الجيش المصرى، غير أن فارق المهمة كبير، إدارة التوجيه العراقية تتبع الحزب الحاكم وللحزب الهيمنة والكلمة النافذة، كان مرافقى يجمع بين الصفتين فهو حزبى وضابط برتبة رائد، اسمه شرف. كان لطيفاً، محباً للمرح، كثير الدعابة، دائم الذكر لأطفاله الخمسة، الأكثرية فتيات، ربما ثلاث وطفلان، أو أربع وولد، لا تحضرنى ملامحه الآن، إنما عموم هيئته، قامته المتوسطة الممتلئة قليلاً، وابتسامته عند تصاعد المفاضلة بين التفاح والبرتقال، كنت بصحبة صديق مصرى مقيم فى بغداد، آل أمره إليها بعد خروجه من مصر، واستقر، كان متخصصا فى السينما التسجيلية، كنا ننتمى إلى اليسار الشيوعى، كان الحزب الشيوعى العراقى وقتئذ متحالفاً مع حزب البعث الحاكم، ومن بين شروط التحالف ألا يعمل أى حزب ـ باستثناء البعث ـ فى الجيش، فى جبال كردستان كانت الجماعات المسلحة التابعة للشيوعيين من الأكراد تقاتل إلى جانب وحدات الجيش، فيما بعد تغير الوضع، انقلب الحال وصارت المواجهة، رمزنا للبعثيين بالبرتقال، وللشيوعيين بالتفاح، صار ذلك مصدر دعابتنا طوال الترحال فى جبال كردستان، كان شرف يكرر أن المصريين يحبون الدعابة، كان ما يقضه أن يقتل فى الحرب ويترك

أطفاله يتامى، يردد «مازالوا جهالا»، فيما بعد تابعت أخباره، علمت أنه أصيب خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية واستقر بالخطوط الخلفية ثم غاب عنى أمره فيما تلى ذلك.

هل سلمت الخطاب إلى شرف ليضعه فى صندوق البريد؟

ربما

لكنه لم يفارقنا طوال الوقت.

على مهل أخرجت الرسالة من المظروف، الكلمات خطت بقلم حبر جاف أزرق، الكتابة فى أربيل، أمضيت ليلتين فى المدينة العتيقة، لكننى لا أذكر وضعية جلوسى كاتباً، لا أكتب خلال أسفارى إلا الملاحظات، وإذا اضطررت إلى كتابة خطاب أوجز إلى أقصى حد، لذلك أفضل البطاقات البريدية.

قالت أختى مبتسمة: إن التاريخ خمسة عشر مارس، اليوم خمسة عشر من مارس، إنه اليوم نفسه. تطلعت إليها صامتاً، بالتأكيد لم تقصد، لأننى الذى حددت موعد الزيارة، أنا من اتصلت ليلة أمس وأخبرتها بمرورى فى الغد، صدفة غريبة، فى مثل هذا اليوم تماماً منذ ثمانية وعشرين عاما كتبت هذه الرسالة، أى دافع؟ لا أدرى الآن، لا يسعنى إلا التفسير والتخمين لحال مر بى ومررت به، مع أن الأمر متصل بى، لكننى منقطع عنه بالنسيان والمحو، منبت، فكأنى أنقب فى أصولى الغائبة وجذورى التى لا تبين محاولاً إيجاد العلامات الدالة وقراءة ما يلوح منها واستنتاج ما يمكن أن يغيب عن البصيرة بينما البصر يدركه.

عندمـا شـرعت لـم أكن أعلم أنه سيـرحل إلى الأبد بعـد خـمس سنوات وسبعـة شهـور ، لكن يمكننى تفسير الدافع ، عندما نزلت أربيل شـمـال العـراق كنت قـصيـاً عنه ، بعـيـداً ، وفى البـعـد يدركنى الإحسـاس بالذنب والتـقـصير فى حق من نحب وإليـهـم ننتمى ، هذا حال يغلب علىّ عند الشروع فى سفر ، قبل بدئه أراجع النفس وأبدى ما كنت أخفيه أو أتوارى منه .

لابد أن أمـراً أقلقنى فى ذلك المكان النائى ، المحـفـوف بالمخـاطر ، دفعنى إلى مـخـاطبـتـه عبر الكتابة وهذا نادر بيننا ، ربما لهـذا بدأت بالإشـارة إلى المكان القـصى الذى حللت به لأحنى قلبه ، هو الحنون دائماً ، من النثار الذى أفلت من المحو لحظة خروجه لتوديعى فى أول سفر لى ، أول خطى اغترابى الذى تكرر كثيراً فيما تلى ذلك .

لابد أنه كـان حزيناً لسبب مـا ، لابد أن سوء فـهم وقع ، أبدأ بـعـد الحديث عن البعـد ، بالتأكيد على حبنا الدفين له ، وتقديرى العميق وفخرى بما قام به من أجلنا ، وإن كـانت الظروف لم تسمح بقـول هذا له فلأن مشاعرنا دفينة ، أقوى من الكلام . .

هل قرأ له أشقائى ما كتبت؟

لم أسأل أختى خشية أن تنفى ، فلأبقى الاحتمـال معلقاً ، خاصة أننى أدركت أمرى فجأة ، أثناء مرور بصرى ، أثناء قراءة الكلمات ، كأنى أوجهها إليه الآن ، أشيعها نحو الأبد الذى صار إليه وانتهى . .

صوت

ينبعث من مكان ما داخلى، لابد من فضاء فوق أرض مزروعة، نخيل كثيف، ترعة سريع تيار المياه فيها، جسر خشبى قريب، رائحة تين وأعناب، ربما سمسم لم ينضج بعد، صوت طنبور يرفع المياه، يد تديره، ظهر محنى، الصوت عميق، رغراغ، شجى:

يا ورج الريحان مالك دابلى.

والعين سودة والحواجب سابلى.

ابكى علىّ وخططى بالعود.

ابكى على الزمان اللى مضى ما يعود.

مطاريد

مطار. التأهب لعبور الحاجز المؤدى إلى مكتب الجوازات، خط أصفر فاصل، تتناول الشرطية الشابة الجواز، تفتحه، بصة سريعة تقارن خلالها بين صورة الجواز ومن يقف أمامها.

إلى جوارها، ملصق معلق إلى الجدار، صور ملونة لخمسة، أربعة ذكور، شابة تماثلهم عمراً بالتقريب، مطاريد مطلوبون، إعلان آخر يجاوره، الأول صور بالمواجهة، الثانى صور من الجنب، رغم أننى

لا أعرف لغة البلاد إلا أننى استنتجت الأمر، لابد أنهم يمتون إلى تلك المنظمة النشطة التى تطالب بانفصال إقليم يقع غرب البلاد، تتردد أخبار الانفجارات دائماً وأحياناً الاغتيالات.

ملامحهم مختلفة، متقاربة، الفتاة جميلة، كأن صورتها بالمواجهة التقطت لها وهى تجرى، عيون تحدق إلى المتطلعين، ربما تبث ألفة ما، لكنهم معروضون هنا باعتبارهم متمردين، إرهابيين، مصدر خطر لابد من درئه، مطاردون عند بوابات الرحيل والوصول، فى إقليمهم يعدونهم أبطالاً، يتعاطف معهم آخرون يقدمون لهم العون.

من خلال العيون، الملامح المقتنصة من لحظات مارقة أحاول إدراك ما لا يبدو، غير المعلن عنه، الهموم، الدوافع، النبضات الخفية، ما لا تفصح عنه الصور البوليسية، بعد محطات شتى من الإدراك، التأمل، تعلمت ألا أسارع بالإدانة، ألا أنحاز إلى جانب ضد آخر بدون معرفة، أن أنقب عن الرقائق فى أشد البشر عنفاً وقسوة.

صوت ارتطام اكلشيه الختم بصفحات جواز السفر، أبتعد عن النافذة الصغيرة مصحوباً بالوجوه المطلوبة، متسائلاً.. أين يسعون الآن؟

تساؤل

ينقطع تسلسل أسمائى عند الجد السابع .

ترى، لو أتيح لى أن أعرف اسمى الكامل حتى أول منشأ، كيف سيبدو؟ فرعونيا أو سوريا أو بابليا أو آشوريا أو حميريا أو فينيقيا أو ما لانعرفه أبداً؟ كم اسم سيثير الدعة وكم سيثير القلق؟ كم سيثير الزهو وكم سيثير الرغبة فى التوارى؟ هل يمكن تحديد الاسم الأول الذى لا اسم قبله؟ هل يمكن تحديد الاسم الذى لا اسم بعده؟ هل يمكن تحديد اسم الاسم؟ هل بمكنتى، هل بمكنتنا تعيين اسم الاسم؟

سمرقند

حضور كثيف للغروب، رغم طول تحديقى إلى المساجد الضخمة، لون الفخار الأزرق الغالب، المداخل الشاهقة، إلا أن أبرز ما أراه الآن ممر طويل، يحفه صف من أشجار التيوليب، نحيلة، رشيقة، فارعة، الفروق بين بلاطات الممر واضحة، فيما بينها، تتوزع ذرات التراب وأعشاب متناثرة، دقيقة، القباب كأنى أنظرها من أعلى رغم أننى لم أطر فوقها، سوق، باعة يصطفون، كل ما تبقى منه كرات من الجبن الأبيض، مذاقه أقرب إلى ما يُعرف عندنا بالجبن الحلوم، تتداخل الملامح، عينان فسيحتان، أنف غليظ، شارب غزير، كل منهما يمت إلى شخص مغاير، لكننى أرى تلك

الملامح فى وجه واحد، سور مرتفع، فوقه قاعدة منظار مصوب تجاه السماء، مرصد أولوج بك، كان معنياً باقتفاء آثار النجوم ورصد الكواكب وتتبع مساراتها، أرى القاعدة لكننى لست متأكداً إذا كانت تحمل منظاراً أم لا؟ ، داخل المرصد تحاورت مع شاب يرتدى معطفاً، من ذكر اسم تيمور لنك؟ لا أدرى، لكننى أستعيد بجلاء إجابته.

«محررنا وبطلنا القومى . . »

أتطلع إليه بدهشة، تيمور لنك سفاح، أقام هرمًا من الجماجم، لم أنطق هذا، لكننى استفسرت.

«محرركم ممن؟» .

قال بحدة :

«من العرب . . » .

من نعتبره مدمراً، قاتلاً، هاتكاً للأعراض، يعده قومه بطلاً قومياً، للمرة الثانية أدرك نسبية الأمور عبر ترحالى، الحوار أرويه بطرق عديدة وصياغات مختلفة، أختتم دائماً بإدراكى أن ما أعتبره شرقاً بالنسبة لغيرى غرباً، أعى الآن أن ما يتبقى شذرات، لا يمكن استعادة حوار كما جرى، تتبدل الجمل، تتغير المواقع، تتحور الألفاظ، وبعد فترة ربما يتلاشى المقصود تماماً، أما المشاهد فتتوالى مجزأة، ثابتة، لا حركة فيها، أحياناً أركز على استعادة لحظة من طريق مزدحم بالعربات، تتدفق خلاله السيارات بأقصى سرعة، لا ألمح إلا ثباتاً فى المشهد، كما يحدث عند تدفق آلات العرض، أدقق النظر إلى ذلك الممر السمرقندى، رغم كل ما رأيته من سموق بنيان،

وغزارة ألوان، إلا أننى أحتفظ بذلك الممر، ليس طوله تماماً، إنما بلاطاته، ليس بلاطاته تماماً، إنما ذرات التراب التى تتخللها، كأننى أتطلع إليها عن قرب، أكاد أحصيها . .

نصوص

مطعم مطل على النيل، فى الصدارة أديب وأستاذ فرنسى . إلى جواره زوجته، غاب عنى اسم كليهما، خصونى بالجلوس أمامه، تماماً فى مواجهته، يتقن أربع عشرة لغة، منها العربية، قال إن بعض ما يعرفه قديم، بطل استخدامه، لا يتم التعامل به الآن، مثل اللاتينية الكلاسيكية، والمصرية القديمة، سألته عن علاقة المرء بلسان لم يعد منطوقاً، تراجع قليلاً، غيّر من نبرة صوته قائلاً : تموت اللغة غير أن النصوص تظل حية، ما دام النص يمكن قراءته فى لغته الأصلية أو لغة منقول إليها، حتى لو اندثرت تماما اللغة الأصل، فهذا يعنى أنه حى، فاعل، إنها حيوية النصوص، كرر مؤكداً، إنها النصوص . .

فلامنكو

مساء فى بناية تطل على مرج، أجلس إلى منضدة بصحبة أصدقاء مصريين وأسبان، مسرح عتيق، بدأ نشاطه فى الأربعينيات، غير أن المبنى نفسه أقدم، خشبة مساحتها صغيرة، مرتفعة بقدر، حولها تصطف الموائد، الأسبقية بالحجز، ولأننى اتبعت نصيحة صاحب مجرب عاش زمناً فى مدريد فلم يكن يفصلنا عن المسرح إلا فراغ ضئيل، هنا تقدم بيانكاراى رقصاتها، إنها الأشهر فى عالم الفلامنكو، رقصت فى عواصم شتى، بين يدى امبراطور اليابان، فى افتتاح الدورة الأوليمبية.

يبدأ العرض بدخول الراقصات والعازفين، المنشد يجلس إلى جوار عازف الجيتار، قصائد مجهولة المنشأ، تتخللها أصوات حزينة، تفيض بالشكاية، تضرع إلى مجهول غائب، لا أعرف المعانى، لكن الأصوات تتخللنى، إدراك المبهم يثرى أكثر من استيعاب الجلى، حزن سرى إلى النوبات الموسيقية الأندلسية، لا أعرف تماماً من تسرب إلى الآخر، مثل الغناء البرتقالى المعروف بالفادو، يُقال إن أصله الحدو من الحداء، الغناء الشجى الذى يحث الناقة على عبور البيداء، يلى الإنشاد تصاعد عزف الجيتار، تتقلقل الراقصة الأولى، تتململ متأهبة، ندرك ذلك من انتفاضات أصابعها الملامسة لركبتيها، من تمايل غصنها، من نظراتها الجانبية التى صارت مواجهة لنا، من حدة تطلعها إلى نقطة غير محددة، تتجاوز بالبصر حيز المكان المحدود، تمد ذراعيها، تثنى أصابعها مع تصاعد عزف الجيتار، كل راقصة حال خاص لا يتكرر، رقص جذوره ممتدة إلى الهند،

الأندلس، اللامكان الذى لا يحتوى الغجر الرحل. تتضافر فيه الأعراف والثقافات البائدة والفاعلة الآن.

رقص فيه كبرياء، غضب، عتاب، دلال ورقة، فيه النسيم ومنه العاصفة، فيه شروع فى الاقتراب وانثناء للبعد المفاجئ، إقبال وإدبار معًا، راقصة صريحة، أخرى غامضة، ثالثة موحية، رابعة مرحة، لكن كلهن لسن إلا تمهيداً لظهور بيانكا المتوجة، بالتأكيد تجاوزت الستين، مازال كرمها فياضاً، فى لفة سريعة تطلعنا على التقاء فخذها بركبتها، سرعان ما يتوارى فلاندرى هل ما طالعناه حقيقة أم شُبه لنا؟ مصادر طاقتها تثير الدهشة، تحاكى الطبيعة فى رقصها، مرة كسحاب رقيق، مرة تبدو ضارية، لكنها فى كافة الأحوال هى الأنثى المستعصى إدراكها، لا يمكن للبصر إلا أن يدركه الوهن لعسر متابعتها، لا تستقر على وضع قط، الرقص المتقن، النابع من الداخل، يتغير مع النبض، مع إيقاعات الأنفاس، دائماً، يظل الجوهر الخفى مستعصياً على الإدراك، حتى الأجساد تتحول إلى أطياف عند توقيت معلوم، نفنى فى حوار مع طرف لا نراه، خفى لا يبين، وعند لحظة معينة لا نرى الراقصة نفسها رغم أنها تتحرك على مرأى ومسمع منا.

موسيقى

كل موسيقى صدى لأخرى خفية لا تبين، تلك الأنغام مجرد

إشارات إلى الخفايا العُلا، بعضها ينبئ بتلك الآفاق النائية التى لا يدركها البصر، عبرها أقطع المسافات التى لم يوجد بعد قياس يمكنه تحديدها، لا تكفى أجيال متعاقبة لقطعها، لكن تكفى رنة نغم لاجتيازها قبل ارتداد الطرف إلى صاحبه. تدل بعض الرنات الوترية على سماوات علا، ليست تلك التى نرصدها بالنظر، المباشر أو من خلال المناظير المقربة، إنما أعنى السماوات الخفية الكامنة هناك فى اللامكان، سماء تليها أخرى، ما نراها من موقعنا الأرضى محدودة، وربما تعد أرضاً بالنسبة للرائى من نقطة ما فى الفضاء مغايرة لتلك التى أشغلها. تومئ إيقاعات معينة إلى توالى اللحظات، تحاكى سريانها، عبورها من وقت إلى وقت، لكنه الزمن الذى لا نعرفه، إنه الزمن الذى انطلق منه زمننا الخاص، له أنغامه المتدرجة، المتوالية، تتدفق المقامات متتابعة لتوحى بالماء فى أحواله المختلفة، السائل بهدوء حتى لا يسمع صوته، المندفع ناثراً رذاذه، المصرّ عبر الأزمنة حتى لينحر أعتى الجبال ويمضى، فلا شىء يمكنه إيقافه، الخرير العذب للجداول الصغيرة المدثرة بظل ظليل، ليست أحوال الماء إلا إشارات موازية لا تكتمل الموسيقى إلا بها، تتعدد مسارات النغم، فربما يدل على عنصر، فى الوقت نفسه يوحى بحال دفين، وقد يظهر أمراً مخفياً فى الأغوار البعيدة، وقد يستعيد لحظة مندثرة طال الظن بفنائها إلى الأبد.

تتوالى الموسيقى بشتى أنواعها وتدرجاتها وأطيافها وظلالها، قادمة من لحن تنطلق منه سائر النغمات، وتصير إليه كافة التدرجات والانحناءات والمسارات، كافة الأشكال المسموعة تجىء منه وتعود

إليـه، لحن لو بدأ إدراكـه لصار الفناء فيـه، فـلا يوجد فى هذا الكون المحسوس من له طاقة باستيعاب ولو قبس منه.

الأنغـام كـافـة سـارية، مـوجـودة، ومـا يضـعـه أهل الألحـان من تصـانيف ليس إلا اكـتشـاف لأصـدائهـا البعـيدة، كل مـا نصغى إليـه ويحـرك كـوامننا ليس إلا ظلالاً نائيـة لذلك المقـيم حـيث لا يمكن لإدراكنا أن يستوعبه، ذلك اللحن الأساسى المبين.

طفو

عند الانتقال وحيداً أتوق إلى أن أطفو، أن أخرق العادة، أن أقطع العلائق إلى حين، بمجرد اقترابى من بوابات السفر منفرداً أتوارى خلفى، بل داخلى، أحرص ألا أصل الحديث بمن يجاورنى، أو من يتطلع إلىّ، حتى إن تعرف علىّ أحدهم أَلمم نفسى بسرعة محتمياً بابتسامة مهذبة، صادة، أحياناً عند الانتظار أعد نفسى للخلوة بنفسى، أبدأ بشرب البيرة أو النبيذ، كلٌّ منهما لا يصل بى إلى عبور الحافة غير المرئية بين الوعى والغياب. أفضل ما يكون ذلك عند انتظارى قبل الإقلاع، أو عند استقرارى فى مقعد الطائرة الذى أفضله دائماً بجوار النافذة. يساعدنى الاحتساء على بلوغ حد تلك النشوة، تتسارع أشواقى المخبأة إلى الظهور، يلوح منى كل دفين، أسترجع كل مفقود، أوشك على بلوغ كل فائت، لا أروح تماماً فثمة انتباه

يجب أن يبقى لأستدل على ما ينبغى أن أفعل، حتى لا أفقد الوجهة، حالى أقرب إلى إيهام ذاتى بما يجب أن يكون، ما أتمناه، وليس ما هو كائن.

يخيل إلىّ أننى اتخذت وضع المقوس، بالغ الانحناء، وما أنا بذلك، أتطلع ملياً إلى كل من عبروا مجال بصرى عبر الحوارى القريبة، البعيدة، رغم أننى لا أدقق ملامحهم، إلا أننى أسائلهم، أستوضحهم، أستجلى كافة ما خفى وما ظهر، ما أسفر وما استتر منهم، أتأنى فى سؤالهم وأتمهل لسماع أجوبتهم.

تتسارع دقات قلبى، تنفصل عنى، تجىء من بعيد، أومئ إلى من لا أراه، من حذرنى مراراً ألا أقرب المشروب قبل ركوب الطائرة، قال إن عبئاً إضافياً يتحمله القلب، فلا تكن ثقلاً عليه بنزقك، وكن عوناً لحالك، أشهر استهانتى وحيدى عن الخطة حتى أتمكن من عدلى وقسطاسى.

تساؤل

شعرة، مجرد شعرة مسدلة على العين. ألا تحجب جرم الشمس؟

مجهولون

أستيقظ بملامحه مكتملة، حتى لون قماش بدلته ورباط عنقه، كنت أتأهب لركوب قطار، محطة صارمة الملامح كأنها مخصصة لقطارات حربية فقط، كل من يسعى فيها منضبط، لا يلتفت حوله، عدا هذا الرجل فارع القامة، عريض الفك، ممتلئ الشفتين، توقف فجأة، راح يتطلع إليّ بثبات دون أن يحيد، فوجئت بعينيه المحدقتين، كان يحمل حقيبة لا أعرف ما تحويه، وقفته، نظراته بثت عندى خوفاً غامضاً، سمرت مكانى، لم أكن قادراً على الجرى، بدأت أحاول وخلال المعافرة صحوت متسارع الأنفاس، ما بين اليقظة والنوم كأنه مازال ماثلاً أمامى، عندما قعدت فى الفراش منهياً اضطجاعى، شربت كوب ماء أضعه دائماً على مقربة.

من هذا؟

من أين وفد على منامى؟

ليس شخصاً ممن عرفتهم وصاروا بمنأى عنى، سواء بالحياة أو الموت، لا مجال للقائهم إلا الأحلام، كما أنه لم يعبر مجالى البصرى صدفة، أثق من ذلك، إذن.. من أين جاءنى؟ من أى منطقة معتمة وفد؟

لكنه ليس بمفرده، ربما أتعجب لوضوحه، لأن الحلم انقطع عند حافة نومى الذى انتهى بغتة، عبر المنامات التى تخللت رقادى وفد على كثيرون لا أعرفهم، مروا بى، تحاور بعضهم معى، اتخذوا

أوضاعاً شتى، وتحركوا فى فراغات ألوانها عجب، وفضاءات محبوكة، كأنها خيام من مواد لا أعرفها منصوبة تحت الماء.

ملامح لم ألتق بها فى عالم يقظتى قط تثير عندى ما لايقدر الذين أعرفهم فى صحوى على بعثها أو مسها، بل منهم إناث أثرن عندى الحس، وجدت منهن كل عجيب، أحياناً أرى الملامح واضحة جلية ثم تتبدل بأخرى مع بدء العناق والتقبيل والتوالج، قد تختفى تماماً مع بلوغى لحظة إراقة مائى. عند هذا الحد أستيقظ مبتهجاً، راضياً، مصغيا إلى البلل السارى عندى، متمنياً لو أن المدة طالت، لو استمر الأمر قليلاً، أجتهد فى استعادة ملامحهن، أوصافهن، يدهشنى انتفاء أصولهن عندى، من أين يجئن؟ لا أعرف، أحاول استعادة المرات التى أرقت فيها مائى المحسوس رغم إرادتى على من لا يمكننى إدراكهن أو حتى استرجاع ملامحهن، كيف يقع المادى من اللا متعين، ما يمكن تحديده بالحواس والقياس ينتج عن المتخيل؟ هنا أكف لأتساءل: أيهما الحقيقى والوهمى؟

تباغتنى أحياناً ملامح أجهلها، تفد علىّ من المجهول، أحاول لملمة أوصال أصحابها. استعادة الأسماء، لكننى لا أقدر على ذلك، هل تنتمى تلك الملامح إلى الأحلام أم أننى مررت بها أو بها مروراً عابرًا؟ أرصد وجود سديم عندى، لا يمكننى تحديد موقعه أو عمقه، مزدحم بالملامح، باللحظات، تلك التى عرفتها ونسيتها تماماً، محيت من عندى، فهل بقيت فى ذلك الموضع المجهول؟ ، هل تفد علىّ حيث لا أتوقعها ولا أقدر على ردها أو إقصائها؟ لا خيار عندى فيمن أراه أثناء نومى، لكننى أعرف الآثار المادية لما أثاره البعض

عندى، خوف، بكاء، خشية من الغوامض المتوقعة، لذة قصوى أصب خلالها وأعى منتشياً وهذه الحال بالذات توقف عندها الشيخ الأكبر اعتبرها الحد الذى يفصل بين عالمى الحسى واللامتعين، أو يتصلان عندها، فأشخاص الرؤيا من عالم الخيال، والقذف الحسى من عالم المادة المتيقن.

كثيرة بلا حصر تلك اللحظات المتوارية، وملامح الأشخاص الذين اتسعت بيننا وبينهم الشقة، فهل تعاد صياغتها فى موضع ما لتفد علينا بسمات يصعب تعيينها، ولماذا أفترض وفادتها علىّ؟ لماذا لا أكون أنا الماضى إليها، الساعى إلى لقائها وفقاً لمنطق يشق علىّ الآن تعيينه بحيث تجرى تلك اللقاءات وتلوح تلك الملامح لترد عنى أو ترد علىّ، لتثير عندى تلك الأحاسيس بما فيها تلك الحيرة الباعثة لهذا السؤال المحير لى، إلى أى عالم يمت هؤلاء؟ هل يرددون مثل هذا السؤال، هل تواتيهم صورتى أثناء النوم، نومهم هم، نومى؟

مابين

أوشك على اجتياز ما بين عامين، إذا كان ثمة بين، فاللحظة لا تبقى، تنقضى بمجرد الوعى بها، لا يعنينى رقم السنة، تلك علامات متوهمة، ما أعرفه أن كل انتقال يقربنى من المآل.

ما بعد المغيب أمضى الوقت بمفردى، أهيئ المسرح، يعنى ذلك

ترتيب الأوراق والكراسات فوق المكتب، أتخلص من أوراق لم يعد الاحتفاظ بها ضرورياً، مع أننى أنتمى إلى أولئك الذين يشق عليهم التخلص من أى أوراق تتعلق بهم، أطوف بالمكتبة، أعدل بعض الأوضاع، أقلب كتباً لم أمسها منذ وقت طويل، يقع اختيارى على كتاب أجتاز به الحد الفاصل، يصحبنى، منذ أيام أقرأ «فيه ما فيه» لمولانا جلال الدين، خلال السنوات الأخيرة أطالع أكثر من كتاب فى وقت واحد بتأثير ودافع من نهمى المتزايد، تقوم بينى وبين بعض من وضعوا تلك الكتب منذ سنوات تطول أو تقصر صلات أكثر عمقاً وأعمق حميمية من أشخاص عرفتهم من لحم ودم.

أتطلع إلى المفكرة التى تحوى أرقام الهواتف، غداً صباحا أبدأ مراجعة الأرقام، أشطب من رحلوا، من انقطعت بهم العلائق، من قابلتهم بسرعة ودونت أرقامهم ثم نسيتهم، أتوقف أمام بعض الأسماء محاولا استعادة ملامح أصحابها.

أروح، أجىء، يتعلق بصرى بالساعة، لم يتبق الكثير على تمام النقصان، تتنقل محطات التليفزيون بين عواصم العالم، الميادين غاصة بالرجال والنساء، أوراق ملونة، طراطير مذهبة، زجاجات شمبانيا، توق إلى لحظة تتصاعد فيها الصرخات، الضحكات، الأصوات غير الدالة على معنى، أبتسم متعجباً، كيف يفرح من يقتربون من نهاياتهم، الميلاد موت، مع بزوغ المولود يبدأ النقصان، مرور عام يعنى الاقتراب من الماضى أكثر، الإسراع نحو الفوت، يستدعى ذلك الإمعان فيما جرى وما سيجرى، ترتيب الأوضاع لعل وعسى..

مرة

برودة خفيفة، نُذر خريفية فى نهاية أيام الحر التى طالت، الشتاء تباشيره لا تخفى خاصة ليلاً، الأب والابن فى عربة الأجرة، الابن أغفى قليلاً، صحبه منذ بداية اليوم، زارا العم، ضابط مهندس، طيب، هادئ جداً، لم يتزوج، أخرج أجهزة حاسبة وأخرى إلكترونية، بدأ يفسر ويشرح لابن شقيقه، كيف تعمل هذه، وكيف تعمل تلك، ثم أطلعه على صور رحلته الأخيرة إلى الولايات المتحدة، بعد زيارة العم يمضيان إلى معرض بيع كتب الأطفال واللعب، بعد أيام يحل عيد ميلاد الابن، اشترى الأب طائرة له، وعروسة لشقيقته.

يخرجان إلى الطريق، إلى مقهى فسيح، عالى السقف، الابن يتطلع إلى والده صامتاً، بين الحين والحين يستفسر عن أجزاء النرجيلة، كيف يسرى الدخان عبر الماء، يتطلع إلى والده، يخشى أن يقول لفظاً أو سؤالا أو يقدم على فعلة تغضب والده، يطول سكوت الأب:

«انت زعلان منى يا بابا؟»

يتطلع إليه الأب، فى عينيه شجى، على حوافهما ظلال دمع معلق.

«لا يا حبيبى . . »

«أمّال ساكت ليه . . »

«بافكر فى حاجة كده . . »

عينا الطفل محملة بالتساؤلات، لكنه صامت، لا ينطق، يخشى إزعاج والده، يطرق، فى لحظة يبدو متقدماً عن عمره، يقوم الأب، يقوم الابن، يذهبان إلى المسرح، بعد أن استمعا إلى الموسيقى العربية، إلى الأدوار والموشحات والطقاطيق خرجا، عند باب المسرح قال :

«أنا بحب الموسيقى العربية . . »

ثم قال :

«عارف ليه؟ »

يتطلع إليه الأب :

«عشان انت بتحبها . . »

فى الحافلة الصغيرة «ميكروباص» أمسك بالعلبة المحتوية على الطائرة، أستفسر عن تفاصيل خاصة باللعبة، تباعدت أسئلته، مع هزهزة العربة غفا، مال رأسه على ركبة أبيه، فى الطريق والليل مكتمل استيقظ الابن، قال بلهجة سريعة كأنه يتكلم أثناء نومه.

«بابا . . ياريت نخرج مع بعض كتير . . »

«إن شاء الله . . »

«ياريت . . لو مرة كل شهر يا بابا . . »

الأسباب

الماء نراه ونحتسيه ونلوذ به ونتطهر، لكننا لا نقدر على الإمساك به، الهواء نسبح فيه، نستمد منه البقاء، لو انقطع عنا لكان ذلك الهلاك المبين، نستشعر هبوب نسيماته على وجناتنا أو نصغى إلى مروق الرياح عند بدء الزعابير، ولكننا لا نراه، الزمن نرى أعراضه ولا ندرك كنهه، نولد خلاله، نموت، نصل ونرحل، يفوتنا الصبا، يحل المشيب، يسرى دبيب الوهن، تمر الكواكب وتتوهج النجوم مندلعة فجأة، تتوارى أخرى ولا نعرف المصدر والمآل والمسار، كل ما يتصل بأسبابنا نجهله ولا نقدر على احتوائه، أو استيعابه، دق أو عظم!

عتاب

تقلب الطفلة صور عرس والديها، تقبل صورتهما منفردين، أخرى وهما يقطعان الكعكة متعددة الأدوار، فجأة تلتفت إلى أمها :

«ما أخدتونيش معاكو ليه؟ »

تتساءل الأم :

«فين؟ »

تستمر :

«طبعا يا ستى . . سبتونى لوحدى فى البيت . . »

«يا حبيبتى أنا . . »

يسرى بكاء فى صوتها .

«مش أنا بنتك؟ »

«طبعا يا حبيبتى . . »

«طيب ليه ما خدتونيش فرحكم ، تروحوا مع بعض وتسيبونى لوحدى . . »

أصحاب

تقول الطفلة :

«اشمعنى أخويا أكبر منى . . »

تبدو غاضبة ، تلوح بيدها الصغيرة مخاطبة أمها :

«ليه ما خلفتنيش قبله . . »

تتابع :

«كان زمانى فى المدرسة وعندى أصحاب ! »

صوت

يتطلع الأب إلى مطربة تركية جميلة، صوتها قادم من اللا مكان. تدخل الابنة مسرعة، تلامس خصرها بيدها:

«بتحب الست دى . . »

أيوه . . »

«يعنى ما بتحبش ماما . . »

«أنا بحب صوتها بس . . »

يعنى ما بتحبش صوت ماما . . »

ترفع إصبعها الصغير محذرة. يستعيد وضع إصبعه عندما يحذر أو ينذر . .

«إنت تحب صوت ماما وبس . . »

لعب

تحاول الابنة أن تتزحلق، يزاحمها طفل أكبر سناً، تقول:

«انت حتخوفنى . . أنا عندى أخ يعرف يأدبك . . »

تسرع إلى شقيقها. يماثل الصبى عمراً، غير أنه أطول، مفرود الصدر، تصيح:

«الولد اللى هناك ده بيضايقنى . . مش عايزنى ألعب . . » .

يتقدم شقيقها منه متمهلاً، يتوقف أمامه منفرج الساقين، متشابك اليدين أمام الصدر . . » .

«جرى إيه يا كابتن؟ » .

يتراجع الولد منسحباً، عندما يبتعد عدة خطوات يبدأ الجرى، تستعد لصعود الزلاقة، تتطلع إلى الأولاد والبنات، تصيح :

«ارجعوا ورا . . » .

مهاتفة

رنين متصل، مكالمة من الخارج، الوقت متأخر، من؟ من أى مكان فى العالم؟ أرفع السماعة . رغم أننى لم أصغ إليها منذ عشر سنوات إلا أننى تعرفت على صوتها بمجرد نطقها، ثمة رنة، نغمة لكل صوت، ملامح خفية تؤطره، تحدده، تميزه عن غيره .

قالت لم تنسنى .

أضحك، كيف أنسى من انتظمت حولها الأوقات وتعلقت بها الأنفاس؟

تقول إنها قرأت مقالاً ورد به اسمى، أرادت أن تخبرنى لأننى لن أطلع عليه، ولو وصلنى لن أعرف ما به، لأنه بلغة البلاد النادرة،

لحظة صمت، تقول إنها أرادت أن تسمع صوتى بعد كل هذه السنوات.

أستفسر، تقول: إنها أنجبت طفلاً من زوجها الذى تعيش معه منذ سبع سنوات.

يحمل إلىّ صوتها حقبة لم تعد، صوت من المسرات والأشواق، ما أكتمه وأحجبه وأسعى به، لكم يبدو كل شىء بعيدا، نائياً، يستعصى على التناول، لا يقربنا صوتها، إنما يبعدها أكثر، أدقق الأسئلة:

من أين تتكلم؟

كم الوقت عندها؟ الآن؟ فى هذه اللحظة؟ ما درجة الحرارة؟ كيف وضعها الآن؟ تجلس؟ تتمرد؟ ماذا ترتدى؟

أتوق إلى إلغاء المسافات، الأوقات الفاصلة، توحيد الأزمنة، إدغامها، إقصاء التفاصيل، لعل وعسى!

جسر

مرتفعات صخرية فى الخلفية، تصعد إلى الغيوم، تنحدر باتجاه البحر، شاطئ، غيوم دانية، أعبر جسراً خشبياً يصل الشاطئ بسفينة لا أرى ملامحها، أعبر جسراً مؤقتاً، ليس راسخاً، أعبر جسراً. .

توق

فاتنى ذلك المقهى، ملحق بفندق عتيق، مصدر للأناقة والبساطة، أمر به فى طريقى قادما من الفندق أو ذاهباً إليه، فى الصباح مغلق على النزلاء فقط، يتناولون إفطارهم، رغم ضيق المكان إلا أنه مصدر للضوء، اللون الغالب أحمر ياقوتى، منضدة البار عريضة، منحنية، فوق كل مائدة علب المربى الصغيرة وعسل النحل، قوالب الزبد المغلفة بالورق المعدنى، طبق فيه مكعبات السكر الأبيض والسكر الأحمر، وأكياس السكارين الصغيرة، فى الظهر أمر به، مفتوح للغداء، أصناف محددة لكنها متقنة، دائما خلال أيامى التى أمضيتها إما ماضياً لموعد، أو راجعا إلى الفندق لالتماس الراحة، تقت دائماً إلى الجلوس، إلى التطلع عبر الواجهة الزجاجية، إلى تناول الغداء بمفردى حتى تتاح لى الفرصة لرؤية المارين، والمبنى المقابل الذى وصل إلينا من القرن الثامن عشر، إلى تأمل ملامح الجالسين، المحيطين بى، أولئك الذين لا أعرفهم، لكننى أشترك معهم فى الجوار، يومياً أقول لنفسى: سأمر غداً، لابد أن أتناول الغداء هنا غداً الغداء بالتحديد، ليس الشاى أو القهوة أو البيرة بعد الظهر، ثمة شىء مبهج يثير عندى الألفة والرغبة فى أن ألزم بعض الوقت، عندما مررت به فى الصباح الباكر، تطلعت إليه، إلى الواجهة، كان أحد النزلاء يتناول الإفطار، يقرأ الصحيفة، كنت فى الطريق إلى المطار، كما توقعت، ازدحمت أيامى، ضاعت الفرصة، لم أنفرد بالمكان، بذاتى، قلت لنفسى: المرة القادمة، أول ما أقوم به أن أقصد هذا المقهى بالتحديد، أن أحقق انفرادى به وبى، لكننى أخشى ما أخشاه ألا تكون مرة قادمة.

أشارك فى مآتم وأعراس لا صلة لى بأهلها وأصحابها .

فى الصعيد أقصد صاحباً لى بقرية تقع ما بين الأقصر وقوص ، بعد جلوسى معه أثناء اكتمال الغروب يقول إن البيت بيتى ، وأنه يرجونى الانتظار حتى عودته من أداء واجب ، أحد من يمتون إليه بقرابة بعيدة توفى بعد عناء مع المرض . أخجل من البقاء بمفردى ، صحيح أنه وحيد ، لكننى لم أعتد ذلك . هكذا مضيت بصحبته لتقديم العزاء فيمن لم ألتق به قط ولم أعرف أياً من أقاربه . وصلنا إلى المندرة ، أى المكان المخصص لاستقبال الضيوف والغرباء ، لكل أسرة قادرة «مندرة» أو كما يعرفها البعض بالمضيفة ، فى الأزمنة القديمة كان الغريب ينزل لثلاثة أيام يقدم إليه الطعام والشراب ، صباح اليوم الثالث بعد تناوله الإفطار يُسأل عن هويته ، ومقصده ، والبلد التى جاء منها ، أذكر المغاربة الذين يقطعون الصحراء مشياً على الأقدام فى طريقهم إلى مكة ، يظهر الواحد منهم فجأة فى القرية ، يحمل ركوة ماء ويرتدى الجلباب ذا البرنس ، ربما يحمل مخطوطاً يتنبأ من خلاله بالمصائر ، تتردد عندى صيحات بعضهم ، ليس فى الصعيد فقط ، إنما فى الجمالية : «أفتح الكتاب» .

مندرة فسيحة ، مضاءة بمصابيح واهنة ، تمتزج الملامح فى العتمة الخفيفة ، تعمق الظلال ، أصافح الرجال ، جلابيب من الصوف ، واسعة الأكمام ، عمائم ، عمائم ، الليل وبُعد المكان بالنسبة لى يكسب القوم أبعاداً لا يمكن تصنيفها أو تعيينها ، أجلس صامتاً مع

الصامتين، يطوف رجل عليه هيبة، متقدم فى العمر، يحيى الجميع.

«شكر الله سعيكم..»

القادمون لا يصافحون، يكتفى كل منهم برفع اليد محيياً الجميع، يتجه إلى المكان الخالى ليقف بدوره للقادمين الجدد، ماتزال حركاتهم وظلالهم ماثلة، لم أستفسر من صاحبى عن الراحل، حتى الآن أظنه رجلاً، ولماذا لا يكون امرأة؟

هذا مأتم من مآتم شاركت فيها ولا أعرف الراحلين ولا أقاربهم، لو فصلت ما أحاط بكل منهم لزاد الأمر عن الحد، لكننى مورد ما جرى فى استانبول، عندما شاركت فى عرس لا أعرف أصحابه.

كنت فى طريقى إلى موسكو، عندما وقع عطل بالطائرة اقتضى المبيت ليلة فى فندق قريب من المطار، بعد أن آويت إلى غرفتى، خرجت لأمشى حول الفندق، على مرأى منى مسجد على الطراز العثمانى، تنبثق منه مئذنتان. أخشى الابتعاد، لابد أنه قائم فى مكان أجهله الآن، لا أعرف اسمه، إنه أحد تلك الفنادق المشيدة لحالات الطوارئ، الزبائن العابرون، عرفت مثله فى أسفارى، أتبع رجالا ونساء فى كامل أبهتهم، يدخلون قاعة كبرى، موائد فسيحة، مستديرة، فى الصدارة عروسان، مسرح صغير تصطف فوقه فرقة موسيقية، القانون، العود، الطنبور، عازف الناى، أبتهج، إنها المرة الأولى التى أرى وأسمع فيها فرقة للموسيقى التركية فى موطنها، هيامى بها متأصل، ومعروف عند أهلى وصحبى.

أقف خارج الصالة متطلعاً إلى المسرح، يبدأ العزف تمهيداً لظهور المطربة، يبدو أن انفعالى وتأثرى انعكس جلياً على ملامحى، يقترب منى رجل يرتدى حلة سوداء، قميصا أبيض، منسق الهندام، يدعونى إلى الدخول، أومئ شاكراً، غير أنه يصر، يتقدمنى إلى مائدة قريبة من المسرح، أحيى الجالسين، أجلس إلى المقعد الخالى، عندما جاء النادل ليقلب الطبق أومأت له شاكراً، أكدت لمن دعانى عندما تدخل أننى تناولت عشائى، تبدأ المطربة، تفيض حيوية، ألحان أعرفها، كلمات أستشف معانيها، عندما غادرت المسرح، راحت تقترب من هذا الجانب أو ذاك، عندئذ يقابلها الجالسون بالتصفيق المتزن، المتحمس، اقتربت منى مرتين، صفقت لها طويلاً، خصتنى بالنظر، عند لحظة معينة من الليل بدأ المدعوون يفارقون أماكنهم، يصافحون العريس، يقبلون العروس. هكذا وجدت نفسى فى مواجهتها، قبلت من أجهل حتى اسمها، تفد إلى حاسة شمى رائحة مساحيق التجميل، وإلى حسى نعومة البشرة المتهيئة. عرفت مثل ذلك فى طليطلة الأندلسية، عروس فارهة الجمال تستعد لدخول الكنيسة، تحمل باقة ورد، تستند إلى ذراع عريسها، يقفان لالتقاط بعض الصور، كل مار يتقدم منهما، يصافح ويقبل، تقدمت ومثل تلك الليلة صافحت وقبلت وهنأت من لا أعرف.

صقلية، فى رحلة لم أعرف أسبابها أو دوافعها حتى الآن، كل خطوة منظمة، معدة بعناية، برنامج دقيق، فتيات جميلات يرتدين ملابس رمادية، تذكرنى بأزياء بنات المرحلة الثانوية فى الستينيات، رشيقات، ودودات، متحفظات، يمارسن مهامهن بالضبط كما تقضى الأصول.

إحداهن تتقدمنا إلى بناية قديمة، محافظ عليها بعناية، نوافذ فسيحة، غرف، صالات، مساحاتها كبيرة، أثاث أنيق، ستائر ترشح الضوء، تروضه، لوحات زيتية، سجاد نقوشه شرقية، وحدات هندسية متداخلة، تركى الطراز، أغطية الفراش فلورنسية النسيج، أعرف منعرجات وتلافيف تلك الوحدات.

من كان يقيم هنا؟

لا أعرف، لا أذكر الآن، ربما قالت المرافقة الشابة شيئاً نسيته، يغيب عنى، أين تقع البناية؟

مستحيل أن أحدد، رغم مثول درجة الضوء عندى، وذلك العنصر الغامض، الخفى، المستعصى على الإدراك الذى يجسد العتاقة، أستعيد شقة تلك السيدة الأجنبية المجهولة لى، والتى لم أعرفها ولم أرها قط، وقدر لى أن أدخل بيتها بعد رحيلها بيوم واحد، أن أرى فراشها غير المرتب، يحوى آثار وأسرار احتضارها، صاحبى الذى رافقته مكلف بجرد المحتويات فلا عقب لها يرثها، *عندئذ تتقدم الدولة الممثلة فى تلك المصلحة* فريدة الاختصاص بوراثة من لا عقب لهم، فى تلك الشقة رصدت ذلك الغامض، فى أماكن

أخرى، أقرب إلى التخمين منه إلى الفهم، الإدراك الأتم، لا يقتصر سريانه على الأماكن المحددة، المغلقة، إنما على الطرقات والنواصى والأزقة، أين يكمن الفارق بين ناصية فى القاهرة القديمة وأخرى فى المهندسين أو المعادى، فى استانبول المحيطة بطوب قابو سراى وتلك الحديثة فى الجانب الآسيوى، فى الحى اللاتينى بباريس وضاحية ديفانس؟ ، أين بالضبط؟ لماذا يبدو العتيق عتيقاً؟ من أى مصدر يستمد القديم قدَمه؟ ، لماذا سرى عندى ذلك اليقين فى تلك الشقة الصقلية أننى ألِج زمناً مغايراً لذلك الذى أعبره أو يعبرنى؟

شرف

بعد تناولنا الغداء فى المزرعة خصبة الخضرة، تحت ظلال الشجر المعمر، وعلى مقربة من قنوات يتدفق فيها الماء قاصداً تلافيف الأرض، اقترب منى رئيس الجمعية المضيفة، قال إنه يدعونى لمصافحة السيدة صاحبة المزرعة، جرت العادة عند مجىء ضيوف إلى هنا أن تتم دعوة ممثل عنهم، يدخل البيت ويصافحها، أبتسم قائلا: إن هناك سبباً إضافياً، لقد عاشت السيدة فى مصر طفولتها، كانت ابنة مسئول كبير فى هيئة قناة السويس قبل التأميم، قال إنها تعيش بمفردها فى البيت، يخدمها مارتن الذى أعد هذا الغداء بنفسه،

قلت: إن الفطيرة بالبصل كانت رائعة، وكذلك النبيذ الأحمر، قال إن النبيذ محلى.

عبرنا الباب المزدوج، باب حديدى، الداخلى خشبى من أشجار معمرة انتزعت منذ سنوات طويلة وصقلت وشذبت، الصالة مثقلة بالظلال، هناك بجوار الباب المؤدى إلى شرفة مطلة على الناحية الأخرى من المزرعة، تجلس السيدة فوق مقعد من الخيزران، مرتفع المسند، فستانها واسع، ضيق عند الخصر، له صديرية من الدانتيل، قفاز طويل يغطى ساعدها حتى المرفق، يدها اليمنى عارية، تمسك الفردة باليسرى تأهباً للمصافحة، من وضع رأسها، حملقة عينيها فى اتجاه ثابت، أدركت على الفور أنها لا تبصر.

ينحنى إلى أذنها اليسرى، يصيح بصوت يشبه الزعيق ذاكراً اسمى، لا يبدو عليها أى رد فعل، يدها لم يتغير وضعها، لا تمدها، لا تبدو عليها أى ردة فعل، أبادر بالمصافحة، الواقع أنه لم تجر مصافحة، إنما أحطت يدها بيدى ثم تراجعت، شفتاها مزمومتان، يخيل إلىَّ أن هذه تصدر عن دماغها الثابت فى اتجاه محدد، يواصل الرجل زعيقه بفرنسية لا أفهمها، ينحنى بعمق مقبلاً يدها، يستدير بخطوة شبه عسكرية، يشير إلى الباب ممسكاً بمرفقى.

«تفضل.. تفضل.. سوف يدون اسمك فى الدفتر الخاص بزوار سيادتها..».

هو ، يحاول إيقاف عربة أجرة ، يشير بيده ، ينحنى متحدثاً إلى السائق ، تندفع العربة بدونه ، يعود متطلعاً إلى أخرى ، إطاره العام مازال رغم أنه لم يعد يملؤه ، حضوره يوحى بالقوام القديم ، الصارم ، المتطلع إلى الأمام ، مازال رغم نحوله وانحنائه ، وذلك الرباط من البلاستيك المحيط برقبته ، يحد من حركة تلفته .

أول أيامى بالمعتقل عرفته ، خطوه الواثق ، ملامحه الهادئة فى مواجهة جزعى لخشيتى من المجهول ، أما هو فبدا كأنه انتقل من بيته إلى بيت آخر مألوف عنده ، يرتب حاجاته فوق الفراش الموضوع فوق الأرض مباشرة ، البُرش ، يمسك بفوطة صفراء عليها خطوط سوداء متقاطعة كالقضبان ، يقول ضاحكا إنها مناسبة للسجن ، كأنه مقيم منذ سنوات ، كأنه سيقضى بقية عمره هنا ، أنهى انطوائى بدنوه منى ، بقوله إن أهم ما يجب أن أحرص عليه خروجى سليماً من علة قد تلازمنى العمر كله ، أن أتعلم إقامة الصلة بالأشياء ، بهذا الكوب ، بذلك الجدار ، بالوقت ، بالفراغ الحبيس إذا اقتضى الأمر .

صدفة قابلته فى بيروت ، كنت أعرف بوجوده بين صفوف المقاومة الفلسطينية ، انضمّ إليها بعد عام سبعة وستين ، كان حاسماً وصارماً ومحدداً ومدركاً للطريق ، جئت إلى بيروت عام ثمانين ، الحرب الأهلية فى ذروتها ، الحركة بحساب ، ركبت عربة أجرة بالنفر من نقطة عند كورنيش المزرعة ، مكان شاغر حللت فيه بجوار السائق ، بمجرد استقرارى بعد إغلاق الباب أدركنى ذلك الإحساس أن ثمة من

ينظر إليّ، من يشملني بالرؤية، التفت، فوجئت به، يتطلع إليّ مبتسماً، حذراً، محذراً، صحت «أهلاً» فهمت فلم أنطق اسمه، لا الحقيقى الذى أعرفه، ولا الحركى الذى اشتهر به، صحبته إلى شقته المتواضعة فى بيروت الغربية، يتحرك تماماً كما عرفته فى زمن الشدة.

لا يعرف من يتطلع إليه أو يرقب كم من أوقات حافلة بأحداث شتى عبرها واجتازته حتى وصوله إلى تلك اللحظة التى رأيته فيها محاولاً ركوب عربة أجرة فى الطريق المواجه للسفارة البريطانية بجاردن سيتى، المؤدى إلى ميدان التحرير..

نطق

ما فى الكون صامت أصلاً، كل ما فيه ناطق، متطلع!

تساؤل

أعى تماماً أننى لن أقرأ كافة ما أرغب من كتب، ما أقتنيه منها، رغم ذلك لا أكف عن اقتناء الجديد، والسعى إلى النادر منها. وإنفاق ما لدىّ عليها، لماذا وعندى اليقين أننى سأفوته ويفوتنى؟

تساؤل

في الرقـدات العـتـيـقـة، يسـجى الميت منحنيـا، قدمـاه تلامـسـان صدره، لماذا يوضع على هيئة الجنين فى الرحم؟

تساؤل

هل ثمة مكان يحتوى الراحلين؟

هل سيأتى زمن يمكن تحديد موضع بعينه يقيم فيه من سبقونا؟

يمكن أن نولى الوجه صوبه، أن نبلغه فنلقى ونستعيد؟

حلم

أتمدد فى غـرفـة مـغلقـة، عـار تماماً. شـاخص إلى المافـوق، إلى جـوارى يتـمـدد الـوالد، عـار أيضـا، هكذا أظن، فـرح بالقـرب منه، حزين لأننى لا أكلمه ولا يكلمنى. كل منا ينظر إلى نقطة لا تتـقـاطع مع تلك التى ينظر إليها الآخر، كل بمفرده، معزول تماماً.

حلم

الوالدة تقف فى مكان لا يمكننى تبين معالمه، مكان ما، لا ملامح له، يستوى إن كان فوق الأرض، فى الفراغ الأعلى، أو تحت، ينيره ضوء هادئ، بارد، غريب، ترتدى ثوباً لم أطالعه من قبل، كنت مقبلاً عليها، أحاول التملى منها، لكننى كلما ازددت قرباً علا نحيبها وعمق نشيجها، تبكى بحرقة من أجلى، لماذا وقد أتيح القرب منها، لم أرها قط منذ رحيلها الأبدى، ماذا يجرى؟

«لماذا البكاء يا أمى وأنا قادم إليك . . »

ترتجف، أبصر دموعها السواكب أغزر:

«أمى . . أنا باق معك، أنا لن أفارقك، فلماذا البكاء . . لماذا؟ ».

تلك الكتب

مؤكد، مؤكد أننى لن أقرأ هذه الكتب، أننى لن أستعيد ما أرغب الاطلاع عليه مرة أخرى، أعى قصر المدة وضيق الفسحة، لماذا أحتفظ بها إذن، لماذا أبقيها على مقربة منى؟ ، لماذا أدعها تشغل الحيز كله؟ ، لماذا أتقلقل وأفتقد أمنى إذا اكتشفت اختفاء مؤلف أحتفظ به منذ مدة؟

ما أعرفه أن هذه الكتب امتدادى، صباح كل يوم أطل عليها، خلال أويقاتى أتوقف أمام الرفوف الحاملة، أمسك بالحميم منها،

أنفض عنه ذرات الغبار، أقلب صفحاته مستعيداً زمن اطلاعى أول مرة، أحيانا أصحب كتاباً أضعه قرب الوسادة، يقضى الليل قربى، فى الصباح أعيده إلى مكانه فوق الرف، طبعاً المعنى ليس الورق والسطور المطبوعة، إنما تلك العوالم، والشخصيات التى عرفتها والنصوص المعبرة، أعرف أن تلك الكتب ليست إلا وجودى ذاته، إطارى الذى أطل منه، ومضمونى.

يقلقنى ما ستؤول إليه، قلت على مسمع من ابنى مرة إننى سأوصى بها لمكتبة، انفعل قائلاً: إن تلك الكتب ستنتهى إليه، سيحافظ عليها، قلت له: إننى لا أريد أن أترك لهم عبئاً، معظمها نصوص تراثية ولا تدخل فى اهتمامه أو اهتمامات شقيقته، تطلع إلىّ بحدة، قال: يكفى أن أنفاسك فيها. .

دوران

ما قبل آخر ضوء، معسكر الجلاء، بصحبة زميلى المصور، نمشى باتجاه مبنى من طابق واحد، على الطراز الإنجليزى، جندى يحمل مفتاحه، بيوت عديدة جميلة كلها خالية، كانت مقراً للقوات الإنجليزية حتى عام أربعة وخمسين عندما تم الجلاء، المعسكر خال بعد سبعة وستين، كله يقع فى مرمى نيران العدو الذى يرفع أعلامه على الضفة الشرقية، عمليات القصف المتبادل، إغارات القوات الخاصة، الطيران، قال قائد الفرقة الثانية إنه أحياناً تسقط بعض

القذائف على المبانى، لكن القصف لا يركز عليها، معروف أن المعسكر خال، لا توجد به أى قوات، قررت مع زميلى قضاء الليلة فى أى مبنى، قال الجندى وهو يضع المفتاح: إن هذا المبنى لم يفتح منذ يونيو سبعة وستين، كان مخصصا لإقامة رتبة كبيرة، فكرت فى ساعات الليل، فى القصف المفاجىء بلا مقدمات، الإصابات المباشرة، يقول الضباط والجنود عند وقوعها إن القذيفة كان مكتوباً عليها اسمه، اسم الضحية بالطبع.

ندخل إلى صالة فسيحة، رائحة مكان مكتوم، لم يتبدل هواؤه منذ أمد، سنفتح النوافذ الزجاجية، نبقى الشيش مغلقاً، يستحسن الحفاظ على العتمة، أى ضوء يمكن رصده، قال زميلى الذى سبقنى إلى الحجرة الداخلية:

«تعال.. بص..»

فى السقف مروحة تدور بصوت خافت.

«عندما دخلت كانت مستمرة فى الدوران..»

قال الجندى دهشاً:

«ربما تدور منذ إغلاق المكان..»

ثم أضاف.

«لم يدخله أحد غيركما..»

ولد

حدثنى صاحبى مدير المطابع، قال: كان عنده عامل ماهر اسمه رضا، أثناء صعوده السلم سقط، أحاطوا به، اكتشفوا موته المفاجئ، لم يحط منطق، رضا تزوج عدة مرات لكى ينجب، ولم ينجب، مات بحسرته، أن يكون له ولد من صلبه، عندما تحركت جنازته من مسجد سيدى أحمد أبو حريبة، اقتربت منا سيدة تحمل طفلاً رضيعا مات، كانت قادمة من المستشفى، تحمله إلى صدرها ولا تدرى ما تفعل، زوجها سافر وأسرتها بعيدة فى الصعيد، قالت: خذوه معكم، ادفنوه صدقة مع هذا الراجل الطيب، قال صاحبى: إنهما أُنزلا إلى القبر معاً، الرضيع يرقد الآن إلى جوار رضا..

زيارة

أسعى إلى المثوى الأبدى لوالدىّ صباح عيد ميلادى، اليوم ليس من أيام الزيارة، يطلع الأحياء على الراحلين أيام الجمع والمناسبات، نصف شعبان، أول رجب، الأعياد، رغبت فى خلوة، أقعد بالقرب منهما، أتحدث إليهما بالصمت، لا أحتاج إلى النطق، أتواصل بالأفكار، إذ يلمحنى عبده التربى يسرع ليأتى بمقعد، اعتاد خلال السنوات الماضية أن يتركنى بمفردى، اليوم لم ينصرف، بدا متردداً،

حائراً، يسألنى عما إذا كنت أعرف شخصاً فى مستشفى الصدر بالعباسية، إنه مصاب بالسل، تمكن منه الغبار الناتج عن الحفر عند الدفن، سنوات طويلة أمضاها هنا لكنّ المعلمين الكبار لا يعرفون الإنسان إلا إذا كان عفياً، قادراً، قبل انصرافه ظهر المعلم، تطلع إليه معاتباً: لم تقل لى إن البك جاء للزيارة، يبدو عبده مرتبكا، يقول المعلم: تعيش وتفتكر، ثم يقول متسائلاً عما إذا كنت أعرف أى مسئول فى المحافظة؟، يشير إلى الجهة البحرية، يقول إن صاحب الحوش المجاور مستشار ذو نفوذ، قرر أن يبنى سوراً مرتفعاً، هذا السور سوف يسد النافذة، أشار إلى النافذة التى تتوسط الجدار البحرى، قال إن هذا سيسد الهواء عن الحوش، المستشار يهدد الجميع بنفوذه ولن يوقفه إلا مسئول من المحافظة، كرر متسائلاً: لن يرضيك طبعاً أن يسد الهواء ويمنعه عن الراقدين؟ . .

مصحة

بحيرة مياه معدنية، لونها أخضر زيتونى، ثقيلة القوام، محاطة بأرصفة خشبية، قوائم تحمل شرفات، تتعلق الأيدى بالحافة، لابد من غمس الأجسام مدداً زمنية معينة، البناء أقيم حول البحيرة، أماكن الإقامة الفندقية، صالة الاستقبال، مقاعد، مناضد، وجوه من جنسيات شتى.

البحيرة خارج بودابست، طريق شبه جبلى صاعد، مؤد إليها،

أقصدها لزيارة ضابط يمنى، من اليمن الجنوبية، موفد للعلاج.

من هو؟

لا أعرف الآن؟

ما اسمه، ما ملامحه، لماذا قصدت المكان لزيارته؟

ما من علامة، ما من إشارة دالة، لا أدرى أى شىء، لا أجد عندى تفسيراً لتلك الزيارة، بل إننى لا أقدر على تحديد أى تاريخ بالضبط رغم أنهما اثنان لا غير، زرت المجر مرتين، الأولى عام تسعة وسبعين، الثانية ثلاثة وثمانين، أيهما؟ لا أعرف.

أحدق فلا أرى إلا اللون البنى للخشب، بنى قاتم، أشم رائحة المياه الكبريتية النافذة كأننى أنغمس فيها بكلى الآن، الآن، الآن بالتحديد، أما لماذا ذهبت ومن زرت فهذا ما لا أعرفه.

وحدة

الصالة الرئيسية فى بيت صاحبى الباريسى، أجلس فى مواجهة شابة جميلة، زوجة المسرحى الطليعى، عيناها فسيحتان، تحدقان إلىّ حتى لحظة تدوينى هذا، هل تتبقى النظرات إلى ما بعد الانقضاء؟ ، ربما تكون العيون وما ترسله آخر ما يفنى، كما أن الأصوات أول ما يندثر، تستعصى تماما على الذكرى.

مقدمتا ركبتيها مستديرتان، مكتملتان، أقدم إليها الرسالة التى حمّلها لى زوجها، تضعها فى حقيبة يدها، لم تقرأها، تسألنى عن أحواله، أقول إننى لست قريباً منه، لكننى أراه فى حالة جيدة، عروضه تثير إعجابا.

«ألم يحدثك عنى؟»

أحاول أن أجد ما يطمئنها، أقول جملاً عامة، غير محددة، تتطلع إلىّ، لكم تبدو عيناها نفاذتان، أحيد بنظراتى، لا أحاول رؤية الأنثى، رغم فراهة ركبتيها وبضاضتهما، والحض الكامن فى الوضع الذى اتخذته عندما تراجعت مسندة ظهرها إلى المقهى، لاحت فى عينيها رسالة ما، أحاول التفادى، انتماؤها إلى من أعرف يحول بينى وبين التفكير حتى، تتأنى فى اللفظ، تقول بإنجليزية واضحة:

«هل يمكنك أن تخبره برسالة من كلمتين..»

«طبعا. طبعا..»

«أخبره أننى وحيدة.. وحيدة جداً..»

ثم قالت بعد لحظة صمت:

«إنه لا يتصل بى، لا يكتب، لا يسأل عن ابنته..»

ثم قالت بحدة:

«قل له أننى وحيدة، أننى شديدة الوحدة..»

طالبات ثلاث، إيرانية وسورية وألمانية، رتبن استضافتى فى بيتهن الذى يقمن به، خلال زيارتى لجامعة بون، أظهرن وداً وعناية، حرصن على راحتى، يقمن فى بيت قديم، شقة مرتفعة الجدران والأسقف، تخلت إحداهن عن غرفتها الفسيحة، لا يوجد فيها إلا منضدة أخلت سطحها من الكتب، صوان قديم لا أعرف محتوياته، أما الفراش فكان حشية وثيرة فى الركن المواجه للباب، وسادة وغطاء، قليلة المرات التى نمت خلالها بعمق، بعدها استيقظت مرتوياً من الراحة، قليلة ونادرة حتى أننى لأذكرها بعد مرور كل تلك الأعوام، منها أيامى فى معهد تدريبى يقع نهاية شارع متعامد على البحر بسيدى بشر، كان ذلك فى أوائل الستينيات، رغم مرور حوالى أربعين سنة، إلا أننى لا أذكر تلك الفترة إلا وتدركنى راحة، مبعثها ومصدرها تلك الراحة وهذا النوم العميق الذى عرفته تلك الأيام المندثرة، فكأن تذكر الراحة جالب للراحة، حتى فى ذروة اضطراب نومى وتقطعه، ذلك أننى لم أعرف كفايتى من النوم منذ زمن دراستى وحتى توقيتى الآن، دائما كانت حياتى ذات شقين، نهاراً للدرس أو العمل وليلاً لنشاطى، لما يخصنى، قراءة، كتابة، زاد الأمر علىّ مع تقدمى فى العمر وتعاظم المشاغل، هذا أمر يطول شرحه، لكن ما لاحظته قصر فترات النوم خلال السنوات العشرين الأخيرة حتى ليمكن القول أننى لم أستغرق لساعتين متواصلتين قط، أستثنى هذه العصرية، أويت إلى الفراش، تلملمت على بعضى، رحت فى سبات ناعم وثير لم أصحُ منه إلا على إصرار رقيق من البنية الإيرانية،

تنحنى ملامسة كتفى، تقول بود واحترام إن موعد محاضرتى دنا، يجب أن نذهب الآن.

أتطلع إليها محاولا الاستيعاب، أحرص على الابتسام، لا أبدى ضيقاً حتى لا أحرجها، إنهن يرصدن باهتمام كافة ما أقدم عليه، يحرصن على التلبية، غير أننى لم أتخلص قط من ذلك الانتزاع الذى سلخنى عن استغراق لم أعرفه ربما منذ كنت طفلاً رضيعاً، ذلك النور السريع، الناعم الذى يدفع الكينونة إلى أعماق نائية لم أبلغها، ماذا كان الحال لو أننى عدت إلى اليقظة بدون لمساتها ونداءاتها الخجلى تلك؟، رغم مرور ما يقارب العشرين عاماً على تلك الليلة، فإننى لا أستعيد يقظتى القسرية إلا ويعاودنى أمران، أولهما ذلك الرهق الذى أدركنى، وذلك الندم على نوم لم أبلغه من قبل ولا من بعد..

فانيليا

الفانيليا يا الفانيليا..

أتذوقها فيورق ما عندى وينزاح إلى البعيد أفقى، أتعلق بأصداء الرائحة، أحاول أن أقتفى آثارها عندى أيضاً، فى اللامكان، فى الزمان المولى، تقودنى إلى الدرب مؤطرة باللحن الأسيان، المتردد عبر الصمت.

إنه فرن الحاج ناصيف، فى منتصف الدرب تماماً، الفراغ يعبق

بالفانيليا، لا يخلو كعك العيد منها، كذلك البسكويت والغريبة، هبوب منها لم أدر وقتئذ أنه سيثمر ويرسخ ويتردد وأبحث عنه كلما غاب عنى، أنتظر أمام الفرن مع الصبية ليلاً لكى أحصل على الصاجات الفارغة، الضغط شديد وأعدادها محدودة، تلك الصاجات السوداء المستطيلة التى تظل مركونة طوال السنة إلى أن تحل تلك الأيام الأخيرة من رمضان فيتعاظم الإقبال عليها، الانتظار مهما طال عنصر من عناصر بهجة إعداد الكعك، تنسم هفوف الفانيليا يضفى على الوقفة طراوة وحلاوة، إنها اللحظة الأقوى لحضورها، لا يوازيها إلا وصول الصاجات ممتلئة بالكعك الناضج، عند دخول عويس الفران، إلى الصالة الضيقة وإنزاله لها، واستقرارها، أتنسم رائحتها، أمى تبدأ رص الكعك متمهلة، بعناية، أتقنت صنعه فى مصر، كذلك كنافة رمضان، لم أعرف لما أعدته شبيها مع كثرة تذوقى لأصناف شتى فيما تلى ذلك وهذا مما يطول تفصيله. إنما أنا معنى الآن بالفانيليا، فى الدقى أول مكان مارست فيه عملى، مبنى قريب من كوبرى الجلاء، كان ذلك عام اثنين وستين، المنطقة هادئة، وأشجار الأكاسيا والجازورينا فى الطرقات المحيطة تعدنى بمباهج غامضة، الطريق الخلفى يؤدى إلى ميدان فينى، حتى الآن لم أعرف دلالة الاسم، أهو رجل أم سيدة، مازال قائماً، غير أن كثافة العربات أشد وطأة، كان مشيى اليومى إليه من مسراتى، أفضله، ربما لأن اسمه قريب من الفانيليا، ليس هذا فقط، إنما لوجود الفانيليا عالقة بفراغ الطريق المؤدى إليه، مخبز أفرنجى عندما أحاذيه أبطئ خطواتى، تغمر روحى رائحتها، قوية، باقية، لم تنقطع، أتهادى خلالها، لم أدخل المخبز قط، لم أتعامل معه، لكننى احتويته كعلامة مميزة، فى

عمارة تطل على هذا الطريق، فى الطابق المحاذى لمكتبى، فُتح تمام الحادية عشرة والربع مصراعا نافذة، لسبب ما التفت عندما سمعت ارتطامهما بالجدار، فوجئت بأنثى مبهرة عارية تماماً، صدرها مشرع، عيناها سوداوان، رأيت إلى ما دون سرتها بقليل، ما تبقى محجوب بالجدار عنى، لم يدم ذلك إلا قبسا من ثانية فانية، أغلقت المصراعين، فيما تلى ذلك وطوال مكثى بالمكتب، لأربع سنوات وبضعة شهور أتوقع كل يوم ظهورها، ذلك الانبثاق، لم يجر هذا حتى أننى شككت فيما عندى، هل جرى ذلك حقيقة أم أننى توهمت، أكانت رؤيا غامضة؟ لسبب ما ارتبطت عندى تلك الشابة وعريها بالفانيليا، ربما لتصاعد العبق من أسفل لحظة ظهورها، لو أن للرائحة لوناً، لقلت إنه بشرتها عينها، بيضاء مشوبة بصفرة.

فى الدرب تظهر عربة الآيس كريم عصراً، بعد تناول الغداء بوقت كاف، ومع إطلالة كثيرين لشم الهواء، بسكويت الفانيليا دائرى مستطيل، ألوان، أصفر، أحمر فاتح، يؤكل مع الجيلاتى، ثمة أقماع مثلثة تمتلئ به، ألحسها متلذذاً، متمهلاً، أتعجل لحظة التهامى بسكويت الفانيليا، سرعة على الذوبان، سريان المذاق الطلى، بقاؤه عالقاً، لسنوات عديدة لم أتذوقه، لبطلان وقوفى أمام عربة الجيلاتى، أثناء إحدى أسفارى إلى باريس دعانى صاحب مقيم إلى مطعم عتيق، قال إنه متخصص فى المطبخ الجنوبى التقليدى، مع أوان تقديم الحلو، قال إنه سيختار لى، الطبق الخاص، الذى يتقن المطعم إعداده، فوجئت عند تقديمه، بأسطوانات بسكويت الفانيليا، أقل حجماً من تلك التى كنت ألتهمها فى الدرب مع الآيس كريم، الطعم

قريب، عندما لاحظ تمهلى، استطرادى فى الصمت، أستفسر عما إذا كان الطبق الخاص لم يعجبنى، ابتسمت، أخبرته عن الفانيليا، قال إنه سيهدينى إلى مطعم ومقهى لا يقدم إلا كل ما له صلة بالفانيليا والفانيليا الطبيعية النباتية التى كنت أتذوقها على الأغلب فى الدرب، إنها نبات لا ينمو إلا فى مناطق معينة فى العالم، مثل المكسيك وأندونيسيا، بعد تزايد الطلب عليها أصبح سعرها مرتفعاً، علماء الأغذية توصلوا إلى مذاق صناعى، لكنه بالطبع مختلف، هذا المطعم المقهى لا يقدم إلا الفانيليا الطبيعية، قال إنه قريب جداً من الفندق الذى أقيم فيه بالحى اللاتينى.

على مهل أسعى إليه، إلى الدرب، إلى أوقات الفانيليا، أتوقف أمام واجهته، النبات معروض فى أوضاع مختلفة، قرون اسطوانية جافة، بنية اللون، أشبه بقرن الخروب، وللخروب شأن يغنيه، لو فتحت الكلام عنه لما توقفت، أكياس من الخيش فيها بذور صغيرة سوداء، بعضها من جزر القمر، من مدغشقر، من المكسيك، ألج المكان، صالة صغيرة بها مناضد متجاورة، على الجدران صور لأشجار الفانيليا فى تاهيتى، نبتاتها متسلقة تلتصق بالأشجار، كل ما يقدمه المطعم المقهى يمت إلى الفانيليا، الشاى بأنواعه، الحلوى، أطباق الطعام التى تقدم من الحادية عشرة والنصف ظهراً حتى الثانية والنصف، على أرفف صغيرة، أنيقة، منتجات الفانيليا، بذور، مطحونة، زجاجات صغيرة من الزيوت المستخلصة، أما الأنثى الشابة التى تقوم بالخدمة فتمت إلى بلاد الفانيليا، سمرتها غامقة تختزل حمرة الشفق وقدوم الليل وما وسق، ابتسامتها ضياء وتفاؤل لا نظير

له فكأنها صيغت من عبير الفانيليا الكائنة عندى، المنبعثة من الفرن، من عربة الآيس كريم، من الطريق المؤدى إلى ميدان فينى.

هذا الطريق بالذات الذى اتصلت به عناصر شتى، الأشجار الراسخة، الباسقة، ضوء العاشرة صباحاً، ذلك الهدوء السارى، أناقة ما، خفية المصدر، رائحة الفانيليا التى تضفى بُعدا خفيا كأنها تصل الطريق بالأفق البعيد، بكل ما عرفته من نسائم الفانيليا فى نسيمى وينبعث فى ذلك المطعم الصغير النائى.

تساؤل

لماذا تشتد الآلام ليلاً؟

بقايا

عندما ثقلت حركتها وصار بقاؤها بمفردها مقلقًا للأبناء، فيه خطر عليها، استجابت لضغط ابنتها الكبرى، بدأت توزيع حاجاتها، ابنها الأوسط أخذ المقاعد وكنبة، أى غرفة الاستقبال، الأصغر نقل إلى

بيته طقم الصينى والسجاد، فكت السرير والدولاب، طلبت تخزين غرفة النوم فى مكانها، لابد من بقاء شىء ما فى البيت، لم تذكر أنها ترفض نوم أى إنسان مكان المرحوم.

أتلقاها مرحباً، تبدو خجولة، تتحرك بحذر، كأنها ترغب الاختفاء، أدرك وعورة مفارقة بيتها ومقرها فأظهر الود الجميل لتنتفى الغربة، لم تصحب معها إلا أشياء صغيرة، عقدا من اللؤلؤ محلى بالماس ورثته عن أمها، مروحتين قديمتين من ريش النعام، ملابسها، وعددا كبيرا من الصور الفوتوغرافية، بعضها تغير لونه إلى البنى بتأثير القدم، وضعتها على مقربة منها.

مجرية

قاعة استماع الموسيقى بالهرم، فرقة للرقص من أحد بلاد البلقان، ثلاث مطربات يرتدين الزى التقليدى، إحداهن نحيلة، دقيقة الفم، كأنه توقيع، ممشوقة القوام، تغنى، إنها أقوى الأصوات وأعمقها، كأنه لن يكف، يبدأ ولا ينتهى، يخيل إلىّ أن عينيها التقتا بعينىّ، أنا مجرد مستمع بالصالة، فى بلد أجنبى بالنسبة إليها، تغنى لغة لا أعرفها، لا أفهم ألفاظها، لكننى أستشعرها فى مجملها وهذا حالى مع الغناء الذى لا أقف على ألفاظه لجهلى بها.

هى لا تعرفنى، أنا لا أعرفها، إنما أعرف صوتها، تغنى وأصغى،

تستنفر منى صوراً وغموضاً غير مدرك، قد ترحل إلى بلادها غدا أو بعد غد، سأبقى مقيماً هنا، قد ترحل قبلى، وقد أمضى قبلها، هى هناك وأنا هنا، أنا هناك وهى هنا . .

أسماء

يقول لى الأستاذ، من قام بتنسيق المؤتمر وترتيب أنشطته أنه سيخصنى بما لم يقدمه إلى غيرى من الضيوف، إنه يعتز بزيارتى لكلية مارجريت هول التى استضافت الجلسات، والأعضاء أيضاً الذين أقاموا فى أقسام الضيافة.

يتقدمنى صامتاً عبر الممرات التى أسلكها يومياً عند مغادرتى محل الإقامة إلى صالات الاجتماعات، ألمح مناضد المطعم الذى يقدم وجبات الإفطار، نتجاوزه، ننثنى إلى طرقة طويلة مظللة، ننحنى، إلى ممر أكثر إعتاما، يتوقف عند منتصف الجدار، يزيح ستارة خفيفة، يرفع قبعته، يمسكها بيديه، لا أرتدى قبعة أو غطاء رأس، أقف مترقباً، أتأنى فى حركتى، لا أسأل منتظراً أن يشرح لى، لا أريد الوقوع فى خطأ ما، أو أن يبدر منى ما قد يفهم خطأ، خاصة أنه أخبرنى بخصوصية المكان، بل إنه أقدس جزء فى الكلية بعد مكان الصلاة.

اعتاد على العتمة، ألمح أسماء مكتوبة بترتيب، تنسيق دقيق، بعد

إمعان أتبين أن كل اسم مقرون به تاريخ الميلاد والوفاة، أقواس مغلقة، عبارات على مسافة، مثل «للذكرى الجميلة»، «للسيرة الطيبة»، «للعطاء بلا حدود».

أحاول تثبيت بعض الأسماء فى ذاكرتى، خطر لى أن أخرج دفترى الصغير الذى أدون فيه ملاحظاتى، غير أن استغراقه حاشنى، مرة أخرى أخشى ارتكاب خطأ ما، عندما هز رأسه أشار إلىّ بيده أن أتقدمه، أرخى الستارة. عندما بلغنا الممرات المألوفة قال إن من اطلعت على أسمائهم من أجلّ الأساتذة الذين عرفتهم الكلية عبر القرون الماضية منذ تأسيسها، هذا من تقاليدها العريقة وأجلّها، أومئ مبدياً التأثر، متسائلاً عما تعنيه الأسماء بالنسبة لمن يجهل مسيرة أصحابها أو من قاموا به، هل يكفى نطق الاسم لبث الحياة المجهولة أو لاستعادة شىء مما كان، أو استثارة جوهر معنى لم أعرف إلام أشار؟

تساؤل

لو قُدر لى تتبع اللغات التى نطقها أسلافى، كم لغة سأقف عليها؟ كم لهجة منطوقة؟ كم لغية حروفها الهمهمات والإشارة، كم سأعرف أصولها ومضادها ودلالاتها، وكم مساحات الصمت التى لن أدركها؟

منذ

الآن هنا، منذ لحظة هناك، منذ ساعة أتابع شريط الأخبار الأحمر الذى يمر تحت شاشة التليفزيون بينما المحاور يتساءل عن وضع المسلمين فى الولايات المتحدة بعد الإجراءات الأخيرة. جيش المهدى ينسحب من النجف، هدم عشرة منازل فى رفح، الاستعدادات لمؤتمر الثمانية، حالة الطوارئ لم تزل فى حدود اللون الأصفر لكن ثمة احتمالات برفعها إلى اللون البرتقالى، منذ أربع وعشرين ساعة دخلت المقهى، لمحت الرجل الطيب يجلس بمفرده أومأت محيياً غير أننى كنت راغباً فى الانفراد، لو عرف الطبيب المعالج أننى عدت للتدخين لأبدى غضباً: هذا انتحار، مرة واحدة أسبوعياً، ما مررت به فى العام الأخير ثقيل، ولو.. هذا لا يبرر العودة إلى سلوك قاتل، يسألنى النادل: تشرب حاجة؟، أقول شاى بدون سكر، منذ شهر، منذ شهر، أجلس فى ميدان الأوبرا بمدينة ميونيخ، أشرب البيرة المغبشة متمهلاً، أرقب مسارات الدراجات، يظهرون من خلف الكاتدرائية ذات البرجين المرتفعين، رجال، نساء يتدفقون بسرعة منحنين على المقاود مختلفة الأشكال، يتكاثف حضورهم ثم يخف شيئاً فشيئاً، حركتهم تشبه أسراب الطيور المحلقة قبل الغروب، تمضى فى اتجاه واحد، لا تنثنى، منذ سنة، أين؟ أين؟ لن أستعين بأى ورق، ربما كنت فى الأقصر، أتمدد داخل الغرفة الفسيحة فى البيت

الذى اعتدت النزول فيه قرب وادى الملكات، أتطلع إلى السقف، من جريد النخل، أتساءل: هل يمكن للعقارب أن تندس فيه؟، منذ عشر سنوات، لا أدرى، لا يمكننى التحديد، تتداخل المرئيات، تتوالج البقايا، منذ عشرين، ثلاثين، أربعين، خمسين، ستين، لا أعلم بالقطع، أطيل التحديق فلا أرى إلا ظلالاً تخص غيرى، الآن هنا، الآن هناك، ماذا يصل بينى وبينى؟

حساء

منزل ما، محاط بحديقة، قرية صغيرة جنوب فرنسا، تصحبنى آنيت المشرفة الثقافية لمدينة آجد، صاحب البيت صديقها، صيدلى، يعيش برفقة زوجته، لم ينجبا، أبديا ترحيباً بى، أتطلع إلى الصالة التى لم أتوقع بلوغها والتى لن أعود إليها فى الأغلب الأعم، تشغلنى تلك الأماكن التى احتوتنى عرضاً، التى لن أستعيدها، لم أعرف قط أننى بالغ ذلك البيت القريب من البحر، مالفت نظرى فى المكتبة كتب الفن، خاصة كتابين، الأول للألمانى لاجر، والثانى للسويسرى بالتوس، نقلت فى مفكرتى اسم الناشر والعنوان، تأملت طويلاً لوحة لعارية مصابة بجرح يقطر دماً، قبل وصولنا قالت آنيت إن الرجل يهودى فقد والديه خلال حكم النازى، خلال ترحالى فى أوروبا اعتدت مقابلة يهود، لا تعنينى الملة بقدر ما يهمنى الموقف، بدا

الرجل ودوداً، ميالاً إلى الصمت، تلوح زوجته شابة، متماسكة القوام رغم تقدمها فى العمر.

نتنظم حول المائدة، تأتى بوعاء فضى مستطيل مغطى، تقول إنها طهت لنا حساء الكابوريا صغيرة الحجم، لا يتجاوز أوان ظهورها الأسبوعين، تبدأ وتنتهى كمية محدودة يتم صيدها، أوصت عليها منذأيام، ترفع الغطاء فتسرى الرائحة البحرية، تذكرنى بالسواحل المصرية، بورسعيد تحديداً، الكابوريا الصغيرة فى المرق مثل اللقم، يمكن مضغها، طحنها وابتلاعها، استعدت مثيلاً لها فى قبرص، كانت مقلية فى الزيت، محرشفة، لمذاقها جذب.

أحتسى رشفة من نبيذ أبيض متقن، أتبعها بحسوة، مذاق متمهل، يسرى إلى الخلايا البعيدة، عند انصرافنا انتابتنى نوبة سعال حادة، جافة، كان الطقس بارداً والنجوم حادة اللمعان فى السماء، تعلق بصرى بكوكبة أوريون النجمية، أدنانى النبيذ منها، كان الرجل الذى لا أحتفظ بملامحه أو اسمه يرتدى قميصا فقط وصديرية بدون أكمام، أصر أن يفتح صيدليته المغلقة ليلاً، قدم إلىّ شراباً وأقراصاً، نصحنى بضرورة بدء التناول بالتناوب، هذا السعال مازال فى بدايته، لكن إهماله خطير، فقدته عندما ودعته، لا أعرف اسمه، لا أذكر اسم القرية، حتى آنيت غابت أخبارها عنى.

ذاك النثار

لا أعرف ولن أقف على العوامل التى تحرك ذلك النثار من مراقده وتدفعه إلى مركز الرؤية والتحديق، لحظات مبتوتة، عبارات غير مكتملة، روائح هينة، هفهافة لا يمكن إدراكها بالبصر أو الملمس، لكنها تستدعى حقباً ومراحل، وربما تدل على عصور منقرضة لم يعد لها إلا التخمين، ربما تبدو ملامح من البعيد فترسل إلينا وفادة من النسيان، طال بنا الظن أنها اندثرت وفنيت، فجأة يسعى شخص، أحكيه للأصحاب، أو أروى حدثاً أو ملمحا أو نادرة ارتبطت به، أما اللحظات التى تنتثر فجأة، أحياناً كزخات الشهب، أو كنيزك مارق فتبدو معلقة، ساكنة، منبتة عما قبلها وما يليها وما تحت الثرى، كل ما مضى صامت، لا يتحرك عند استعادته، نستعيد الصورة بدون حركة الماثلين فيها، بلا أصواتهم أو أى عبير متصل بهم، للروائح سبل أخرى، كل منها يسترجع اللحظة المولية ومكوناتها، لكن أى مكون منها لا يستدعى رائحة ما، لا يتحرك إلا المعاين، المرئى، أما المنقضى فلا يبدو إلا متجمداً، شاخصاً بغير رواح أو مجىء، ساكن لأنه اتحد بالعدم، ورغم صمته، واستحالته، لكننا لا نكف عن التوسل لاستعادته، فظهوره العدمى هناك يعنى أننا مازلنا هنا، ولواح شظاياه الواهية عبر الذاكرة فيه تأكيد لحضورنا الآن، وأنه ليس لنا إلا ما سعيناه.

تساؤل

ضوء أراه فى الأعالى، منبعث من مسافة بليون سنة ضوئية، هل مازال مصدره ماثلا فى مكانه؟ أم تحول إلى ثقب أسود يلتهم كافة الموجودات حتى الضوء لا يمكنه الإفلات، إذن . . . أى ضوء أراه؟

عبور

يسألنى ضابط الجوازات، هادئ الملامح، طيب الوجه:

«كم ستبقى فى كليفلاند؟ ».

«أتمنى ألا تزيد إقامتى عن شهر! »

يتطلع إلىّ، نظراته سيالة إلىّ، إنسانية، أستعيد نبرته:

«I can understand what do you mean»

كررها مرتين، يتمنى لى إقامة طيبة وشفاءً . .

تساؤل

لماذا تتشابه شهقات اللذة مع آهات الألم؟

يارب

في استراحة الفندق الملحق بالمستشفى، يسألني علي صبري، رئيس البنك العقاري سابقاً، البالغ سبعين عاماً:

«من سيجري العملية؟».

«الدكتور كاسيجروف.. يقولون إنه أستاذ مثل هذه العملية المزدوجة، الصمامات والشرايين..».

يتطلع إليّ صامتاً، ثم يقول:

«قول يارب..»

أهتف من أعماقي:

«يارب..».

حسرة

ما ورائى أكثر مما يبدو أمامى، ما خلفته أغزر مما أستقبله، أكرر رغبتى، أمنيتى المستحيلة، أن أمنح فرصة أخرى للعيش، أن أولد من جديد لكن فى ظروف مغايرة، أجىء مزوداً بتلك المعارف التى اكتسبتها فى وجودى الأول الموشك على النفاذ، أولد وأنا أعلم أن تلك النار تلسع، وهذا الماء يغرق فيه من لا يتقن العوم، وتلك النظرة تعنى الود، وتلك للتحذير، وتلك تنبئ عن ضغينة.

كم من أوقات أنفقتها لأدرك البدهيات، ومازلت أتهجى بعض مفردات الأبجدية، كم من أمور ستعبرنى ولن أدرك كنهها، لن أقف على دقائقها، أدركت ما يتعلق بغيرى، ولم أقف على ما يتصل بى، فيا حسرة على العباد!

تساؤل

لماذا تبدو الاحتمالات أحسن عندما تكون الأوضاع أسوأ؟

حـدود

دنوت من تلك الحدود غير المرئية، الفاصلة بين ما نعرفه وما لا ندركـه، بين الحيـاة والعـدم، جرى ذلك زمن الحرب، عندئذ ترتد الألوان إلى أصولها، وتتضح الخصال، تقوى المراجعة، نقترب من الجوهر، طبعاً. . شتان بين حال يختاره الإنسان بنفسه، خاصة إذا اتصل بكيان أكبر منه، متعلق بقومه، بناسه، بموطنه، بين حال يفاجئ الإنسان ويدفعه دفعاً إلى موقف لم يختره، آت من داخله، غير أن جوهر تلك الحدود يبقى متصلاً، متوحداً، عندئذ يطول إمعانى فيما يتعلق بى، حولى، داخلى.

عديدة تلك الحدود التى وقفت عندها، فى الاعتقال القسرى، عند مواجهة قصف العدو، الطيران المغير، احتداد الأمور، بلوغها الأقاصى، لكن فى كل هذا المكان لى الخيار، وكان لى القرار، حتى مع الحصار، أما الخلل الآتى من عندى، من صميمى فأمره مختلف، مغاير، مع بلوغى الوهن لاختلال الجسد أبلغ الحدود لكن من درب آخر، تصبح الرؤى أيضاً أكثر حدة، اللحظات أثمن والأحاسيس جلية لا تحتمل التمويه يوشك البصر على إدراك قبس من الأمر. .

حنين

تتدفق عندى بوادر طاقة من داخلى، رغم الفارق فإنها تشبه تلك الحالة التى عرفتها عند اقترابى من الجبهة، من خطوط القتال زمن الحرب، تحفز، شحذ للحواس، رغم كل أطياف الشجن المصاحبة لإعيائى ومرضى فإن حنيناً يتوالى علىّ، نصوع يميز حضور الأشياء والموجودات، كأن الحضور كله قد خلا من الشوائب.

استنفار الاقتراب من المفارق، من اللحظات المؤشرة، يغلب عندئذ الحنين، الحنين إلى أماكن عرفتها، إلى بشر ائتنست بهم، صحبتهم، مدوا لى العون، دلونى، أظهرت لهم وأظهروا لى جميل المودة، إلى أطعمة تذوقتها وصارت لى مرجعية ومرتكزاً، إلى لحظات مولية، إلى نصوص قرأتها، تعلقت بها، احتفظت ببعضها على مقربة من رقادى، إلى لحظات جد بسيطة.

المرض ليس سوءاً كله، إنه يضعنا فى نقيض العادى والمألوف، حتى إذا افتقدنا ذلك العادى، وحالت بيننا وبينه الأسباب، نعى عندئذ كم بددنا من وقت، كم قصرنا فى حق الأحبة، كم تقاعسنا عند إدراك هذا الجمال كله..

تساؤل

لماذا يكون معظم الاحتضار فجراً؟

نبضى

أستدير إلى الجانب الأيسر، عند وضع معين تلاصق فيه أذنى الوسادة، أفاجأ بقلبى، يأتينى فى حركته واضحاً، جلياً، ركضه المتوالى، نبضه المتعاقب، فى استمرارها سعيى، خشية غامضة تتملكنى، مع فضول قوى، لذلك لا يطول إصغائى، أحاول رصد النبضة الواهنة، تلك التى يلوح عندها الخلل، أتوجه بالخطاب إلى ذلك القابع داخلى، المتجه صوب سكون لا أعلم متى يحين أوانه، رغم تعلقه بى، مركز صميمى، بؤرة حضورى؟

تتوالى الدقات مستعصية على الفهم والتفسير، أحياناً أشعر بخفقة مغايرة، لماذا؟ ما من جواب، تماماً كما يستعصى تحديد أسباب الخفقة الأولى، ما القوة الدافعة، ماذا كان قبلها؟

هل أدرك المصريون القدماء كنه السر؟

عند تحنيط الجثمان يفرغون الجسد من كافة محتوياته، الأمعاء، المعدة، حتى المخ، عدا شىء واحد يحفظونه سليما فى الداخل، إنه القلب، وعند المحاكمة التى سيتحدد إثر نتيجتها المصير الأبدى يوزن القلب، يوضع فى كفة وفى الأخرى ريشة ماعت، القلب يحدد المصير، له وجوده المستقل، له جهازه العصبى الخاص، إنه العضو الوحيد الذى لا يهدأ منذ بدء التكوين وحتى خروج الصورة من

الأرض، المخ يهدأ قليلاً مع النوم، ينفث مخزونه، ما يضايقه عبر الأحلام، كل الأطراف، الأعضاء يعمل كل منها بقدر عداه، اسمه القلب لأنه يتقلب من دقة إلى دقة، من حال إلى حال، هو مع تلك النبضة ليس ما كان قبله، وليس ما سيكون بعدها، أحياناً أخاطبه مع أنه إنى، أسر إليه وهو منى، أبدى له الحذر فلم يكن بوسعى دفع ذلك الكائن الدقيق، المستعصى على الرؤية، نفذ إليه ذات يوم من طفولتى النائية، ألحق به ما لم أعرفه ولم أكتشفه إلا بعد سنوات طوال، عندما قال الطبيب إنه تأثر بحمى قديمة، قلت إننى لا أذكر، قال إن الأعراض تتشابه.

أصغى إلى دقاته ملتمساً السماح إذ أثقلته بصباباتى وأشواقى، ومكابداتى، بتداعيات كافة ما عشته بالخيال متجاوزاً الواقع المحسوس، هفوى إلى كل ما ليس فى المتناول. لم يخذلنى قط، تبعنى وامتثلت له، لم يؤذنى، أنا الذى ألحقت به الضرر بفائض حبورى، وقسوة كدوراتى، وثقل صمتى، وشدة خشيتى، وسهولة ميلى مع كل هبة نسيم ولمعة كل ضوء، ورعشة أى نجم، واهتزازى لكل نبأ يبلغنى من زرقة البحر ونسائم الريحان وطَلْع الورد..

تساؤل

ماذا كان يمكن أن يكون، لو أن مالم يكن كان؟

سطح المريخ

مسرور بما سمعته عبر الإذاعة، يثير الخبر عندى راحة، نجح العلماء فى مركز المراقبة التابع لوكالة ناسا فى حل مشكلة الاتصال بالحاسوب الآلى لحركة مركبة الفضاء وأنظمتها، المستقرة الآن فوق المريخ، عطل جرى بعد الهبوط، استغرقوا أربعاً وعشرين ساعة لإصلاحه، أوامر واتصالات يجريها الإنسان على بعد ملايين الأميال.

يقول المذيع إن المركبة ستتحرك بعد قليل.

الساعة الحادية عشرة هنا، ترى. . كم هناك؟ ، أهى نفس اللحظة فى المريخ؟ أم لكل منهما حضورها؟ ، أتعاطف مع تلك المركبة كأنها من لحم ودم، بشر مثلى، أتخيلها فى وحدتها هناك، أستعيد الصور، هذا السطح المائل إلى حمرة، تلك الجلاميد من الصخور، متى تكونت؟ متى استقرت بهذا الشكل؟ هل كانت حمما مماثلة وتجمدت؟ هل سقطت من الفراغ السحيق؟ هذا وضعها الآن، إلى متى ستظل؟ متى يتبدل؟ إلام المصير؟

حديث الطيور

مراكش.

دار الباشا، دكة خشبية فى الحديقة، أجلس إليه، أسمر، طويل،

مستقيم الملامح، جلبابه مغربى الطراز، لا يغطى رأسه بالسلهاب، ما نسميه فى مصر البرنس، يتدلى أعلى ظهره، يجلس فى مواجهة ثلاثة من طيور الحسون، يبادلها الحديث، يُصدر أصواتًا، قصيرة، ممتدة، متعددة الدرجات، تتطلع الطيور إليه، يصدر صوتا فتقترب منه، يطير أحدها ليحط على كتفه، صوت آخر فتطير كلها، عندئذ يلتفت إلىّ قائلاً:

«إنه الحسون، هذا وقته، يجىء فى مثل هذا الوقت..»

عندما تبدأ طلائع الأسراب فى الوصول، يخرج ليكون أول من تراه فى المدينة ومحيطها الممتد، الفراغ المنتهى بجبال الأطلس، لا يتقن اللغة فحسب، إنما يعرف بعض الطيور بعينها، خاصة أدلة الأسراب، يستفسر منها عن أمور ويستوضح مسائل، ليس فقط الحسون، إنما أصناف أخرى، رأيته فى أغمات عندما صحبنا لزيارة قبر المعتمد بن عباد وزوجته وأبنائه، كنت بصحبة صديقى نزيل مراكش سى جعفر الكنسوسى، وكان بصحبتنا اثنان آخران، تمثل عندى ملامحهما ويغيب اسماهما، بعد أن قصدنا الشيخ مصطفى سليطين فى خلوته وقبل مرقد المعتمد عرجنا إلى خلاء فيه أشجار وحشائش وزهور وطيور، نزل صاحبنا مبتسماً، أشار إلينا كى نقف ولا نتقدم بصحبته، لم يكن بيننا وبينه إلا حوالى أربعة أمتار، واجه مجموعة من الزرزور، لم أستطع إحصاء عددها لعدم ثباتها وانتقالها من موضع إلى آخر، غير أننى لاحظت امتثال عدد منها وتطلعها إليه ودخولها فى حوار معه، عندما عاد إلينا قال:

«كل شىء بخير..»

كان يخبرها عن أحواله، وتخبره، قال لى سى جعفر إنه يتحدث إلى أسراب عابرة وطيور لم يتصور يوماً أنها يمكن أن تفارق طيرانها لتحط على يدى إنسان، ما من طائر مقيم أو مهاجر إلى مراكش وجبال الأطلس إلا ويعرف لغته، يسأل ويجيب، ويفضى بالمكنون إذا أصغى إلى استفسار، أحياناً يداوى بعضها من آلام وأوجاع هو الأدرى بها.

يبدو أمامى مرتدياً نظارة سميكة الزجاج، لا أدرى هل ظهر بها فى أول زيارة لى، أم يختلط الأمر علىّ، المؤكد أنه فى مواجهة الطيور لا يضعها ولا يتطلع من خلالها. .

مريخ

أخرج إلى الشرفة الصغيرة المتصلة بغرفتى مكتبى ونومى. .

هاهو، لامع، مستدير، فى حجم كرة التنس، ربما أكبر قليلاً، لامع، مضىء مع أنه كوكب وليس بنجم، لكنه ضوء الشمس المنعكس منه، تماما كالقمر الصامت، البارد، الهامد، لكنه وسيط جيد للضوء الآتى من بعد الشمس السحيق.

هاهو، أمامى، فى مواجهتى، تقريباً مسار الشمس والقمر نفسه، من الشرق إلى الغرب، بعد شهر سيختفى، سيظل عالقاً فى مداره هكذا، نظن ثباته، لكنه يبتعد، ينأى عن الأرض بسرعة مئات الكيلو

متـرات فى الثـانيـة ، أى فـراغ؟ ، لـو أن مخلوقـاً مـا يتطلع الليلة إلى الأرض من هناك ، كيف سنبدو؟ ، ما أعرفه أن كوكبنا سيظهر ضعف تلك الكرة المضيئة ، وإذا أتيح له ما نظرت الليلة عبره ، منظار مقرب فسيرى الكوكب الأزرق المغلف بغيوم بيضـاء ، بعد أن صورنا الأرض من بعيد يبدو بلونه العـميق وسحبه الأجمل والأشد صفـاء ، عندما دعـانى صـاحـبى عـالم الفلك أول الليل ، حـوالى العـاشرة للتطلع من المنظار ، رأيت لأول مرة اللون الأحمر مختلف الدرجات ، وطاقية الجليد البيضاء تتوج الدائرة ، نقاط بيضاء متفرقة ، رأيته فى حجم رغيف بلدى مكتمل الاستدارة ، هاهو أمامى ، لو لدىّ منظار لدققت وفحصت ، لكننى أكتفى بالتطلع مشدوداً إليه ، اليوم صباحاً دنا إلى أقرب نقطة فى مداره من الأرض ، نقطة لا يبلغها إلا كل ستين ألف سنة مرة ، أى أن كل ما أعرفه من معالم الآن لن يكون موجوداً المرة القادمة ، لا أدرى أين ستستقر ذراتى وقتئذ؟ ، هل سيكون كوكبنا فى المدار؟ ، لا أقدر إلا على التساؤل ، غير أننى أمعن النظر ، محاولاً استيعاب كافة ما تحمله إلىّ اللحظات .

الليلة مساء الأربعاء الثامن والعشرين من أغسطس ، العام الثالث من الألفية الثالثة المنقضية على ميلاد السيد المسيح ، منذ الآن وحتى أسبوعين قادمين سوف يستمر هذا اللمعان ، ذلك الضوء المستمر ، المستدير ، منذ سنين تختفى النجوم من سماء مدينتنا لشدة الأضواء المنبعثة منها والتى تخفى النجوم والأجرام والنيازك والشهب ، لذلك يبدو فى حضوره قوياً ، قريباً ، أدقق ما دامت الفرصة النادرة قد أتيحت لى ، صباح اليوم ، تمام الثانية عشرة والدقيقة الواحدة

والخمسين، بتوقيتنا اقترب الجرمان الكبيران من بعضهما إلى أقصى درجة ممكنة، آخر مرة حدث خلالها ذلك القرب عام 57617 قبل الميلاد، وصل المريخ إلى نقطة يبعد فيها 55.72 مليون كيلو متر، إنها المسافة التى كانت تفصل بينهما صباح اليوم نفسه، الثانية عشرة والدقيقة الواحدة والخمسون ظهر الأربعاء. أردد التوقيت مرات مع تطلعى إلى أعلى، كانت لحظة سطوع للشمس فى ديارنا، لا يمكن رؤية النجوم، طبقا لوضع الأرض وقتئذ فإن أقرب نقطة إلى المريخ ستكون فى النصف الجنوبى حيث المحيط الهادى، جزيرة تاهيتى والصحارى الاسترالية المقفرة، هناك، المريخ شديد الوضوح، ساطع، عندما يخلو الفضاء من عناصر التلوث فإن الضوء المنعكس يبدو أحمر اللون.

الأرض فى مدار، المريخ فى مدار، أحيانا يدنوان من بعضهما خلال مسار كل منهما، القرب المتكرر كل خمسة عشر عاماً أرضيا، المستوى الثانى بعد مائتين وأربعة وثمانين عاماً، أما ما حدث صباح اليوم فلا يتكرر إلا كل ستين ألف سنة تقريباً، لا أعرف أين موقعى الآن وأنا شاخص من الشرفة، تماما كما أجهل جدودى الذين ربما تطلعوا من كهوفهم إلى السماء لو أن أحدهم أدرك الظهور الاستثنائى كما أراه الآن، ترى.. ماذا جال بعقولهم؟ هل شعروا بالخشية، هل تلا بعضهم تعاويذ معينة، أم اكتفوا بهمهمات غامضة؟ هل اتخذوا إجراءات معينة؟

أى فراغ يعبره بصرى الآن ليحتوى الكوكب بالنظر؟

أى مخاطر تجتازها نظراتى؟

الأشعة الكونية، حزام الكويكبات، القطع الصخرية الضالة، بقايا الفوضى الأولى، فوضى ينظمها قانون أبدى، كونى، هل احتمال الكارثة وارد مع قصر المسافة؟

المسافة المعتادة حوالى ثمانية وسبعين مليون كيلو متر، عند ذروة القرب تبلغ خمسة وخمسين مليون كيلومتر تقريباً.

سألت صاحبى عن السرعة التى يتحرك بها كلاهما؟ ، قال إن المريخ يبتعد الآن بسرعة أربعة وعشرين كيلو مترا فى الثانية. أما الأرض فتمضى بسرعة ستين كيلو متراً فى الثانية، إذا علمنا أن سرعة طلقة المسدس حوالى سبعة وسبعين مترا فى الثانية، هل يمكننا تخيل السرعة التى يسبح بها كل منهما فى المدار؟ فى ذلك المسار البيضاوى، كل مسارات الأجرام بيضاوية، المجرات بيضاوية، هل البيضة رمز للكون؟

أتأثر لانتمائى إلى النوع الإنسانى، ماذا يعنى اقتراب المريخ للكائنات الأخرى؟ ، لكننى أتوقف وأستدعى إلى الذهن الكلاب التى تجرى وتنبح قبل الزلازل، ألا يمكن أن تكون لهذه الكواكب لغة ما؟ ، ربما يجرى حوار بين الأحمر والأزرق والأصفر، وأبعد أجرام السماء؟ لم لا؟ ، هل سيتقن البشر تلك اللغات؟ لم لا؟ ألم أر الرجل ذا المنظار فى مراكش يخاطب الزرزور، ويستفسر من الحسون، ويأمر اليمام بالرحيل ثم يستدعيه، ويصغى إلى أسرار جمة يفضى بها البلبل إليه، لو لم أره وأسمعه بحضور الصحب لما صدقت، لماذا أنفى إمكانية الحوار بلغة ما، بمفردات ما بين الأجرام.

يمضى الوقت وبصرى عالق، متطلع، لو أن أحدهم هناك فلابد أنه يتخذ وضعى عينه، أنا متطلع، وهو يتطلع مع أن كلينا شاخص إلى الآخر، بعد ستين ألف سنة لن أكون إلا مجرد احتمال سريانى الآن، أرنو إلى البشر الذين سيسعون فى هذا الزمن المقبل، هل سيكون بينهم من يمت إلىّ؟ هل سيلم بطرف عنى، أم سيجهلنى تماماً كما أجهل أولئك الذين تطلعوا مثل تلك الليلة مثلى منذ ستين ألف عام لو أنهم انتبهوا وأدركوا . .

شروق الشروق

إنها بؤونة، يونية، ذروة الحر، اعتدت السفر جنوباً، ربما بتداعيات عودتنا فى الأجازة الصيفية إلى جهينة، الآن أقصد القرنة، أستيقظ قاصداً الخروج، المشى قبل اشتداد الحر، قبل تناولى الإفطار.

لم يبد القرص بعد، درجات عدة تسبق تأججه، تلى كذلك غيابه، لذلك كان التدرج فى عمارة المصريين القدماء وكانت المراحل، فى الحكى، فى الرسم، فى الكتب المقدسة، أمسك بعصا نحيلة، تماما كما كان أبى عندما يتنقل بين النجوع ليهش بها كلاب الطريق، هنا أخشى الكلاب والعقارب، أتنفس رائحة الأرض والنخيل والجميزة العتيقة، أولى وجهى ناحية الشرق، ينتهى الطريق عند النهر، أتملى لون الزرع الأخضر الخصب، الممتد حول تمثالى

أمنحتب الثالث، يعرفان بتمثالى ممنون منذ ترميمهما فى العصر الرومانى، فى الزمن العتيق كان يصدر عنهما أنغام تشجى، ما بين الفجر وإطلالة قرص الشمس، بطل ذلك بعد إصلاحهما فى الزمن الرومانى.

أمد الخطى، فجأة، أتوقف، يتركز الخلاء كله فى ذلك الهلال الصاعد على مهل، المصر، القاصد، الذى لا يمكن لأحد أن يوقفه، لكننى أوشك على رؤية حركته، بدء رحلة عبوره السماء صوب موضع الغيب، ملخص الدورة الكبرى لحيوات الأفراد، لعمر الكون، نراها يومياً ولا ننتبه، ما يبدأ ينتهى فمن يعى؟

لون القرص أصفر مشوب بخضرة ما، حوله خلاء، فراغ صريح، خال من أى أثر لغيوم، لضباب، فراغ مطلق أحاول التشبث به، أقصى معارفى كلها عنى، أتخذ موقع الأجداد، أسعى إلى النظر عبر معارفهم، رؤاهم غير أننى لم أكن بحاجة إلى استدعاء أى حال، أو مجرد تخيله، شروق واضح جلى، أستعيد شروقاً بهرنى عندما فتحت مصراعى الشرفة المطلة على النهر فى مدينة المنيا، لكن هذا مغاير، كأنها شمس أخرى، حركتها تنبئ بدوران الأجرام، بسعى الموجودات فى الفراغات العُلى، بتوالى الأزمنة، بعبور الأبعاد التى لا تدرك بالحس، مثُل عندى هذا كله خلال وقوفى مبهوراً فى مواجهة شروق الشروق هذا.

كون فى قلبى

أتمدد فوق الطاولة المستطيلة البيضاء، يثبت الطبيب النشط الشاب الأسلاك بمواضع معينة بعد دهن جلدى بمادة لزجة تشبه البالوظة، مرحلة أخرى توشك أن تبدأ لمحاولة الوقوف على ما يجرى داخلى، فى القلب منذ أن بدأت الآلام، والأوجاع أعراض، مجرد إشارات، أسرار عديدة مجهولة بالنسبة للإنسان تتصل بجسده، بنفسه، تماماً كأسرار الكون الفسيح الذى لم ندرك بعد أبعاده.

رأيت ملامح قلبى مرتين من الداخل، الأولى عند تصويره بالموجات فوق الصوتية، وبعد نفاذ منظار عبر المرىء لتصويره عن قرب، خلالهما رأيت الخطوط الدالة عليه، حركته، لكننى شاهدته من داخله عندما ولجه فرعا القسطرة، وتبدلت دقاته لتجرؤ جسم غريب على لمس لُبّه، كانت الشاشة فى مواجهتى، كنت أتساءل عن موضع الإصابة القديمة التى لحقت الصمام الميترالى بعد نوبة حمى لا أذكر من أمرها شيئاً، كنت أحاول تحديد المواضع التى تأثرت بالأسى والفرح، بالعشق ـ بالهجر بالكتمان بالحسرات بدءاً من فقدان الأمل فى استعادة لحظة حميمة إلى انهيار صلة لطالما اعتززت بها.

هاهو ينبض، ما بين قبض وبسط، حركة بكر، تبدأ فى الرحم، أول دلالة على تكون المولود، مواجهة لم أعهدها ما بينى وبينى، بين ما يظهر وما يخفى منى، على شاشة القسطرة بدت الأوردة والشرايين بكبيرها وصغيرها شبيهة بشجيرة، تتصل وتتفرع بمنطق توالى الأغصان وتوالد الفروع نفسه، شجرة تعرت من اللحاء، من طين الأرض، أرى جوهرها.

هاهى الأصوات، فى البداية غريبة، لا أقدر على تصنيفها، شيئاً فشيئاً تتضح من خلال الدقات، هذا وشيش موج البحر فى ذروة عاصفة، بلوغ الموج مداه، تراجعه، ما يسفرعنه من رذاذ.

مع انتقال الجهاز إلى موضع آخر، تهب رياح هادئة، تسرى فى غابة كثيفة لكنها تفيض بضوء خاص، أتبين حفيف الأشجار، تمايل الغصون الحاوية للثمار، بينما يلوح ترنيم خافت كموحيات العشق.

موضع مغاير تبدأ معه رعود، بروق تتبعها أصوات الكون المضطرب، تتبدل إلى ما يشبه الهمس إلى ما لا أعهده، مع تغير مكان الجهاز الناقل، أصغى إلى ما لم أعرفه من قبل، ما لم يلتقطه سمعى، أحاول التمييز، الوقوف عليه داخلى.

تساؤل

ما أوجه التشابه بين البحر والصحراء؟ لماذا يواتينى الحال عينه، كلما وقفت عند حدود كل منهما وأمعنت النظر؟ هل يكمن الفارق فى الاسم لا غير؟

حلم

أقف خطيباً، ربما فوق سطح، ربما ربوة، المؤكد أنه قرية سياحية للصحفيين، ألوح محذراً. منبها إياهم إلى من يدبر ليسلبهم قريتهم. وبدت القرية خالية تماماً وغيوم كثيفة، قريبة، وصوت أمواج بعيدة تصطدم وترتد، لا أطالع إلا النوافذ والأبواب والجدران المصمتة.

حلم

حلم بزلزلة على وشك الوقوع، حلم بفقدان حذائى أثناء الصلاة، حلم بمواعيد حانت وما تبقى من مواقيت يحول دون لحاقى بها، حلم بفقدانى الطريق فى البلد البعيد، حلم بفقدان جواز سفرى فى غربة.

غرفة الصمت السماوى

فى مطار المدينة المطلة على البحر تنتظرنا منسقة المؤتمر، أبدت ترحيباً، ابتسامتها الفسيحة، أسنانها المنتظمة، رحابة ملامحها جعلتنى أفيض بألفة ومودة، ما أذكره منها تلك الابتسامة واستدارتها السريعة، الرشيقة، تقدمتنا إلى مكان انتظار السيارة، استقر زميلى

فى المقعد الخلفى، لم يستجب لدعوتى كى يجلس إلى جوارها، علل ذلك بأنه لا يحب حزام الأمان!

عندما قطعت العربة الطرق المؤدية إلى خارج منطقة المطار، قالت إنها تأسف، ستخبرنا بأمر لم تشأ له أن يقع، تحفزت لسماع مكروه، رغم أن ابتسامتها الفسيحة، الودودة مثلت فى لفظها، فى كافة ما يصدر عنها من نطق، قالت إننا سنقضى الليلة فى مدينة «ست» القريبة من مدينة «أجد»، الفندق الملائم فى أجد مشغول حتى ظهر اليوم التالى، غداً فى الحادية عشرة ستأتى لتصحبنا إلى مقر إقامتنا طوال مدة المؤتمر.

سألت عن المسافة بين المدينتين، قالت حوالى سبعة كيلو مترات، لم تكن بالمسافة الطويلة، قال صاحبى إننا سنرى مدينة أخرى، قلت إن اسمها مصرى قديم، قالت إن ست أصل كلمة شيطان فى اللغة اللاتينية، سألت عما إذا كانت تعرف اللغة المصرية العتيقة، قالت إنهم فى فرنسا يدرسون مبادئها فى المرحلة الثانوية، التفت إلى الخلف، تبادلت المعنى مع صاحبى بالنظر، أذكر تلك اللحيظة بكل محتواها، قلت له وجاوبنى بالصمت: فى مصر لا نعرف شيئاً عن لغة الأجداد، لا يتقنها إلا المتخصصون.

فى الليل يصعب تبين الملامح مهما بلغت درجة الإضاءة، لمحت قناة، المدينة تمتد بحذاء ضفتيها، مراكب صغيرة ترسو، استدعيت خور دُبى، المراكب عتيقة الطراز الراسية، صناديق البضاعة فوق الرصيف، صناديق مختلفة الأحجام، البحارة الهنود بأجسادهم النحيلة، المراكب فى دبى متوسطة الأحجام، خشبية، تدفعها آلات،

المراكب الشبيهة التى تأملتها فى المرسى المطل على شط العرب فى البصرة تمضى مبحرة بقوة الريح، بالأشرعة، تعبر بحر العرب والمحيط الهندى بالوسائل الملاحية نفسها التى عرفها السندباد فى رحلاته السبع، كان نزولى البصرة سنة أربعة وسبعين، عجبت لاستمرار المراكب القديمة، انتظام الخطوط القديمة بين البصرة وعُمان وموانئ الإمارات والبحرين، بلوغها الهند وعودتها بانتظام، لا أستدعى قناة مدينة ست الفرنسية والمراكب الراسية، إلا وتتبعها سفن شط العرب، وخور دُبى، وساحل عُمان، ربما لتشابه القناة مع الخور، وربما لأحجام المراكب، تماثلها، لا أتذكر الموانئ الكبرى التى بلغتها أو وصلت إليها على ظهور العابرات الضخمة متعددة الطوابق. الشىء يستدعى مثيله، فى الملامح، فى الحجم، فى المعنى، فى اللمحة المستكينة، الخفية، لكن هذا الفندق لا يستدعى مثيله، لا فى المدخل، ولا فى المبنى، ولا حتى فى الغرفة، باب مستطيل، قديم، لا يكشف الزجاج شيئاً خلفه، بعد حوالى دقيقتين سمعنا صوتاً بالفرنسية، عجوز، متعب، بعد حوالى ثلاث دقائق دار مفتاح فى الباب، انفرج المصراعان، وفى المواجهة صالة ممتدة، كل ما يقع عليه البصر عتيق، اجتياز العتبة يؤدى إلى زمن مغاير، لا يفصل موضعين، إنما وقتين مغايرين، ورق الحائط بتكويناته الزخرفية، بعض الوحدات بارزة، المصابيح خافتة، تتدلى من سقف مرتفع لم أر زخارفه إلا اليوم التالى، تبدو السيدة العجوز النحيلة جزءاً من المكان المحتفظ بزمن خاص مغاير، بحيث خُيل إلىّ أنها لو عبرت إلى الخارج فلن تدخل مجال الرؤية لأى عابر أو ثابت، لا يمكن النظر إليها إلا عبر هذا الفراغ.

مضينا إلى المكتب المغطى بطبقة من القماش الأخضر، يشبه ما يكسو مناضد البلياردو، قدمت إلينا أوراقاً دوّنا فيها بعض المعلومات المعتادة، لم تطلب جوازات السفر، تثق بمرافقتنا، سلمت كلاً منا مفتاحين، الأول صغير تتدلى منه قطعة نحاسية صغيرة عليها رقم الغرفة، والثانى طويل، غليظ، ذو رأس على هيئة قريبة من القلب، قالت إنه خاص بالباب الرئيسى، لو خرج أى منا لسبب ما أثناء الليل فيجب أن يغلقه، وعند عودته يفتحه بنفسه، لن تسمع لأنها ستدخل إلى فراشها الآن، قالت إن الإفطار من السابعة والنصف حتى التاسعة، تمنت لنا ليلة سعيدة ونوماً جيداً، سألت مرافقتنا عما إذا كنا نحتاج إلى شيء ما، شكرناها، كان الوقت متأخراً، وتوقى إلى النوم يتزايد، لم أقدم على عادة أقوم بها كلما نزلت مدينة بعيدة لأول مرة، أن أرتب حاجاتى فى المكان الذى سأمضى فيه ليلتى الأولى، ثم أخرج لأتعرف على الطرقات المحيطة، أحدد موقع المبنى بعلامة معينة، خاصة إذا اضطررت لدخول طريق جانبى، أتعرف على الواجهات، أبحث عن مقهى أو مكان يقدم المشروبات آوى إليه، فى كل مكان أحل به أنشئ عادات معينة مهما قصر الوقت، أبدأ بترتيب أغراضى فى الغرفة، ملابسى، علب أدويتى التى تحتويها حقيبة صغيرة، أدوات الحلاقة، الكتب التى أحملها، لو تحتوى الغرفة على فراشين، أختار أحدهما، لو الفراش عريض، أنحاز إلى موضع دون الآخر، لا يواتينى النوم إلا إذا قامت بينى وبين المكان صلة، مهما قصرت المدة التى سأمضيها، حتى ولو ليلة واحدة كتلك.

لم أخرج، استغرق سفرنا وقتاً لأنه على مرحلتين، من القاهرة

إلى باريس، تقلع الطائرة الفرنسية فى الصباح الباكر، السابعة صباحاً، انتظارنا طال فى مطار أورلى حوالى خمس ساعات بعد انتقالنا من مطار شارل ديجول، من أقصى شمال المدينة إلى جنوبها، من باريس إلى مونبيليه، تنتظم مدن الجنوب على مسافات متقاربة. البحر نفسه الذى اعتدت الوقوف على شاطئه المقابل، هناك فى أقصى الجنوب الشرقى، شاطئ الإسكندرية ذو الخصوصية، رغم أن البحر لا يبدأ من مكان، إلا أن انطلاق المتوسط، تدفقه بالنسبة لى، يبدأ من الإسكندرية، هكذا أوقن.

لن أخرج إلى الطرقات القريبة ليلا، سأتعرف إليها فى الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ صاحبى، المدينة صغيرة، والسفن راسية أمام الفندق مباشرة، تتوالى على الامتداد.

قبل صعود السلم الخشبى، لمحت لوحة المفاتيح فوق المكتب، باستثناء الخانتين، كل المفاتيح معلقة، مفاتيح الحجرات فقط الأصغر حجماً، ثمانية، هذا المبنى الفسيح لا يضم إلا تلك الغرف، وجود المفاتيح هنا يعنى خلوها.

ودعتنا مرافقتنا بعد أن تركت لدى كل منا أثراً من ابتسامتها الأفقية، الفسيحة، تمنيت لصاحبى ليلة هادئة، صعد إلى الطابق الثانى، فوقى مباشرة، رقم حجرتى اثنان، رقمه ستة، أحرص دائماً على حفظ أرقام الغرف التى يقيم بها من يرافقنى، أو طريقة الاتصال بمكتب الاستقبال، أخشى أزمة مفاجئة، أن يحل بى تعب مفاجئ، قبل سنوات لم يكن هذا فى حسبانى أو من ترتيبى، لم تتضمنه طقوسى.

فتحت الباب، بدا السقف منخفضا عن سقف الطابق، أدرت المفتاح مرتين، فتحت الحقيبة، بدأت أرتب الملابس، وما تبقى من حاجات، الحجرة هادئة، صمت معقم، النافذة مطلة على القناة مباشرة، زجاج ثم ستارة خفيفة، ستارة أكثف سُمكاً، يمكن إنزالها من أعلى بواسطة حبل مزدوج، أزحت الستارة الخفيفة، أضواء متناثرة، واضح من تفاوت مستوياتها أن الناحية الأخرى مرتفع، أرض غير منبسطة، سنرى فى الصباح، القوارب هادئة، يبدو أنها خاصة بالصيد، عندما أنزلت الستارة لأحجب هسيس الضوء المتسرب إلى الفراغ المؤطر، صرت إلى الغرفة وصارت إلىّ، حيز محدد مغطى بورق حائط، أو قماش عتيق، تغلب عليه الزخارف النباتية واللون السماوى.

«إذا كانت المفاتيح كلها فى اللوحة، فلماذا لم ينزل صاحبى فى الغرفة المجاورة، أو أخرى فى الطابق نفسه؟!».

مجرد تساؤل عابر. لم أتبعه بآخر، لم تتوال الهواجس، لم أفكر فى المبنى الضخم وعدد الحجرات القليل، أو الفراغ الذى يكمن خلف هذا السقف المنخفض، لم أشعر بمثل هذه الإحاطة فى أى غرفة أقمت بها إقامة عابرة، تدثرت باللون الأزرق الذى يحتوينى، بغصون النبات المجردة، بالأوراق الموزعة، تساءلت عن العيون المتعاقبة التى تطلعت من موضعى هذا نفسه، أسئلة عديدة تتوالى لكنها لا تمكث، مثل: من الذين تمددوا فوق الفراش عينه، من سيجئ بعدى؟، لو أننى فى غرفة أخرى لشغلنى أحد هذه التساؤلات وما يتفرع عنها، جففت ما تبقى من رذاذ الماء الدافئ، عدت إلى

الغرفة، مألوفة، قريبة، كأننى مقيم منذ سنوات عديدة، كأننى آوى إلى هذه الدرجة من اللون منذ ليال يصعب حصرها وليس أول مرة، يهدهدنى اللون، تغزر الألفة، ألفة من نوع خاص، تنبع من تلك الجدران وتنتهى عندها، لم تواتنى الهواجس المألوفة، تلك العتيقة، أو الطارئة بعد بدء علتى وخشيتى من موت الفجأة فى الغربة، تمحنى الجدران المتقاربة والفراغ المحدود الذى أتحرك فيه بحذر يقيناً بدرجة من البعد لم أعرفها من قبل، كأنى بلغت أقصى المعمورة، مكان لم يطأه نفر قبلى، درجة من الصمت المستقر، الثابت، لا تنفذ عبره هسة، هذا ما لم أعرفه فى أى مكان حللت فيه من قبل، ولم أعرفه من بعد، أجهل موقع البناية، وعندما أرغب استعادة درجة اللون وزخارف الغرفة، أغلق الفتحات كافة فى الموضع الذى يحتوينى، أقصى كافة الأصوات، أغمض عينى، عندئذ تمثل عندى الزخارف ويتدفق اللون السماوى هادئاً، مهدئاً . .

كتب

أتطلع إلى الكتب فوق الأرفف، لا أبحث عن عنوان معين، اعتدت ذلك، مرة أو مرتين كل أسبوع، أتوقف أمام ركن معين، أستعرض الكتب، ربما مستهدفاً استعادتها، أحياناً أفاجأ بوجود مؤلف نسيت اقتنائى له، ليس لدىّ فهرس مكتوب، طوال سنواتى أعتمد على الذاكرة والتقسيم العام، فهذا للشعر، وذاك للتصوف،

التاريخ، الروايات، الأعمال الحميمة، مع التقدم فى العمر تهن الذاكرة، تثقل، تتمدد مناطق العتمة، هذه الطلة، الوقفة تساعدنى فى التذكر، خاصة أننى لم أقرأ ما اقتنيته كافة، إنما أحتفظ به للحظة أحتاج إليه، ربما يتجاوز ما قرأته بالاستعارة من الأصدقاء والمكتبات العامة ما أمتلكه، خاصة فى السنوات الأولى من السعى، عندما كانت الإمكانيات محدودة، والقدرة لا تطول كل ما أرغبه، كل كتاب يحمل توقيعى ثلاث مرات، يوم دخوله فى حوزتى، يوم بدء قراءتى، يوم الانتهاء منه، إذا طالعته مرتين، تبلغ التوقيعات خمساً، آنس بالكتب عند النظر إليها، عند تصفحها، مطالعتها، ربما ألفة تفوق ما ألقاه من البشر، تلك المجلدات ناطقة بصمتها، قوية الحضور بغياب من وضعها أو طبعها أو ضم الأوراق إلى بعضها، والغائب لا تحده خطوط أو حواف كالماثل أمامنا، المتعامل مع حواسنا، ثمة أنس غامض يدركنى وأدركه، تواصل غامض مع أولئك المنتمين إلى عصور بعيدة، أزمنة لم أوجد فيها، لكن أنفاسهم تتردد عبر تلك السطور، بل إننى أحياناً أقرأ سطورا يتحدث من خلالها الكاتب عن نفسه، أو إحساس ما يمر به، فأكاد أرى هيئته، وجلسته، ونوعية النظرة فى عينيه، أكاد أستعيده من العدم، أحياناً تمتد الأواصر وتتصل بينى وبين مخطوط أو مطبوع، تترسخ الألفة، أثناء مطالعتى أضعه فوق صوان صغير محاذ لموضع رأسى فوق الوسادة، قبل أن أغمض عينى أتطلع إليه، يؤنسنى القرب، كأننى أرقد إلى جوار إلف.

ما بين أنشاص ومرسى مطروح حوالى ستمائة كيلو متر، أربعمائة على الطرق الزراعية، ومائتان تقريباً فى أراضٍ صحراوية، خرجنا من قاعدة تدريب وحدات الصاعقة، أول خروجٍ لى بصحبة العقيد أركان حرب إبراهيم الرفاعى، قال إن اشتراكى معهم فى الطابور مقدمة لمصاحبتهم فى العمليات القتالية، قال إنهم يمشون مسافات طويلة هنا حتى لا يقطعوا مسافات أطول وراء الخطوط، سألنى عما إذا كنت قطعت مسافة كهذه من قبل؟ ، أطرقت متفحصاً، استعدت رحلتى إلى الأقصر وأسوان مع فريق الكشافة، لكننا لم نقطع مسافة متصلة لأكثر من عشرة كيلو مترات. قلت: لا . .

اجتزنا طنطا، عبرنا كوبرى كفر الزيات، سمحوا لى بارتداء الحلة المموهة وزودونى بالشدة، حقيبة فوق ظهرى تحوى كافة ما أحتاجه عدا المياه، الخاصة بالشرب تستقر فى الزمزمية المغطاة بقماش أصفر. أما نصيب كل فرد من مياه الغسيل فيوزع عليه قبل أول ضوء.

أستنفر الهمة، يدركنى تعب فأخجل من إظهاره أمامهم، التواجد فى جمع يساعد على التحمل، فما البال إذا كان أفراده ليسوا عاديين، أحيانا أخف، أكاد أتوثب عندما أعى أننى واحد من هؤلاء، أولانى رعاية إذ استفسر عنى مرتين، قال لنائبه المقدم عالى: أصله ملكى مدنى . .

قبل بلوغنا الإسكندرية يصدر الأمر بالتوقف، طرأت أوضاع تقتضى العودة إلى أنشاص، الرجوع بعربات النقل والجيب، غير أن

ذلك تكرر فى طابورين تاليين للمشى، فيما بعد وقبل أكتوبر، أسأل إبراهيم الرفاعى مستفسراً، يتطلع إلىّ، إنه قليل اللفظ، لذلك اعتبرت ما قاله لى يرقى إلى البوح غير المتوقع.

قال إنه إذا أعلن أن الطابور من أنشاص إلى الإسكندرية سوف يستنفر كل إنسان طاقة توازى المعلن عنه، لكن عند الإخبار بمسافة أطول ستكون الطاقة مضاعفة، ليس الوصول إلى إسكندرية إلا مرحلة من مراحل لم تنته بعد.

قال إن تجربته، خاصة فى الصحراء تؤكد ما أخبر به المعلمون الأوائل، إن داخل الإنسان طاقة لا حدود لها، فقط إذا عزم، ورغب..

نقش

لم أدر أنها المرة الأخيرة.

أقف أمام قبة المنصور قلاوون، ألمحه قادماً من ناحية النحاسين متجها إلى الخرنفش، إلى شارع أمير الجيوش حيث يقيم، يقوده شاب، ربما ابنه، ربما حفيد له أو يمت إليه بصلة، يرتدى جلبابه الأصفر، المائل إلى البنى الفاتح، شعره يخالطه شيب، ليس أبيض تماماً، خطواته قصيرة، واهنة، يمضى منحنياً، كما يجلس منحنياً،

لم أره إلا منحنياً، تلك المرة الأولى والأخيرة التى أراه فى الطريق، لم أعرفه إلا جالساً أمام الحجرة الصغيرة بربع السلحدار، إلى جوار مقر الجمعية الذى عملت فيه لمدة عامين، المقعد بدون مسند، منضدة فوقها قرص البياضة، أى الزفت الأسود الذى تثبت إليه القطعة المراد نقشها، صينية مستديرة أو مستطيلة أيا كان حجمها، علبة فضة أو من الذهب، القار الأسود القاتم يتم تسييحه بالنار وعندما يلين تثبت إليه قطعة النحاس أو الفضة، يصير كل منهما جزءاً من الآخر، عندئذ يبدأ النقش، القار يسميه الناس «زفت»، يرصف به الطرق، لكن فى الخان لا يطلقون عليه ذلك الاسم، يقولون «البياضة» تفاؤلاً، إذ أنه يرتبط بالشغل مصدر الرزق، تماما كما لا ينطق الناس اسم المرض الخبيث صراحة، يقولون «المرض الوحش» وإذا تجاوز بعضهم ينطقه بالانجليزية، وكأن تعريفه فى لغة أخرى يتضمن تحاشياً له، قال مرة إنه يراه أبيض، لا يراه أسود أبداً لكثرة ما اعتبره أبيض!

دائما أجيء بعد عم مصطفى وأذهب قبله، لذلك لم أره إلا جالساً ينقش، يتكلم وهو منحن، يد تمسك بالمطرقة الصغيرة والأخرى بالأجنة حادة الطرف التى تحفر تلك الخطوط الدائرية، المستقيمة، فى السطح الخالى، عيناه متجهتان إلى القطعة، وإذا رفعهما فإنه لا يكف عن النقش، ظننت أن موعد مجيئه وذهابه مرتبط الضوء، لكن خلال السنوات الأخيرة لم يختلف الأمر رغم إعتام الدنيا أمامه لضمور العصب مع التقدم فى العمر، وهذا من الأمور التى لا ينفع معها الطب، الحمد لله على كل شيء، الأولاد تعلموا وتخرجوا من الجامعات والبنت اتسترت أحسن ما تكون السترة، عم مصطفى قليل

اللفظ، ضامر الحضور، ما تبادلته من كلمات يمكن عده، كنت أحب رؤيته أثناء العمل، بقاؤه منحنياً لساعات طوال، يتدفق النقش من بين أصابعه، تصميماته معروفة فى السوق وللهواة، لمن لا يعرف يبدو الشغل كله متشابها. للمدقق، الملم، يبدو الفرق واضحاً بين الشغل الدقيق والبزارى أى السوقى، وللمطلع، العارف، يمكنه معرفة شغل عم مصطفى من شغل الزينى من شغل منيرجى الكبير، أربعة هم المعلمون الباقون فى النقش، لكل منهم أسلوبه ونفسه، أقدمهم على الإطلاق عم مصطفى، ولولا رقته وخفوت حاله لقال إنهم تلاميذه، لكنه لا يصرح بذلك، غير أن المؤكد، مجيئه إلى ربع السلحدار طفلاً صغيراً، لم أستفسر منه عما إذا كان والده نقاشاً أم أنه جاء به للتعلم كما يفعل كثيرون من أبناء الناحية، يسلمون أبناءهم للمعلمين أصحاب الحرف، فقط لإتقان الصنعة بدون مقابل، ثم يتدرج كل منهم مع الوقت، مصطفى ممن أفلحوا لكنه لم يغير مجاله، بعض من بدأوا معه أصبحوا تجاراً كباراً فى الخان، لم يعرف إلا النقش، يذكر بالخير المعلم صنيبر الكبير، لقنه الأصول، أرشده إلى المنابع، لا يوجد مسجد فى القاهرة إلا وقصده، استلقى على ظهره ساعات ليستوعب نقوش الأسقف والجدران والمنابر، تطلع طويلاً إلى الأبواب، المداخل، أصبح مخه عامراً مع الزمن، كافة الأشكال والطرز فيه، لم يعرف التصميم المسبق المرسوم على ورق خفيف مثل المحدثين أو طلبة المعاهد الفنية، المهم نقطة البداية، قد يبدأ من منتصف القطعة وربما من أحد أركانها، انطلاقته سر، لم يطلع عليه أقرب الخلق، ولا حتى تلاميذه الذين يملأون السوق الآن ويستمرون

بالنقش، لقنهم ضرورة أن يكون لكل منهم منطق، نقطة بداية، قد تكون دائرة، مثلثا، مربعا، بعدها يبدأ التخليق، تتدفق منه الأشكال متوازنة، متداخلة، ضبطها عبر سطح دائرى ليس بالهين على من لا يعرف، أو فى المستطيل، لابد من نسق، ولأنه لا يعمل وفق تصميم مسبق فكل قطعة تخرج من بين يديه لا تشبه الأخرى، لا تتكرر، يمكن لأى إنسان أن يرقبه لساعات أثناء انحنائه غير مبال بما يدور حوله لكن لم يره إنسان لحظة البداية، قال لى عم إبراهيم الذّى استأجر منه الحجرة فى أعوامه الأخيرة إنها تُعد عنده كخلوة الرجل بالست بتاعته لأول مرة، الانفراد الأتم، كلماته قليلة محدودة، وددت دائماً أن أسمع منه لفظ «تخليق»، لم أطلبه مباشرة، لكننى ألف وأدور بالحوار حتى ينطقه وكنت أراه دالاً، مومئًا إلى مكنونه.

عندما زرته مع جانكا البلغارية، وقفت ترقبه مبهورة قررت شراء قطعة من نقشه، صينية من نحاس، لكنها طلبت منه أن يوقع على ظهرها باسمه، بدا مسروراً، قال لى إنها سيدة تفهم، وإن هذه هى المرة الثانية التى يُطلب منه التوقيع، رفع إلىّ عينيه، قال إن الأولى منذ خمسين عاماً، عندما كان الشغل كله ذهبا أو فضة، النحاس لم ينتشرإلا بعد أن صعب الحال على كثيرين وافتقر السوق، من طلب منه التوقيع إنسان أمير يشبهنى، رددت: يشبهنى أنا يا عم مصطفى؟، هز رأسه مؤكداً، انتبهت إلى أننى لم أطلب منه التوقيع رغم أننى اقتنيت عدة قطع منه، حتى أدارى خجلى سألته عما إذا كان النقش على الفضة يختلف عن النحاس، استمر فى طرق السطح الأصفر مولداً الأشكال، هكذا استمر بعد أن ذهب بصره تماماً، لم يكن فى

حاجة إلى بصيص ضوء يرى به الخطوط، تتدفق من بين يديه، من داخله، تضبط نفسها بنفسها، يقول لى النقش هو النقش، لا فرق عنده بين فضة ونحاس، لو أنه ينقش على فراغ لالتزم الدقة والعناية نفسهما، نقشه على الذهب زمان، هو نقشه عينه على النحاس الآن، يقول بثقة مؤكداً:

«النقش منى وإلىّ. . ».

حمد

الحمد لله على كل شيء وكل حال وكل وضع صرت إليه، الشكر له والمنة فما تزال الأنفاس تتردد، والسعى متصلا. والحواس قادرة على التمييز بين الظلمة والنور. بين الخبيث والرديء، قادرة على قراءة السطور والنفاذ إلى أسرار الكلمات. والإصغاء إلى الليل وما وسق والنهار بما حفل، إلى أصوات الكون من ترديد وتطريب وسجع حمام وهديل يمام ونهيق حمار وصهيل فرس وصوت طائر مهاجر، عابر وآخر مقيم وهدير رعد ونزول غيث. وتدفق مياه فى جدول، وهسهسة زهرة عند تفتحها فجراً، وأصداء غامضة شغلنى تفسيرها، قادمة من أعماق الكون الفسيح الذى لن نعرف أوله ولن نحاط بآخره، كذا صفير تلك الرياح التى يحيرنى مصدرها من أين بدأ

سعيها وإلى أين ينتهى. أحمده كثيرا على بقاء ظلال من صوت الشيخ محمد رفعت خاصة عند تلاوته «والضحى. والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وماقلى» فى تلك التلاوة يكمن الصميم كله والمعنى الدقيق الذى لا يمكن الإحاطة به. الحمد واجب لاستيعابى ضجيج القوم الصادر عن قرب أو بعد.

المنة والشكر لقدرتى على التمييز بين الظل والأصل باقية. وإمكانية رصد الفوارق بين الألوان قائمة. هذا أبيض وذاك أسود، وما بينهما رمادى، كل الألوان تحتاج إلى الأبيض ولايحتاج إليها. كل الألوان قادمة من الأسود وهو غير منبعث منها، لا حدود لتنوع درجاتها وتسلسلها سلبًا وإيجابًا. أى رضا عندى لقدرتى على رؤية الأصفر والأحمر والأزرق وما ينتج عن تمازجها وإدراك الفوارق بين لحظات الشفق واكتمالات الغسق والليل وما وسق.

الشكر لنعمائه فى استمرار القدرة على التمييز بين الخبيث والطيب، الجيد من الحسن، الأجمل والأنقى رغم تواريه أحيانا فى الظل وانطوائه فى العتمة، الرغبة فى الاستيعاب أقوى، وفى الإدراك أمتن. صحيح أن الوهن مدركى والأمر إلى ميل، لكن يكفينى سريان المودة منى إلى الخلق كافة وصحة قدرتى على الهفهفة عند دنوى عن السر، تدثرى بظلال النخيل وتطلعى إلى الشواشى العلا إدراكى للمنحنيات المؤدية والنواصى المفرقة والمداخل الموحية، المهيئة لما يليها، غموض الممرات وتساؤلات الجسور. لأن تطلعى إلى الأفق الفسيح كما هو، يحدونى الشوق عينه إلى ما لا أعرف. كذلك محاولاتى فهم حركة الموج. وسر زرقة البحر ومحاولة فهم أصواته،

جهادى الموصول لفهم العلاقة بين العلو والسفل. بين الأول والآخر، بين المكان والزمان. الحمد لله كثيرا على الغدو والرواح. على تذوق سر التين والزيتون وطور سنين وذلك البلد الأمين..

فول

ما قبل وما بعد، الأمر يبدو متشابهًا، وإن كان فى جوهره غير ذلك.

قبل إجراء العملية الجراحية سعيت إلى الأماكن الحميمة والوجوه الباقية معى من الأزمنة المولية كذلك الأطعمة، غير أن ما حدّ من اندفاعى التزامى بنظام صارم لإنقاص وزنى، تبدل الأمر بعد العملية، خاصة عندما أخطرنى الطبيب المعالج أنه باستطاعتى أن آكل ما أشاء لمدة أربعين يومًا، لاقيود من أى نوع، لكنى بعد انتهاء المدة لابد أن ألزم.

أول ما اشتقت إليه الفول المدمس، لكن.. أين سأجده فى تلك الأصقاع البعيدة؟ نحن لسنا فى الولايات المتحدة فقط، إنما فى مدينة نائية تنتظم كلها حول المستشفى غير أن الجماعة يبدو أنهم درسوا ما يتعلق بالمرضى القادمين من الشرق، خاصة مصر التى يعمل عدد من أبنائها أطباء ناجحين هنا. فى الفندق مطعم يقدم إفطاراً، طبق الفول موجود، صحيح أن ثمنه سبعة دولارات لكنه متاح والإقبال عليه متوفر.

تلك ليست حبات إنما زمن قديم، بل أزمنة متداخلة، متعاقبة تمت إليّ، حبات الفول موجودة فى الأطعمة التى عثروا عليها فى مقبرة توت عنخ آمون، معروضة بالمتحف المصرى. تمر الحبة بمراحل عديدة لا أدرى كم قرنًا استغرقها الإنسان ليزرع الحبة وليحصدها ثم يجففها ثم يكمرها فى حفر تحت الأرض، معزولة تماما عن أى هواء أو ضوء، ثم تسويته على نار هادئة، جد هادئة، حتى تلين الحبات وتصبح بملمس الزبد، يعمل أقاربى فى تجارته، يعرفون أنواعه ومصادرها، أما مراكز إعداده فتتصل بالمدن الكبرى، كل حمّام عام بجواره مستوقد، أى فرنا هادئا وقوده من بقايا القمامة، تمر به أنابيب الفخار التى يتدفق عبرها الماء إلى مغطس الحمام، فى الوقود الملتهب على مهل توضع قدور الفخار . ثم أصبحت تصنع من نحاس ثم من ألمونيوم، طبعا المذاق يتأثر، لكن من يرصد؟ على النيران المتمهلة، الخافتة، المستمرة تنضج الحبات نضجًا هادئًا متأملاً، أفضل الفول بالزيت، أى زيت، هرس الحبات مستحب عندى، ربما لأن الأقدم عندى كان كذلك، فول أبو حجر الذى انقطع أمره فجأة فى بداية الستينيات، وظل والدى يتحسر عليه، بعد مايقرب من نصف قرن لزم خلاله المكان عينه عند مدخل أم الغلام، قصده القوم ذات صباح فلم يجدوا أثرًا له لاهو ولا العربة، كأنه لم يكن، تهامس البعض أنهم اعتقلوه لأسباب سياسية، وقال آخرون إن أحد الكبار غضب عليه فدبر له أمرًا. وقال الأسطى سيد الحلاق إنه سافر إلى بلدته شرق النهر فى أسيوط ليلقى ربه بعد أن أنبأه الهاتف الخفى بدنو الأجل، الاحتمال الأخير كان الأقرب لدى الوالد. كان حزينًا عليه، يذكره بالخير ويترحم عليه.

لا يكتمل المذاق إلا بالعيش البلدى الطرى أو الملدن. هذا مالم أجده فى مطعم المستشفى، للخبز البلدى مع الفول تناغم، فكأنهما صنوان، أفضل تناوله باللقمة وليس بشوكة أو سكينة ومن المكملات المستحبة البصل المخلل، والليمون والباذنجان الأصيل المغمس بالثوم والكسبرة وإذا ذكرت المخلل فلا يرد علىّ إلا البولاقى وشعره الأسود الغزير. رغم أهمية المخلل إلا أنه ملحق، استثنائى، لا يُقصد لذاته، إنه مساند، مساعد، كذلك الطحينة التى أضافها أهل اسكندرية.

رغم صلتى بالفول إلا أن نفاراً وقع بيننا، عندما فرضوه علينا فى المعتقل، ثلاث وجبات منه، لكن أى فول؟ لا أدرى المصدر الذى تحصل منه مصلحة السجون على هذه الحبات الكبيرة الغليظة المليئة بالسوس، سميكة القشرة، لابد من تعريتها، نهرسها بصعوبة، مهما تعددت المكملات تستعصى على الطحن والمضغ. بعد خروجى انقطعت عن الإفطار به زمنًا قصيراً ثم عدت راغبا، غير أن الأفضلية عندى انتقلت إلى العشاء صار وجبتى الليلية المفضلة، صار الركن الأهم عندى، ليس لذاته فقط إنما لكل ما يرتبط به، لذلك عند لواح ما يهدد وجودى أنزع إليه وأركن..

قائمــة

أنزل أبيدوس فتحتوينى طمأنينة ورهبة نائية، تحف بى ولا تثقلنى

فندق صغير من شرفته يمكنني رؤية المعبد الأعظم، لا يمكن الإلمام به عند الوقوف أمامه أو حتى التطلع إليه من علٍ، أتدرج فى صعودى إليه، أرتقى.

هنا أتوحد بذاتى، حتى صحبى من أهل الناحية يتفهمون، لايزعجنى أحدهم بحوار، يكتفون بالتحايا الموجزة. البلدة تقف عند الحد، تمامًا مثل القرية التى جئت فيها إلى الدنيا، تقع إلى الشمال على مسافة حوالى ستين كيلو مترًا، كلا الموضعين يتجه إلى الغرب، أستيقظ مبكرًا قبل الشروق، أتمهل أجوس خلال المقاصير التسع المقدسة، غير أن ما أتوقف أمامه كل مرة ذلك الجدار.

ممر قصير إلى الشرق. ينعطف مؤديا إلى الغرب، حيث النزول إلى البركة التى مازال الماء يسرى إليها، الأوزيريون أقدس مواضع مصر القديمة ولهذا حديث يطول. الجدار إلى الغرب. سيتى الأول يقف ممسكًا بالمبخرة. أمامه ابنه الذى سيصبح رمسيس الثانى، من سيضيف إلى البناء الذى بدأه الأب، يشير إلى صفوف من الخراطيش الملكية، ستة وسبعون من الشن (الإطار) كل منها الرن (أى الاسم) ستة وسبعون ملكا، أولهم مينا، من نعرف أنه موحد القطرين، من قوائم أخرى فى الكرنك وبعض لفائف البردى نعرف أنه أقصى عددًا ممن ارتبطوا بمراحل اضطراب عظمى، حتشبسوت مغتصبة الحكم، إخناتون أول من وضع الشرخ فى العقائد الرواسخ سمنخ رع، توت عنخ آمون. أى والأخير كاهن، قاتل، مغتصب، لكل منهم ما يفيض ويحيد بالقصد.

ستة وسبعون اسما، كل ما تبقى من عصور حوت ما حوت، لو أن كلاً منهم بقى عدة سنوات، فلن تقل المدة فى المتوسط عن ألف وخمسمائة عام، أى ثلثى ما يفصلنا الآن عن ميلاد السيد المسيح الذى نعتمده أساسا للتقويم وبداية، حقب تتوالى مع تتابع تلك الخطوط، تختلف أوضاعها داخل الأطر، الأطر المقصود بها حماية الأسماء، أى حماية أصحابها الملوك، أنصاف الآلهة، خطوط مضى عليها حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة عام. سفر طويل عبر الزمن. لكن . . إلى متى؟

رنيــن

العمارة مطلة على ميدان باب اللوق، ناصية شارع الفلكى. لم يخطر ببالى يومًا أننى سأصعد إليها، ترتبط عندى بدكان لرفو السجاد القديم النادر. يجلس داخله رجل طاعن فى السن لا يكاد يرى، إلا أن يده تتحرك بالإبرة والخيط بسرعة ومهارة، الثالثة والنصف عصراً أصعد السلم، يتقدمنى صاحب تعرفت إليه فى المقهى، أعرف أنه يعمل فى وزارة المالية، لكننى لم أحط علما بطبيعة عمله إلا ذلك اليوم، إدارة مختصة بوراثة من لا عقب لهم، حصر ممتلكاتهم وتسجيلها والتصرف فيها بعد زمن مقدر يتم خلاله القطع بعدم وجود طرف يستحق ما يخلفه هؤلاء الراحلون.

يرافق صاحبى رجلان، توقفنا أمام باب مغلق فى الطابق الأخير، أحدهما تقدم، فتح الباب، عندما اجتزته سرت إلىّ رائحة إنسان كان هنا، رائحة خاصة مزيج من عبق الكائن وأريج المكان، غير أنه نَشْر آسن راكد، معلق إلى حين، أعرف أنه سرعان ما سيولى كلما طال غياب الكائن، لكننى أتطلع إلى السنوات التى تعاقب فيها ومثل.

أثاث قديم، أنيق، مختار بعناية، فى المدخل مرآة داخل إطار خشبى مزخرف بورود صريحة الألوان، أصفر، أحمر، أخضر، زهور صغيرة، سلافية التكوين، رأيت مثلها على نسيج قوقازى وأوان خشبية صنعت على ضفتى الفولجا، إلى يمين ويسار المرآة رفان صغيرًان، فوق كل منهما آنية خزفية إغريقية التكوين، مرسوم عليها قيثارتان، فوق الأرض سجادة صغيرة، ألوانها طبيعية غير مصبوغة أبيض بنى غامق بنى فاتح أسود.

صالة مستطيلة، متوسطة المساحة، أريكة مستطيلة، مقعد وثير، لهما اللون الأزرق الفاتح، زرقة باهتة ربما للقدم، العتاقة تنبعث من سائر الأشياء، الأثاث، المفروشات، فوق المقعد، جلباب نسائى، فوق الأرض فردة جورب من الصوف، مطوية، غير مفرودة. إلى اليمين منضدة فوقها مذياع مستطيل أعلاه مقوس، واجهته تنقسم إلى نصفين، الأسفل لوحة الأرقام، عليها الترددات وأسماء المحطات بالإنجليزية وراءها المؤشر، تبرز منها المفاتيح، ثلاثة وثلاثة مابينهما فاصل صغير، العلوى مغطى بنسيج أصفر يمنح تأثير القش، السماعة المستديرة تبدو كظل.

تبعت صاحبى الذى راح يوجه الآخرين إلى تدوين الموجودات، الكبير منها أولا، ثم المتوسط يتبعه الصغير، قطع الأثاث، الأجهزة الكهربائية، كان يتبادل معهما الحوارات السريعة، يبدى الملاحظات، بعد دقائق عددت نطقه أقل، تبادلنا النظر، صرنا إلى صمت مع إدراكنا المزيد من التفاصيل، خاصة أن الرائحة تترسخ مع مضى المدة، كأن بثها مستمر، متصل، لم تنقطع صلتها بمصدرها بعد، مع تزايدها عمق الفراغ، كأنه لم يعد يقبل إلاها، لا يسمح بانتقال الصوت من شخص إلى آخر، انهمك صاحبى وزميلاه فى التدوين، تدقيق ما يجدونه، توصيفه، المهم الآن تسجيله. أما التقييم فيأتى دوره فيما يلى ذلك غرفة، واحدة فقط يفضى إليها ممر صغير تطل عليه بوابة الحمام ودورة المياه معًا فوق الرف الزجاجى أنابيب لمعاجين وزجاجات صغيرة. كوب تطل منه فرش أسنان، ربما ثلاث، أربع. السرير عريض وثير، عتيق أيضًا، ثقيل مصمت الخشب، خشب داخله خشب، الغطاء مزاح، غير مرتب، الوسادة منبعجة، الصور الوحيدة فى متناول الراقد، ثلاث، لكل منها إطار فضى. ضابط يرتدى قبعة لم أعهد مثلها، يتطلع بثبات وصرامة، ياقة عالية تحيط بعنقه، طفلة أجنبية الملامح، تنظر عبر التفاتة إلى المتطلع، عيناها واسعتان، شفتاها منفرجتان قليلاً، مشروع ابتسامة ما، الثالثة لطفلة أخرى، كلاهما دون العاشرة، لكن تلك مختلفة، أنحف، صيغ شعرها فى ضفيرة غليظة، وضعها جانبى.

أيهما؟

لا أدرى

ربما تلك أو هذه، لا أعرف، لا رغبة فى نطق الاستفسار، تبرز ملابس من أحد أقسام الصوان، ضلفة مواربة، يبدو أنها كانت بدينة، الثياب فضفاضة، تمثل عندى إما راقدة مغمضة العينين فوق السرير، بملامحها ألم دفين، أو يميل رأسها فوق صدرها، لم تسقط إلى الأمام، قاعدة فوق الأريكة بالصالة، أما ملامحها فمتداخلة بين وجه رأيته منذ سنوات فى بيت قديم بالظاهر لسيدة مولودة فى الإسكندرية، وأخرى يونانية الأصل كانت تدير مطعمًا قرب سينما ميامى لم يعد قائمًا الآن، لأننى لم أعرف اسمها ولم أعن بالسؤال عنه، لم أستطع منحها ملامح محددة، كل ما قال صاحبى إنها أرمنية، تقيم بمفردها منذ عقود. لحسن حظها أنها استغاثت بالبواب تمكنت من استدعائه، انتهت على مرأى منه، حاول إسعافها، لم يتمكن من فعل شىء محدد، لولا ذلك لما عرف أحد برحيلها إلا بعد فواح رائحتها.

تثقل حتى لأكاد أراها فى الفراغ، لم أعرف مثل ذلك، أن تجسد رائحة ملامح من انبعثت عنه إلى هذا الحد، مع استمرار نفاذها يعمق الصمت.

رنة

رنتان

ساعة من خزف على هيئة عش طائر معلقة فى مواجهة السرير، منتصف الغرفة تمامًا، يخرج من طاقة دائرية بلبل صغير، منمنم، يطلق صوصوة تتصل ثوانى معدودات، ينسحب فتغلق الطاقة. أصداء الرنات والصوصوة فى الصمت الذى ترسخ حتى حال بيننا

وبين النطق، يتطلع صاحبى ناحيتى متسائلاً. أجيبه بالنظر مردداً: هل أصغيت إلى الرنين حقًا؟

سفر

استفسرت عنهما. تقول زوجتى:

«خرج محمد بصحبة ماجدة لتشم الهواء، إنها تعمل منذ الأمس، لإعداد بحثها..»

أصمت، أراهما فى مكان ما. يجلسان إلى منضدة، يمشيان فى حديقة النادى، أتساءل: العام القادم. أين سيكون كل منهما؟ أين سيكون كل منا؟ بالنسبة لى يسرع الإيقاع، تولى الأيام، أقف عند مقدمة شيء غير مرئى. لا يمكننى تحديده، قارب، وسيلة نقل مجهولة، أتطلع إلى مرسى لا يزال مستترا بالخفاء.

خلال الأسابيع الأخيرة، بل الشهور الأخيرة، تتجوهر المودات بيننا، لم يقع أى احتداد مع ابنى أو ابنتى. لانتحدث كثيراً. لكننا نقول الكثير بالنظر، نتحاور بالصمت. أشفق على كل منهما من وحشة قد تدركهما، عندما يصير أمرهما إلى انفراد! يستعد ابنى للسفر إلى ذلك البلد البعيد ليستقر به عدة سنوات، ستصبح أخته صوتا عبر الهاتف، تسعى إلى طمأنته فى كل الأحوال، نحن بصحبتها الآن، لكن ماذا بعدنا؟ لماذا لم ننجب ثالثًا كان سيصبح

ونسة لها وله، ذكرا أو أنثى؟ رحت أفكر فى ذلك الشقيق المجهول الذى لم يأت، كان الأهل أجرأ منا. لو دققوا حساباتهم لما تم سعينا، يطيل ابنى التحديق الساكن إلىّ. أستعيد ترقرقه بعد انصرافه، أخشى من لحظة ضيق قد تحل بها، ذلك التساكن بيننا، ذلك الصمت الناطق يشبه تلك اللحيظات الدقاق التى تسبق الشروع فى سفر..

قــوام

شرفة، طويلة، عريضة إلى حد ما، تنتظم المناضد والمقاعد مازال الهواء حانيًا، رهيفًا فى مارس، قعدت متعبا، متطلعا إلى الفراغ الممتد، الفندق الذى أقيم فيه بمواجهتى، على الناحية الأخرى من الطريق السريع، يبدو فى المتناول لكن الوصول إليه من هنا يقتضى سلوك طرق وعبور جسر علوى، لا يتقنها إلا من يعيش هنا منذ سنوات ويمارس القيادة أو سائقو عربات الأجرة، معظمهم هنا هنود أو باكستانيون أتحدث إليهم بالإنجليزية، جنسيات شتى.

النادل لبنانى. يمكننى الآن تمييز لهجة السورى والفلسطينى، ثمة طريقة للنطق لايدركها إلا من عرف القوم، ولكثرة الترحال صرت مطلعًا، أعود للنظر إلى الفندق الضخم، واجهة سوداء زجاجية، متشابهة، لا يمكن تحديد موقع غرفتى من الخارج.

«فيه تنباك؟»

«عجمى . . نعم . . »

«واحد شاى بدون سكر وشيشة عجمى . . »

منذ ثمانية أعوام توقفت عن التدخين . قرار من الطبيب ، ملتزم به ، غير أننى فى أسفارى إذا أتيحت النرجيلة أطلبها ، ألامس المبسم بشفتىّ ولا أسحب الدخان ، أستعيد رائحة التنباك ، عنصر من الذاكرة . خاصة عندما أنفرد . معظم المقاهى تقدم الآن المعسل ، ليس فى القاهرة فقط . إنما هنا أيضا فى دبى . قال لى نادل إيرانى فى مقهى آخر : إن المعمرين ، العجائز هم الذين يطلبون التنباك . الشباب من الجنسين يدخن المعسل ، يقبلون عليه بشراهة .

ياه . . كيف لم ألحظهما؟

هل جاءا بعد جلوسى؟ هل مرّا من أمامى أثناء إغماض عينى؟ أما لو أننى قدمت أثناء استقرارهما حول المنضدة فلابد أن أقلب حالى . كيف لم أرهما؟ إنهما أمامى مباشرة . تفصلهما عنى منضدتان . بالتأكيد جاءا قبلى . الشاب الذى يولينى ظهره العريض المتين يطعمها . يمد يده بملعقة ، تلامسها بنعومة بينما عيناها تتطلعان إليه ، محدقتين متسعتين . تفيضان بالرغبة المحرضة ، كأنها تقبل الملعقة امتداداً لأصابعه ، على مهل ترشف أو تبتلع ما تحويه ، تلوح أكثر نزوعًا وتوثبًا صوبه ، إليه ، حضورها كافة شاخص نحوه ، يبدو ملومًا ، متحسراً ، متقوقعًا ، غير أن دفقا يبدو منه ، يمد يده ، يتحسس ذراعها العارى ، من أعلى إلى أسفل فتميل صوبه أكثر لكنه يكف .

يمكننى التطلع إلى الفندق، رفْع رأسى صوب المبنى، وابقاؤهما فى مجال رؤيتى، أنتبه إلى فراهة قوامها، تواجهنى بجانبها الأيسر، أما هو فلا أرى إلا ظهره وانحناءه. .

ترتدى كنزة رمادية بدون كمين، حافتها تنتهى عند بداية انحدار ذراعها المرتوى، تميل فتنحسر إلى أعلى، تتسع الفجوة ما بين نهاية البنطال وحدود البلوزة أو القميص، يضوى المتاح من جسدها الأبيض المائل إلى شقرة، تتحرك صوب صاحبها فتسفر عن سروالها الداخلى الموجز.

أى عرض هذا؟

يجىء النادل. بعناية يضع النرجيلة أنثوية المنظر إلى يمينى والشاى وزجاجة المياه المعدنية، أتأمل رأس النرجيلة، التنباك المقصوص الملفوف، المدغم، ما بين البنى والأصفر، كم دخنت من رءوس مشابهة، فى مقاهى القاهرة، الفيشاوى والندوة الثقافية بناحية باب اللوق وأحمد سعيد ومقهى فاروق بالإسكندرية، فى كافة الأوقات. ليلاً ونهاراً، فجراً وظهراً. ذلك اليوم عندما طلب منى الطبيب التوقف، قلت إننى سأمضى إلى مقهى أحمد سعيد الذى لا أقصده إلا منفردا، أحب فراغه وترتيب أشيائه على النسق العتيق، أدخن مرة أخرى وأتوقف إلى الأبد، تطلع إلىّ الطبيب من تحت منظاره قال:

«يمكنك ذلك. .»

ثم قال:

«أثق بك. .»

ثم قال :

« لو خالفت ، لن تؤذى إلا نفسك . . »

يفتر ثغرها عن ابتسامة فسيحة كأنها تلخيص وإيجاز لسماء المدينة الصريحة ، المنطلقة ، ربما لما أشعر به من حرية وأفق مفتوح على البحر والناس . إنها لا تتطلع إلى صاحبها ، لكنها تتحسسه بعينيها ، تلمسه أحيانا بأصابعها ، لا يقابلها بالمثل ، إنما يزداد انكماشا لا أعرف كنه الصلة ، ربما خطيبها ، ربما عروسان فى البداية ، ربما صديقها ، ربما صلة عابرة . لايعنينى . ما يهمنى عرضها المستمر ونسقها السرح . بنيانها المتناغم ، المتسق .

أنتبه إلى مجىء شاب آخر ، يحمل وعاء النار . الجمرات المشتعلة ، يرصها بعناية ودربة عند حواف التاج التنباكى . أتأمل أصابعه الماهرة . لا أبادر بالحديث ، لا أستفسر عن بلده ، عن خلفية مهارته فى رص الفحم ، أتعجل انصرافه حتى أفرغ لهذا العرض الأنثوى ، لا تتوقف مبادراتها ، لا تكف عن البث ، يكتفى بالتلقى والرد الحذر الذى يبدو أقرب إلى أداء واجب من فيض صدق . ألامس بشفتى مبسم النرجيلة . تنفذ رائحة التنباك المعتق . أحاذر إطلاق الدخان من عقاله ، من مكمنه ، سيضيق صدرى ، خلال سيرى فى السوق المغطى التقطت إشارات من داخلى لايدركها غيرى . .

تنفرج شفتاها ، ما بين فمها وعينيها ميثاق . الفم دائما دعوة ، خاصة عندما تنفرج الشفتان ، عند الطفل طلبا للغذاء ، ولدى الأنثى

سعيًا للتروية. غير أن صاحبنا هذا لايفض بريدها. أبتسم بدون ابتسام، كما أدخن بدون تدخين، إلى كل فعل صرت هكذا! عندما كنا نرى أنثى جميلة بصحبة رجل، نتهامس إذا جلسا قربنا، نتصارح إذا مرّا وابتعدا، تعلو أصواتنا منتقصين منه، مبرزين عيوبه، كل منا يرى أنه الأجدر، الأحق، أبتسم بينى وبينى، كان ذلك زمان، أيام زمان.

ياه..

تفارق مؤخرتها المقعد، يتجه تكوينها صوبه، يزداد انحسار البنطال فيضوى جسدها، غير أننى لا أتوقف عند مفرقها البادى، بل أتأمل تكوين الوضع، أستدعى تمثالا من رخام أبيض شدهت به يوما عند زيارتى الأولى لمتحف رودان فى باريس. كأنها منبثقة منه، مفصحة عنه، أثناء عودتها إلى وضعها ترمقنى بتركيز، إذن.. هى تدرك وتستوعب موقعى، لكنها لا تبدى غير تحفز غامض، تستأنف التحريض.

تدركنى فراهة قوامها، وليونته، تناسقه، انبثاق أجزائه عن بعضها، تكوكبها مع ذاتها وانتظام مدارها حول صاحبها الذى لم يبدل وضعه المنكفئ، أهو هكذا فعلاً أم تلك رؤيتى بتأثير العدوانية القديمة؟

أتطلع إلى التنباك الذى بدأ عبقه مع مس النار. لكنها لم تتوهج، والدخان لم يسر عبر التلافيف، لم أسحب الهواء إلى صدرى. يكفينى العبق. أعود إلى محاولة استيعاب هذا الحضور، لو أنها

مثلت أمامى قبل عشرين أو ثلاثين عامًا لتأججت روحى وفار جسدى ولأنهكت مخيلتى بالتجريد واتخاذ الأوضاع التى لم يطلع عليها أحد. لصار أمرى إلى الغميق الأغمق.

أبث النظر صوبهما، فى هذا الضوء تحت تلك الزرقة الصافية بمصاحبة تلك النسمة الحانية، أرعاهما معًا، ولولا سوء الفهم لقمت إليهما متمنيًا لهما حلو الوداد، مهنئًا له ذلك السعى منها وجميل فيضها..

وهـــن

أضطر إلى إبطاء الخطو. أتمهل، أصغى إلى إيقاع خفى، يسرى داخلى، مستجد علىّ، ينبهنى، إلى بلوغ حد لم أعرفه من قبل، يحضنى أن أرى. أن أتطلع إلىّ، أن أدرك بدل حالى، ثمة لحيظات فاصلة تجتازنا أحيانا ولا ننتبه إليها، غير أننى انتبهت، ربما لطول إصغائى إلى ما يصدر عنّى خلال المراحل الأخيرة، ثمة ما يبطئ خطوى، يخفف من نزوعى.

أتوقف محاولاً تعقب آخر خرج منى، غادرنى، فارقنى إلى نقطة، إلى جهة عسر علىّ تحديدها، لامكان، لاحيز، آخر اتحد بى طويلاً، يدفعنى، يحثنى على إفساح الخطى، أمد الهمة، أتوثب لتجاوز الآخرين، يمضى وقت غير قليل حتى ندرك أننا انتقلنا من

طور إلى طور، إن ما أقبلنا عليه، ما تلهفنا لبلوغه، لنيله، لم يعد هكذا، أحيانا تتوه الحدود، غير أننى أعى بعض ما اكتملت عنده المراحل، منها لحظة إدراكى بلوغى، لذة أول قذف، لم تتكرر فيما تلى ذلك، سواء تم استجابة لمخيلتى، أو تفاعلاً مع أنثى فى الواقع الملموس أو منام حافل بأطياف غامضة، لم تتكرر تلك اللذة قط، الدفعة المنساقة من أعماقى، لتدفق ما بين صلبى وترائبى مصحوبة بألم مبهم مواز لتفتح عارم، لعل ممارستى الحب فيما تلى ذلك توق إلى تكرار تلك المرة، أخبرنى من به معرفة أن الإنسان عند احتضاره يقذف، كأنه يودع الوجود الخارجى بعضاً من بذوره لعلى وعسى، هل تتكرر اللذة الأولى فى المرة الأخيرة تلك؟

من اللحظات سفرى الأول، إدراكى أن سعيى المنفصل عن الأسرة بدأ، وأن التفرق يسرى، أستعيد لحظة تحرك القطار صوب الجنوب فى أول مهمة أخرج إليها، غير أن تلك اللحيظة دانية، جلية رغم خفوتها ونأيها ، أثناء مشيى فى السوق الفسيح متعدد الطوابق، فضاء المكان كله مكيف، واجهات مبهجة، عروض متاحة، منتجات معروفة، لا تكف الإعلانات عنها فى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، توقفت بغتة، انشطار خافت جرى، يمكننى تحديد موضعه فى صدرى لكنه طال جهاتى، تمهلت ، خشيت السقوط أو فقدان الوعى، فقدان الوعى أرهب ما أتوقعه عند سفرى وانتقالى فى غربة، أتذكر معرضا للحلويات الشرقية يؤدى إلى شرفة فسيحة، يمكننى التماس راحة فيها قبل استئناف سيرى للعودة إلى الفندق، بدأت محاولة الوصول إليه، مع أول خطوى تزايد يقينى بفقدانى من كان يمت إلىّ ويمنحنى المدد، مع خطوى يتصل نأيه عنى . .

سديم

أحيانا أتطلع إلى من لا أراهم، أحيانا أحاور من لا وجود لهم، من لا يمكن تعيين حيز محدد يتطلعون إليّ منه، لا ملامح لهم يمكن وصفها، لا سمت يميز هذا عن ذاك، أحياناً أظنهم جمعا وهم مفرد، مرات أتوهم مخاطبة شخص ما، له ملامح إذا تفرست مليًا ربما أتعرف عليها، لكننى مع التدقيق لا أجد ما ظننت أننى على وشك التيقن منه، لا ألقى إلا فراغًا صافى الزرقة إذا كنت فى مواجهة بحر أو سماء صريحة، أو أخوض سحبًا متراكمة أرقبها عبر نافذة طائرة صغيرة أتواصل عبرها مع أولئك الهائمين، السابحين فى الفراغ، تتداخل أطرافهم وملامحهم، أحيانا تندمج مع ندف الغمام أو أطياف الشفق أو لحظات ما قبل الغروب أو شواشى النخيل وحدود الأشجار، أحياناً عند الانفراد بمقهى قصدته بحكم العادة أو عابراً.

لا تواتينى أطيافهم عندما أكون فى صحبة، شرط ظهورهم تهيؤ يخصنى، يبدأ داخلى، لا يعلم به أحد غيرى، ربما تبدو آثاره على ملامحى، عبر تحديق بصرى، أو تقطيب ما حول عينيّ، أو زم شفتى، أو دوران إبهاميّ حول بعضهما، عندئذ يبدأ توافدهم، أدنى دنوهم انفرادى، انبتاتى عما حولى، غوصى داخلى حتى لوكنت فى جمع، خاصة عند جلوسى مستمعا إلى موسيقى فى حفل تلمس رقائق عندى دفينة، أو إصغائى إلى غناء قديم يؤطر أزمنة ولت، يبدأ

الحوار مع اكتمال صمتى، وفادة أخرى من داخلى لا أمنحها الإذن ولا أبدى لها الإشارة، تفاجئنى مجهلة، غامضة، عندئذ يبدأ الحوار غير المنطوق بين من لا يمكننى داخله عندى ومن أعجز عن معرفتهم أمامى، شيئاً فشيئاً يتلاشى حضورى الملموس، يتصل البث والتلقى بين ما ينبعث منى وما يواتينى من خارجى، مع تصاعد نبرى غير المسموع، يخفت مثولى، أشف، أخف، تنطمس معالمى عبر ذلك الجدل بين من لم ألتق بهم ولم أحدد مصادرهم، يتداخل الأمر، يشكل علىّ، تصير الأسئلة أجوبة، والأجوبة استفسارات، أما كافة المشاعر التى أمكننى تصنيفها عبر ترحال أيامى فتصير زغباً هائماً فى سديمى..

خسوف

لم تنشر الصحف سطراً عن توقع حدوثه كذلك النشرات الإخبارية المسموعة والمرئية غير أننى كنت أتوقعه وأتأهب لإطالة النظر إليه، ليس لأننى من علماء الفلك، لكننى من المهتمين المتابعين لدوافع شتى عندى بثثت بعضها فى هذا التدوين وأخفيتها، إنما ذلك لأسباب.

كنت ملمًا بلحظة البدء. بالضبط الساعة التاسعة عشرة وخمسون دقيقة وثمانى ثوان. أما دخول منطقة الظل فيبدأ تمام الساعة العشرين

وثمان وأربعين دقيقة وثانيتين . كنت أعرف وقت دخوله الخسوف الكلى، ولحظة خروجه منه، كذلك من منطقة الظل وشبه الظل، النهاية تمام الساعة الخامسة والعشرين وتسع دقائق وخمس ثوان، كنت أعرف أن اكتماله بدراً فى الساعة الثانية والعشرين والدقيقة الثالثة والثلاثين .

فى بداية العام أتلقى العديد من التقاويم كهدايا، أوزعها على من أكن له المودة، أحتفظ بواحد فقط . تقويم معهد الأرصاد الفلكية، لكل يوم صفحة، التاريخ العربى، الإفرنجى . القبطى، مواقيت الصلاة، يزيد عن أى تقويم آخر بتدوين حركة الفلك، أسفل كل صفحة، يوميًا أتطلع لأعرف أخبار الكواكب والنجوم، منها علمت بخسوف الرابع من مايو . ثلاثاء .

أخرج إلى الشرفة الصغيرة المواجهة للفراغ، منها أتطلع إلى السماء، لزمتها ليالى عدة عند اقتراب المريخ من الأرض، حدث لايتكرر إلا بعد آلاف الأعوام قدر لى أن أشهده، الليلة يبدأ وينتهى خسوف مكتمل . الخسوف الأتم لا يكون إلا مع تمام البدر، لكى يكتمل الظل ويحجب الضوء تمامًا لابد أن يضىء القرص المستدير إلى أقصى حد، لابد أن تتم الاستدارة لاكتمالها عند أهل الرصد، توقيت دقيق يقاس بأجزاء الثانية، هكذا لا يكون البدر بدراً إلا لأجزاء من الثانية . قبلها ناقص وبعدها منحسر، لكن لايدرك ذلك إلا أهل التدقيق والاختصاص، أما الناظر غير الملم فيظنه مكتملاً وهو ناقص، يراه بدراً والحقيقة مغايرة لذلك .

هاهو بدء دخول منطقة الظل، تنقص الاستدارة المضيئة، تتآكل

بقدر معلوم. الاستدارة لا تقبل شبيهتها لابد أن تأخذ أحدهما من الأخرى. ما يبدو أنه ظل كثيف ليس إلا ظل الأرض، يصل الكوكب أثناء دورانه ومساره إلى حد يحول بين ضوء الشمس وسطح القمر فتبدأ العتمة العارضة، كل يسبح فى مداره، ماذا لو وقع خلل؟ لو حدث خلل، أخبرنى من أثق به أن ذلك ممكن. إذن.. لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟

فى مواجهة مالا نقدر عليه ليس بوسعنا إلا السؤال، سرًا أو جهرًا. مع إدامة النظر، طول التحديق أكاد أصبح جزءًا مما يجرى مع امتزاج الدائرتين تأخذ كل منهما شيئًا، الظل يمتزج بالضوء المتوارى فيبدو ذلك اللون القاتم الممتزج بحمرة. بعكس الليالى التى يبدو فيها القمر هلالاً وليدًا أو ناميًا. نرى جزءًا من الدائرة ولا تقع أبصارنا على بقية حدودها. عتمة مكتملة، لكن فى هذا الحال العارض لاتختفى الحدود، مع تزايد الظل تبدو حواف القمر المتوارية، يزداد وضوحًا هذا اللون الاستثنائى الناتج عن التمازج.

أعرف دوران الأرض حول نفسها، لكننى على فترات متباعدة أنتبه إلى تعاقب الليل والنهار باعتبارهما عرضا لهذا الدوران. مع بدء زحف الظل أدرك مع زيادة تقدمه أو بدء انحساره المرتقب حركة الكوكبين فى الفضاء. فى الفراغ، تقدم دائرة الظل وتناقص دائرة الضوء يعنى الحركة المتبادلة، الوصول إلى وضع استثنائى، لا يتكرر إلا على فترات زمنية لا أعرف من يحددها، المسار أم اكتمال الدورة أم مالا نعلمه؟

تبطئ أنفاسى مع اكتمال الظل، تمام الخسوف، يتضح اللون الأحمر المتداخل مع العتمة، هذا ظل الكوكب الذى أسعى فوقه إلى

حين، الذى يرقد فى ثراه أولئك الذين سبقونى وما واكبهم من أحياء يصعب رصدها أو كانت تملأ الدنيا صخبًا وضجيجًا، كل ما سبقنى يوجد فى هذا الظل هناك، كذلك حضورى فى تلك اللحظة. إنما أنا جزء من هذا الظل المستدير، أنا هناك، هنا أيضًا. أنا لست هناك لأننى هنا، إننى هنا لأننى هناك، المؤكد أن ذلك الظل يحتوينى، أننى أحتويه.

أتحد بمن؟ بمن أقف عليه أم بمن انعكس عليه؟!

بنيـان

آخر ما يتبقى من الإنسان البنيان، قد يحتوى البناء على شفرة. رسالة تنتقل من عصر إلى عصر. من دهر إلى دهر. ربما تجد من يفكها. وربما تنقضى بدون اتصال..

ما قبل وما بعد

لتعيين الحدود بين الموجودات موقع عظيم عند أجدادى المصريين. حدود الزرع، حدود الرى، حدود البناء، لم يحددوا فقط الأمكنة.

إنما الأزمنة أيضـا . . أقتنع بما وصلنا من حدود المكان، غير مستوعب لما يتعلق بالأزمنة، الأول قطعى، ملموس ، الثانى تقديرى نسبى، متوهم، حدد القدماء التوقيتات بالنظر إلى دورة الكواكب. اعتبروا الآن مقياسا ماسبقها قبل وما يليها بعد، ماض ومستقبل. لكننى أقول بنسبية كليهما بل أمعن فأقول بنفى الآن، لايوجد آن. بمجرد تفوهى الآن تفلت. تولى، بمجرد الإشارة تولى. الأمس والغد كلاهما متخيل. أين الأمس وأين الغد؟ كلاهما متخيل لماذا يكون الما بعد هو الما قبل، لماذا نفترض تقدم الزمن؟ لماذا لا يمضى بطريقة عكسية؟ خاصة إذا كان له بداية. فإنه ماض إلى نقصان. إلى نهاية. إذن. . ألا يكون الماضى أمامنا. ألا نتجه نَحوه، نصعد إليه؟ عندئذ يكون المستقبل فى الفائت، لأنه أقرب إلى البداية. أما الآتى فأدنى إلى النهاية. ألن يغرب الإنسان الفرد عند نقطة كامنة فى الآتى. هذا الكوكب ألن يفنى عند نقطة محددة يمكن تقديرها الآن بالقياسات؟ ألن تتبدل كافة الموجودات عندئذ يتساوى الما قبل بالما بعد، إذن . . ألا تتجه المصائر إلى الماضى. ألن تتحد بالماضى الأشمل الذى يصير إليه كل حى، كل موجود، مع اتحادها به لايكون شيئا، لا يكون إلا اللاشىء. حيث الماقبل والما بعد معًا.

رحم الأرض

فى تلك الزيارة أدركت ماخفى علىّ فى المرات السابقة.

عند اقترابى من مدخل وادى الملوك أتوقف. ينفرج الوادى كامرأة مستلقية. فخذاها وساقاها طرفا الوادى. يتضامان ليرتفع منهما ذلك التل الهرمى. وكأنه نهد فتى، مشرع، أفكر فيمن اهتدى إلى الموقع الذى كان من المفروض أن يظل هادئًا خفيًا، نائياً عن كل عبث، لابد أن ذلك الانفراج وذلك الهُريم الذى نحتته الطبيعة كانا عنصراً حاسماً، أما المراقد الأبدية فحاولت الاقتران بالبعد الإنسانى.

تتشابه المداخل، فتحات بعضها مستطيل والآخر دائرى أو غير منتظم، تماما كفروج النساء لا يشبه أى منها الآخر، تؤدى الفتحة إلى ممر، يميل إلى أسفل، أو إلى أعلى، ضيق، لا بد أن ينحنى عبره المرء، وقد يضطر إلى الحبو على أربع، طالت المسافة أم قصرت ينتهى الممر إلى غرفة الدفن، بيضاوية الشكل، تماماً مثل الرحم بيضاوى، الشكل النهائى للكون بيضاوى وليس دائرياً، فهل البيضة دلالة، وهل الرحم رمز، مع التمام يعود الإنسان إلى الرحم الأكبر، إلى الأرض، يتذرى، يتحد بها، غير أنه فى محاولة نبيلة للفهم، صاغ المرقد الأخير على هيئة الرحم، التابوت، حجرة الدفن، حفر ورسم الرموزالدالة، السقف منثور عليه النجوم، ومرسوم الأبراج، بينما تتمدد الإلهة نوت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن فرجها تولد الشمس، على الجدران حقول يارو الأبدية، وتفاصيل العبور من ساعة إلى أخرى فى الليل الأبدى، سقف التابوت من الداخل محفور عليه الإلهة نوت، تظلل الراقد، الراحل عبر اللا نهاية، الأرضية عليها جب المسئول عن الأرض، أما الأجناب فمرسوم عليها المسافر فى رحلته، مهما ضاق الحيز فالمسافات كلها موجودة،

مختزلة، اختزال المكان، اختزال الزمان، المعانى، واختزال الكون فى الرحم الأرضى، اختزال الاختزال.

الأولى

أنثنى متطلعا مرة أخرى إلى القذفة الأولى. نادرة جداً تلك اللحيظات الأولى التى احتوت البدايات، سرعان ما تستقل عما يسبقها وما يليها، تشخص عندى، وأحدق إليها، من ذلك لحظة إدراكى البلوغ، إنها القذفة الأولى، تعرفى على تلك اللذة الغامضة، غير المعهودة عندى، كأن قوة خفية، تحملنى كلى على مالايمكن رؤيته، ترفعنى إلى حيث لا أدرى، وتصيبنى كلى بتركيز حاد، هذا مصحوب بشكة منبعثة من العمق العميق، ألم؟ ربما، فرادة لم أعرفها من قبل ولا من بعد، تلك اللذة الأولى لم تتكرر، منذ ذلك الحين أسعى إليها ولم أتوصل بها أو إليها حتى الآن، غير أننى قرأت وعلمت ما دفع بى إلى التخمين، حدث أن مات صاحب لى فى فندق، عثروا عليه أثناء سفره، متمدداً على ظهره، شاخصاً إلى أعلى، أزمة قلبية، لا أذكر من قال على مسمع منى، أن القذف آخر ما يقدم عليه الإنسان أثناء احتضاره، الاحتضار الطبيعى، بمنأى عن أسباب القتل المفاجئ، آخر مايعرفه تلك اللذة مجهولة الكنه، لها مذاق الحلوى، لكنها حلوى فريدة منبعها داخل الجسد وليس

خارجه، داخلنى يقين أن اللذة الأخيرة تشبه الأولى، توازيها، القذفة الأولى مفتتح القوس، والأخيرة إغلاقه، يداخلنى يقين أن الأخيرة تلك، إذا أتيح لى تذوقها، استعادة للأولى، المفتتح والختام معاً.

فراشة

أكف، أتطلع صامتاً، عند حافة الشرفة تحط فراشة عميقة الخضرة، درجة من اللون لم أعرف مثلها، أقول فراشة تجاوزاً، لم أر من قبل مثلها، ربما وسط بين الفراش والحشرات الكبيرة، أشخص، يسرى عندى مالا قبل لى به، يتصل منى إليها شيء، أمر، سريان، ينظر ابنى إلىّ، لا يبادر بالاستفسار، يتبعنى فى حالى.

أستعيد لحظة نائية، أجلس إلى جوار أمى طفلاً فوق السطح، أستفسر عن سبب ذلك التعبير الغريب على وجهها، دوام نظرها إلى فراشة حطت، لكننى لا أتمكن من لونها، غاب عنى.

مالك يا أمى..

تشير بيدها، لا تلتفت إلىّ.

«اسكت.. إنها روح جدتك..»

فسرت لى فيما بعد، بعد الرحيل تتقمص الروح أشكالا عديدة. طائر، فراشة، تحوم حول من أوحشهم فقدها. تتزود منهم وتمضى.

تتـوارى مـفـردات الواقع المحـيط بى، الشـارع القـريب، الأشـجـار البادية، الجدران غير أننى أنتبه إزاء إصرار ابنى . .

«مالك يا أبى . .»

بـــداية

ما بين السرير والدولاب. مسافة ضيقة. أجلس مطرقًا فى الحجرة الصغيرة المطلة على الدرب، يوم ما من سنة تسعة وخمسين. لكننى أجهل اسم اليوم، موقعه من الشهر. اسم الشهر. موقعه من السنة، فجأة يتحرك عندى ما يغمض علىّ، رغبة. نزوع، توق، طاقة مستعصية على التصنيف أو التحديد، أن أكتب، أن أدون حكاية أصغيت إلى تفاصيلها من أبى، أن أرويها مكتوبة، رجل فقير ادّعى الترنح والسكر ليسرق رغيف خبز، لكن الخلق انتبهوا وأمسكوا بالحرامى، ما بين بدء الرغبة، ما بين تحرك الطاقة والشروع وقت قصير، ومنذ أن بدأت لم أكف . .

تساؤل

لماذا يجزع الناس من الموت؟

مع أن الموت ضرورى لوجود الحياة، لو لم يمت السابقون لما جئنا وسعينا وتلانا اللاحقون؟ لماذا الخشية من التمام إذن؟

تساؤل

أتأمل من خلال نافذة القطار، الأشجار. النخيل، الطرق، القرى، المدن، الفيافى، كل شىء يمرق إلى الوراء، ترى من يعبر الآخر؟ هل أعبر هذا كله أم أن الموجودات تعبرنى؟ من يوجد الآخر، أنا برؤيتى للأشياء. أم الأشياء التى ترانى؟ من يرى الآخر؟ المدن والقرى ترانى، أم أنا الذى أرى المدن والقرى والناس والبشر؟

تساؤل

لماذا يبكى المولود فور ظهوره؟

تساؤل

هل للزمن بداية؟

تساؤل

لماذا لاتكون الراحة إلا بعد توالى الزفرات الحرى؟

تساؤل

بين اجتهادات الإنسانية لمعرفة أصل الموضوع كله، اجتهاد يقول إن الكون الذى نعيش فيه بدأ لحظة انفجار كبير تلاه تمدد مازال مستمراً حتى الآن وإنه قد يصل إلى نقطة يبدأ انحساره عندها. كانت العناصر فى البدء على درجة عالية من الكثافة. مع الانفجار بدأ المكان والزمان. ولأن ما نتقنه من قوانين الوجود يؤكد أن المادة لا تفنى ولا تستحدث، فهل يحق لى التساؤل عن ذراتى المكونة وموضعها من البداية المكثفة، كيف كانت؟ وماذا عن أشكال تحولاتها وتبدلاتها أثناء تمدد الكون. إلى أن حل وقت تشكلت فيه وسعيت ودونت. ثم أعود كما بدأت؟ ماذا سيصير إليه حالى؟ مع انكماش الكون إلى أين

ستمضى مكوناتى؟ كيف ستنضغط؟ هل ستتقارب أم أنها ستكون فى تناثر بعـد تحلل وعـائى الحـاوى وتبـدده إلى مـالا أدريه؟ . هـل من سبيل؟ .

تســاؤل

أميل محدقًا فى المرآة .

تلك مـلامـحى . أتقنهـا . أتعـرف عليـهـا . هذه آثار أشـواقى . خـوضـاتى اللجج ، هزائمى ، بصـيص آمـالى . شـدائد توقى . قلة حيلى ، ركض صبواتى ، جهات حنينى .

يطالعنى هذا كله عبر صورتى ، فمن يرى من؟

٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤